

للامام الهمام حجة الاسلام

ابى حامد محمد بن محمد الغزالى

المتوفى فى سنة ٥٠٥ هـ

قال فى كشف الظنون : وهو قسم من كتابه المسمى بجواهر القرآن ـ وقد أجاز أن يكتب مفردا فكتبوه وجعلوه كتابا مستقلا ـ لهذا طبعناه مستقلا

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب ٥٧٨



للامام الهمام حجة الاسلام

ابى حامد محمد بن محمد الغزالى

المتوفى فى سنة ٥٠٥ هـ

قال فى كشف الظنون : وهو قسم من كتابه المسمى بجواهر القرآن ـ وقد أجاز أن يكتب مفردا فكتبوه وجعلوه كتابا مستقلا ـ لهذا طبعناه مستقلا

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب ٥٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين .

« أما بعد » ولعلك تقول هذه الآيات التى أوردتها فى القسم الثانى تشتمل على أصناف مختلفة من العلوم والأعمال فهل يمكن تمييز مقاصدها وشرح جملها على وجه من التفصيل والتحصيل يمكن التفكر فى كل واحدة منها على حيالها ليعلم الانسان تفصيل أبواب السعادة فى العلم والعمل ويتيسر عليه تحصيل مفاتيحها بالمجاهدة والتفكر « فأقول » نعم ذلك يمكن فانه ينقسم جمل مقاصدها الى علوم وأعمال والأعمال تنقسم الى ظاهرة وباطنة . والباطنة تنقسم الى تزكية وتحلية . فهى أربعة أقسام : علوم وأعمال ظاهرة وأخلاق مذمومة تجب التزكية عنها . وأخلاق محمودة تجب التحلية بها . وكل قسم يرجع الى عشرة أصول واسم هذا القسم « كتاب الأربعين فى أصول الدين » فمن شاء أن يكتبه مفردا فليكتب فانه يشتمل على زبدة علوم القرآن .

القسم الأول

فى جمل العلوم وأصولها وهى عشرة

الأصل الاول فى الذات

« فنقول » الحمد الذى تعرف على عباده بكتابه المنزل على لسان نبيه المرسل بأنه فى ذاته واحد لا شريك له ، فرد لا مثل له ، صمد لا ضد له ، متوحد لا ند له ، وأنه قديم لا أول له ، أزلى لا بداية له . مستمر الوجود لا آخر له ، أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له . لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال ، بتصرم الآماد وانقراض الآجال . بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عظيم .

الأصل الثانى فى التقديس

وانه ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وانه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ، ولا يماثله موجود ، وليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء . وانه لا يحده المقدار ، ولا تحــويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهــات ، ولا تكتنفه السموات ، وانه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والتحول والانتقال . لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته ، وهو فوق العرش وفوق كل شيء الى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا الى العرش والسماء . بل هو رفيع الدرجات على العرش كما أنه رفيع الدرجات على الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب الى العبيــد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد . اذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا يماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل فى شيء ، ولا يحل فيه شيء ، تعالى عن ان يحويه مكان كما تقدس

عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وأنه باين بصفاته من خلقه ليس فى ذاته سواه ولا فى سواء ذاته ، وأنه مقدس عن التغيير والانتقال لا تحله الحوادث ، ولا تعتريه العوارض بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ، وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار ، نعمة منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار ، واتماما للنعيم بالنظر الى وجهه الكريم .

الأصل الثالث فى القدرة

وأنه حى قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ؛ ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت ، له القدرة والسلطان والقهر والخلق والأمر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون فى قبضــته ، وأنه المتفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالايجاد والابداع خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ؛ لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته .

الأصل الرابع فى العــلم

وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى فى تخوم الأرضين الى أعلى السموات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصــماء فى الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر فى جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا فى أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالتحول والانتقال .

الأصل الخامس فى الارادة

وأنه مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل ولا كثير ولا صغير ولا كبير ، خير أو شر نفع أو ضر ، ايمان أو

كفر ، عرفان ، أو نكر ، فوز أو خسر ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، الا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته الا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة على طاعته الا بمعونته وارادته لو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون ارادته ومشيئته عجزوا عن ذلك . وأن ارادته قائمة بذاته في جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها مريدا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وارادته من غير تبدل ولا تغير . دبر الأمور بلا ترتيب أفكار وتربص زمان — فلذلك لا يشغله شأن عن شأن .

« اعلم » أن هذا المقام مزلة الأقدام . ولقد زلت فيه أقدام الأكثرين لأن تمام تحقيقه مستمد من تيار بحر عظيم وراء بحر التوحيد وهم يطلبونه بالبحث والجدال . ولقد قال رسول الله ﷺ « ما ضل قوم بعد هدى الا أوتوا الجدل » ويستدلون بآيات القرآن مؤولين وليسوا من أهل التأويل ، ولو نال كل واحد مقام التأويل لما قال ﷺ داعيا لابن عباس رضى الله عنهما « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ولما قال يعقوب ليوسف على نبينا وعليهما السلام « كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » قال صاحب الكشاف في تفسيرها : يعني معاني كتب الله وسنن الأنبياء عليهم السلام ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها تفسرها لهم وتشرحها ، وتدلهم على مودعات حكمها .

وانما زلت أقدام الأكثرين في هذا المقام لأنهم يتبعون الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم . وهؤلاء ليسوا براسخين فيه بل هم قاصرون عاجزون فلقصورهم لم يطيقوا ملاحظة كنه هذا الأمر . فألجموا عما لم

يطيقوا خوض غمراته بلجام المنع مع سائر القاصرين . فقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر . فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه الشريف ، فقال « أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت اليكم انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر . عزمت عليكم فى هذا الأمر أن لا تنازعوا فيه » .

وعن أبى جعفر قال قلت ليونس بن عبيد مررت بقوم يختصمون فى القدر ، فقال لو همتهم ذنوبهم مااختصموا فى القدر ، وامتلأ مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله ، وكان زيتهم صافيا حتى يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فاشتعل نورا على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كما هى عليه ، فقيل لهم تأدبوا بآداب الله واسكتوا واذا ذكر القدر فأمسكوا — فلذلك أمسك عمر لما سئل عن القدر فقال للسائل بحر عميق لا تلجه ولما كرر السؤال فقال طريق مظلم لا تسلكه ، ولما كرر ثالثا فقال سر الله قد خفى عليك فلا تفتشه . ومن أراد معرفة أسرار الملكوت فليلازم بابهم بالمحبة والاخلاص والصدق والاعراض عن أعدائهم ، والامتثال بأوامرهم والسعى فيما يرضيهم — وكذلك من أحب معرفة أسرار الربوبية فليلازم باب الله عز وجل بالمحبة والاخلاص والصدق والتعظيم والحياء والامتثال بالأوامر والانتهاء عن المعاصى والمجاهدة والاقبال بكنه الهمة والتعرض لنفحاته لقوله عليه السلام « ان لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » والسعى فيما يرضى وان لم يطق ذلك فعليه ان يعتقد فى هذا البحث ما عليه أبو حنيفة رحمه الله وأصحابه ، حيث قالوا احداث الاستطاعة فى العبد فعل الله ، واستعمال الاستطاعة المحدثة فعل العبد حقيقة لا مجازا .

« والقدرية » أنكروا قضاء الله ورأوا الخير والشر من أنفسهم أرادوا بذلك تنزيه الله عن الظلم وفعل القبيح . ولكنهم ضلوا اذ نسبوا العجز الى الله تعالى فى ضمن ذلك ولم يدروا .

« والجبرية » اعتمدوا على القضاء ورأوا الخير والشر من الله ولم يروا من أنفسهم فعلا كما لم يروا من الجمادات أرادوا بذلك تنزيه الله

تعالى عن العجز فضلوا اذ نسبوا الظلم اليه تعالى فى ضمن ذلك وأضلوا سفهاءهم ، فكانوا يعصون الله وينسبون الى الله ويبرئون أنفسهم عن الذم واللوم كالشيطان حيث قال : « فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .

« فالحاصل ان القدرية » أثبتوا الاختيار الكلى للعبد فى جميع أفعال العباد وانكروا قضاء الله تعالى وقدره بالكلية فى الأفعال الاختيارية .

« والجبرية » نفوا الاختيار بالكلية فى أفعال العباد واعتمدوا على القضاء والقدر فينبغى للباحث معهم أن يضربهم ويمزق ثيابهم وعمائمهم ويخدش وجوههم وينتف أشعارهم وشواربهم ولحاهم ويعتذر بما اعتذر هؤلاء السفهاء فى سائر أفعالهم القبيحة الصادرة منهم .

« والمعتزلة » أضافوا الشر فقط الى أنفسهم ، فأثبتوا لأنفسهم الاختيار الكلى تحرزا عن نسبة القبح والظلم الى الله ولكن نسبوا الى الله العجز فى ضمن ذلك ولم يدروا . فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وأما أهل السنة والجماعة فتوسطوا بينهم فلم ينفوا الاختيار عن أنفسهم بالكلية ولم ينفوا القضاء والقدر عن الله تعالى بالكلية بل قالوا أفعال العباد من الله من وجه ومن العبد من وجه وللعبد اختيار فى ايجاد أفعاله .

« واعلم » أن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه قضاء الطاعات ، وقضاء المعاصى ، وقضاء النعم ، وقضاء الشدائد . والمذهب المستقيم فى ذلك اذا قضى للعبد الطاعة فعليه أن يستقبله بالجهد والاخلاص حتى يكرمه الله بالتوفيق والهداية لقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » يعنى الذين جاهدوا فى طاعتنا وفى ديننا لنوفقنهم لذلك . واذا قضى المعصية فعليه أن يستقبله بالاستغفار والتوبة والندامة من صميم الفؤاد لقوله تعالى « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » واذا قضى النعمة فعليه أن يستقبله بالشكر والسخاء حتى يكرمه بالزيادة لقوله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » واذا قضى الشدة فعليه أن

يستقبله بالصبر حتى يعطيه الكرامة فى الدار الآخرة لقوله تعالى « ان الله يحب الصابرين » وقال « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وذكر الفاضل الامام مولانا علاء الدين فى شرحه للمصابيح الفرق بين القضاء والقدر هو أن القضاء وجود جميع الموجودات فى اللوح المحفوظ اجمالا لا تفصيلا . والقدر هو تفصيل قضائه السابق بايجادها فى المواد الخارجية واحدا بعد واحد . وقيل القضاء هو الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ، والقدر تعلق تلك الارادة بالأشياء فى أوقاتها الخاصة . ثم ان المسلمين فى القدر على اختلاف :

« منهم » من ذهب الى أن كل ما يجرى فى العالم من الخير والشر والأفعال والأقوال بقضاء الله وقدره ولا اختيار للعباد فيه ويسمى هذا القوم جبرية . والجبر هو القهر والاكراه فيقولون أجبر الله عباده على أقوالهم وأفعالهم من غير اختيار منهم فيها . ويزعمون أن اضافتها اليهم اضافتها الى الجمادات فى مثل قولنا دارت الرحا وجرى الميزاب . وهذا المذهب باطل لأنهم ان قالوا هذا القول ليسقطوا عن أنفسهم التكاليف . وشبهوا أنفسهم بالصبيان والمجانين فى عدم جريان الخطاب بهم ، فقد كفروا لأن مذهبهم يقضى الى ابطال الكتب والرسل ، وان قالوا ذلك لتعظيم الله وتحقير أنفسهم وعجزهم عن دفع قضاء الله ، فهم مبتدعون لمخالفتهم الاجماع .

« ومنهم » من ذهب الى أن كل ما يصدر عن العباد عقيب قصدهم وارادتهم يكون واقعا بقدرتهم واختيارهم ولا يتعلق بها بخصوصها قدرة الله وارادته . ويسمى هؤلاء قدرية لنفيهم القــدر لا لاثباتهم . وهذا المذهب أيضا باطل لأنهم ان قالوا هذا القول عن اعتقاد جواز العجز عن التقدير لله تعالى فهم كافرون . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وان قالوا عن خطأ اجتهاداتهم وتنزيه الحق عن تقدير أفعالهم القبيحة وخلقها فهم مبتدعون لمخالفتهم الاجماع .

« ومن هذه الطائفة » من يقول الخير بتقــدير الله والشر ليس بتقديره « والمذهب الحق » هو أن المؤثر مجموع القدرتين قدرة الله

وقدرة العباد . فالأفعال الصادرة عن العباد كلها بقضاء الله وقدره . ولكن للعباد اختيار ، فالتقدير من الله والكسب من العباد — وهذا المذهب وسط بين الجبر والقدر — وعليه أهل السنة والجماعة : انتهى كلامه .

وذكرنا في كتاب المقصد الأقصى (١) تدبير رب الأرباب ومسبب الأسباب أصل وضع الأسباب ليتوجه الى المسببات حكمه ونصبه الأسباب الكلية الأصلية الثابتة المستقرة التى لا تزول ولا تحول كالأرض والسموات السبع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التى لا تتغير ولا تنعدم الى أن يبلغ الكتاب أجله ، قضاؤه كما قال « فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها » وتوجيهه هذه الأسباب بحركاتها المناسبة المحدودة المقدرة المحسوبة الى مسببات الحادثة منها لحظة بعد لحظة قدره . فالحكم هو التدبير الأول الكلى والأمر الأزلى الذى هو كلمح البصر «والقضاء» هو الوضع الكلى للأسباب الكلية الدائمة « والقدر » هو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدرة المحسوبة الى مسبباتها المعدودة المحدودة بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص — ولذلك لا يخرج شيء عن قضائه وقدره . ولا تفهم ذلك الا بمثال ولعلك شاهدت صندوق الساعات التى بها تتعرف أوقات الصلوات وان لم تشاهده فجملة ذلك أنه لابد فيه من آلة على شكل اسطوانة تحوى مقدارا من الماء معلوما . وآلة أخرى مجوفة موضوعة فيها فوق الماء وخيط مشدود أحد طرفيه فوق هذه الآلة المجوفة ، وطرفه الآخر فى أسفل ظرف صغير موضوع فوق الآلة المجوفة وفيه كرة وتحته طاس بحيث لو سقطت الكرة وقعت فى الطاس وسمع طنينها ثم تثقب أسفل الآلة الاسطوانية ثقبا بقدر معلوم ينزل الماء منه قليلا قليلا . فاذا انخفض الماء انخفضت الآلة المجوفة الموضوعة على وجه الماء فامتد الخيط المشدود بها فحرك الطرف الذى فيه الكرة تحريكا يقربه من الانتكاس الى أن

---

(١) كذا فى النسخ التى قوبلت عليها الطبعة الأولى وفى نسخة الخزانة « النورية » : قال الامام حجة الاسلام الغزالى رحمة الله عليه فى كتاب المقصد الأقصى الخ .

ينتكس فتندحرج منه الكرة وتقع فى الطاس وتطن وعند انقضاء كل ساعة تقع واحدة . وانما يتقدر الفصل بين الوقعتين بتقدير خروج الماء وانخفاضه — وذلك بتقدير سعة الثقب الذى يخرج منه المـاء ويعرف ذلك بطريق الحساب ، فيكون نزول الماء بمقدار مقدر معلوم بسبب تقدير سعة الثقبة بقدر معلوم . ويكون انخفاض أعلى الماء بذلك المقدار وبه يتقدر . وانخفاض الآلة المجوفة وانجرار الخيط المشدود بها ، وتولد الحركة فى الظرف الذى فيه الكرة . وكل ذلك يتقدر بتقدر سببه لا يزيد ولا ينقص ويمكن أن يجعل وقوع الكرة فى الطاس سببا لحركة أخرى ، وتكون الحركة الأخرى سببا لحركة ثالثة — وهكذا الى درجات كثيرة حتى يتولد منها حركات عجيبة مقدرة بمقادير محدودة ، وسببها الأول نزول الماء بقدر معلوم .

فاذا تصورت هذه الصورة « فاعلم » أن واضعها يحتاج الى ثلاثة أمور « أولها » التدبير وهو الحكم بانه ما الذى ينبغى أن يكون من الآلات والأسباب والحركات حتى يؤدى الى حصول ما ينبغى أن يحصل ، وذلك هو الحكم « والثانى » ايجاد هذه الآلات التى هى الأصول . وهى الآلة الاسطوانية لتحوى الماء والآلة المجوفة لتوضع على وجه الماء ، والخيط المشدود بها والظرف الذى فيه الكرة والطاس الذى تقع فيه الكرة — وذلك هو القضاء .

« الثالث » نصب سبب يوجب حركة مقدرة محسوبة محدودة وهو ثقب أسفل الآلة ثقبة مقدرة السعة ليحدث بنزول الماء منها حركة فى الماء تؤدى الى حركة وجه الماء بنزوله ، ثم الى حركة الآلة المجوفة الموضوعة على وجه الماء ، ثم الى حركة الخيط ، ثم الى حركة الظرف الذى فيه الكرة ، ثم الى حركة الكرة ، ثم الى الصـدمة بالطاس اذا وقع ، ثم الى الطنين الحاصل منها ، ثم الى تنبيه الحاضرين واستماعهم ، ثم الى حركاتهم فى الاشتغال بالصلوات والأعمال عند معرفتهم بانقضاء الساعة . وكل ذلك يكون بقدر معلوم ومقدار مقدر بسبب تقدر جميعها بقدر الحركة الأولى ، وهى حركة الماء .

فاذا فهمت أن هذه الآلات أصول لابد منها للحركة ، وأن الحركة لابد من تقدرها ليتقدر ما يتولد منها فكذلك فافهم حصول الحوادث المقدرة التى لا يتقدم منها شيء ولا يتأخر اذا جاء أجلهم (١) أى حضر سببها ، وكل ذلك بمقدار معلوم « ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » فالسموات والأفلاك والكواكب والأرض والبحر والهواء وهذه الأجسام العظام فى العالم كتلك الآلات . والسبب المحرك للأفلاك والكواكب والشمس والقمر بحساب معلوم كتلك الثقبة الموجبة لنزول الماء بقدر معلوم . وافضاء حركة الشمس والقمر والكواكب الى حصول الحوادث فى الأرض كافضاء حركة الماء الى حصول تلك الحركات المفضية الى سقوط الكرة المعرفة لانقضاء الساعة . ومثال تداعى حركات السماء الى تغيير الأرض هو أن الشمس بحركتها (١) اذا بلغت الى المشرق فاستضاء العالم وتيسر على الناس الابصار . فيتيسر عليهم الانتشار فى الأشغال . فاذا بلغت المغرب تعذر عليهم ذلك فرجعوا الى المساكن . واذا قربت من وسط السماء وسامتت رؤوس أهل الأقاليم حمى الهواء واشتد القيظ وحصل نضج الفواكه . واذا بعدت حصل الشتاء واشتد البرد ، واذا توسطت حصل الاعتدال فظهر الربيع وأنبتت الأرض . وظهرت الخضرة . وقس بهذه المشهورات التى تعرفها الغرايب التى لا تعرفها . فاختلاف هذه الفصول كلها مقدرة بقدر معلوم لأنها منوطة بحركات الشمس والقمر « والشمس والقمر بحسبان » أى حركتهما بحساب معلوم — فهذا هو التقدير . ووضع الأسباب الكلية هو القضاء والتدبير الأول الذى هو كلمح البصر هو الحكم . وكما أن حركة الآلة والخيط والكرة ليست خارجة عن مشيئة واضع الآلة بل ذلك هو الذى أراده بوضع الآلة — فكذلك كل ما يحدث فى العالم من الحوادث شرها وخيرها نفعها وضرها غير خارج عن مشيئة الله تعالى بل ذلك مراد الله تعالى ولأجله دبر أسبابه ، وهو المعنى بقوله « ولذلك خلقهم » . وتفهيم الأمور الالهية بالأمثلة العرفية عسير . ولكن المقصود من الأمثلة التنبيه ، فدع المثال وتنبه للغرض . واحذر من التمثيل والتشبيه .

(١) وفى النسخة النورية : أجلها .
(٢) وفى النسخة النورية : بحركاتها .

الأصل السادس فى السمع والبصر

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وان دق ، ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام . يرى من غير حدقة ولا أجفان ويسمع من غير أصمخة ولا آذان كما يعلم من غير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة اذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذات الخلق .

الأصل السابع فى الكلام

وأنه متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم . قائم بذاته لا يشبه كلامه كلام الخلق كما لا يشبه ذاته ذوات الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء واصطكاك أجرام ، ولا حرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله ، وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال الى القلوب والأوراق ، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله سبحانه من غير جوهر ولا شكل ولا لون ولا عرض . واذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الأصل الثامن فى الافعال

وأنه لا موجود سواه الا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم فى أفعاله ، عادل فى أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، اذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى سبحانه فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما .

فكل ما سواه من انس وجن وشـيطان وملك وسماء وأرض وحيوان ونبات وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وانشاء بعد أن لم يكن شيئا اذ كان فى الأزل موجودا وحده ولم يكن معه غيره . فأحدث الخلق اظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من ارادته ولما حق فى الأزل من كلمته وهى قوله (كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف) لا لافتقاره اليه ولا لحاجته وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطول بالانعام والاصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والاحسان والنعمة والامتنان اذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والاوصاب ، ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما . وأنه يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والعدل لا بحكم الاستحقاق واللزوم . اذ لا يجب عليه فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق وان حقه فى الطاعات وجب على الخلق بايجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به .

الأصل التاسع فى اليوم الاخر

وأنه يفرق بالموت بين الأرواح والأجسام ثم يعيدها اليها عند الحشر والنشور فيبعث من فى القبور ويحصل ما فى الصدور ، فيرى كل مكلف ما عمله من خير أو شر محضرا ويصادف دقيق ذلك وجليه مسطرا ، فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها . ويعرف كل واحد مقدار عمله خيره وشره بمعيار صادق يعبر عنه بالميزان وان كان لا يساوى ميزان الأعمال ميزان الأجسام الثقال كما لا يسـاوى الاسطرلاب الذى هو ميزان المواقيت ، والمسطرة التى هى ميزان المقادير . والعروض الذى هو ميزان الأشـعار سـائر الموازين ، ثم يحاسبهم على أفعـالهم وأقوالهم وسرائرهم وضمائرهم ونياتهم وعقائدهم مما أبدوه أو أخفوه . فانهم يتفاوتون فيه الى مناقش فى الحساب والى مسامح فيه والى من يدخل الجنة بغير حساب ، وأنهم يساقون الى الصراط وهو جسر ممدود

بين منازل الأشقياء ومنازل السعداء . أحد من السيف . وأدق من الشعر . يخف عليه من استوى فى الدنيا على الصراط المستقيم الذى يوازيه فى الخفاء والدقة ، ويتعثر به من عدل عن سواء السبيل المستقيم الا من عفى عنه بحكم الكرم ، وانهم عند ذلك يسئلون فيسئل من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ومن شاء من المبتدعة عن السنة ، ومن شاء من المسلمين عن أعمالهم . فيسأل الصادقين عن صدقهم ، والمنافقين عن نفاقهم . ثم يساق السعداء الى الرحمن وفدا ، والمجرمون الى جهنم وردا ، ثم يأمر باخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ويخرج بعضهم قبل تمام العقوبة والانتقام بشفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء ، ومن له رتبة الشفاعة ، ثم يستقر أهل السعادة فى الجنة منعمين أبد الآبدين ، ممتعين بالنظر الى وجه الله تعالى ، ويستقر أهل الشقاوة فى النار مرددين تحت أنواع العذاب ، مبعدين عن النظر بالحجاب الى وجه الله تعالى ذى الجلال والاكرام .

الأصل العاشر فى النبوة

وأنه تعالى خلق الملائكة وبعث الأنبياء . وأيدهم بالمعجزات وأن الملائكة كلهم عباده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . وأن الأنبياء رسله الى خلقه . وينتهى اليهم وحيه بواسطة الملائكة فينطقون عن وحى يوحى لا عن الهوى . وأنه بعث النبى الأمى القرشى محمدا المصطفى ﷺ برسالته الى كافة العرب والعجم والجن والانس فنسخ بشرعه الشرائع . وجعله سيد البشر ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد وهو قوله (١) لا اله الا الله ما لم يقترن بها شهادة الرسول وهو قوله (٢) محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به عنه فى أمر الدنيا والآخرة وألزمهم اتباعه والاقتداء به فقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فلم يغادر شيئا يقربهم من الله سبحانه الا أمرهم به ودلهم على سبيله . ولا شيئا

(١ ، ٢) وفى نسخة « قول » أى بغير هاء الضمير .

يقربهم الى النـــار ويبعدهم عن الله تعالى الا نهاهم عنه وعرفهم طريقه وأن ذلك أمور لا يرشد اليها مجرد العقل والرأى والذكاء بل هى أسرار يكاشف بها من حظيرة القدس قلوب الأنبياء . والحمد لله على ماأرشد وهدى وأظهر من أسمائه الحسنى . وصفاته العليا . والصلاة والسلام على محمد المصطفى خاتم الأنبياء وعلى آله وأصحابه وسلم كثيرا آمين يارب العالمين .

خاتمة فى التنبيه على الكتب التى تطلب فيها حقيقة هذه العقيدة

« اعلم » أن ما ذكرناه هو الحاصل من علوم القرآن أعنى جمل ما يتعلق منها بالله واليوم الآخر وهى ترجمة العقيدة التى لابد أن ينطوى عليها قلب كل مسلم بمعنى أنه يعتقده ويصدق به تصديقا جزما ووراء هذه العقيدة الظاهر رتبتان « احداهما » معرفة أدلة هذه العقيدة الظاهرة من غير خوض على أسرارها « والثانية » معرفة أسرارها ولباب معانيها وحقيقة ظواهرها والرتبتان جميعا ليســتا واجبتين على جميع العوام ، أعنى ان نجاتهم فى الآخــرة غير موقوفة عليهما ، ولا فوزهم موقوف عليهما ، وانما الموقوف عليهما كمال السعادة ، وأعنى بالنجاة الخلاص من العذاب وأعنى بالفوز الحصول على أصل النعيم ، وأعنى بالسعادة نيل غايات النعيم ، فالسلطان اذا استولى على بلدة وفتحها عنوة ، فالذى لم يقتله ولم يعذبه فهو ناج وان أخرجه عن البلدة ، والذى لم يعذبه ومع ذلك مكنه من المقام فى بلدته مع أهله وأسباب معيشته فهو مع ذلك فائز بالنجاة . والذى خلع عليه وأشركه فى ملكه واستخلفه فى مملكته وامارته فهو مع النجــاة والفــوز ســعيد . ثم زيادة درجات السعادات (١) لا تنحصر .

واعلم أن الخلق فى الآخرة ينقسمون الى هذه الأصناف بل الى أصناف أكثر منها . وقد شرحنا ما أمكن من شرحها فى كتاب التوبة فاطلبه فيه « والرتبــة الأولى » من الرتبتين — وهى معرفة أدلة هذه العقيدة — قد اودعناها الرسالة القدسية فى قدر عشرين ورقة . وهى أحد فصول كتاب قواعد العقائد من كتاب الاحيــاء . وأما أدلتها مع

(١) وفى النسخة النوررية «السعادة» .

زيادة تحقيق وزيادة تأنق فى ايراد الأسـئلة والاشكالات ، فقد أودعناها « كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد » فى مقدار مائة ورقة فهو كتاب مفرد برأسه يحوى لباب علم المتكلمين ، ولكنه أبلغ فى التحقيق وأقرب الى قرع أبواب المعرفة من الكلام الرسمى الذى يصادف فى كتب المتكلمين . وكل ذلك يرجع الى الاعتقـاد لا الى المعرفة . فان المتـكلم لا يفارق العامى الا فى كونه عارفا وكون العامى معتقدا بل هو أيضـا معتقد عرف مع اعتقاده أدلة الاعتقاد ليؤكد الاعتقاد ويستمره ويحرسه عن تشويش المبتدعة ولا تنحل عقيدة (١) الاعتقاد الى انشراح المعرفة . فان أردت أن تستنشق شيئا من روائح المعرفة صادفت منها مقدارا يسيرا مثبوتا فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب المحبة وباب التوحيد من أول كتاب التوكل وجملة ذلك من كتاب الاحياء ، وتصادف منها قدرا صالحا يعرفك كيفية قرع باب المعرفة فى كتاب « المقصد الأقصى فى معانى أسماء الله الحسنى » — لا سيما فى الأسماء المشتقة من الأفعال وان أردت صريح المعرفة بحقائق هذه العقيدة من غير مجمجة ولا مراقبة فلا تصادفه الا فى بعض كتبنا المضنون بها على غير أهلها . واياك أن تغتر وتحدث نفسك بأهليته فتشرئب لطلبه ، فتستهدف للمشافهة بصريح الرد الا أن تجمع ثلاث خصال « احداها » الاستقلال فى العلوم الظاهرة ونيل رتبة الامامة فيها « والثانية » انقلاع القلب عن الدنيا بالكلية بعد محو الأخلاق الذميمة حتى لا يبقى فيك تعطش الا الى الحق ، ولا اهتمام الا به . ولا شغل الا فيه ولا تعريج الا عليه ، « والثالثة » أن يكون قد أتيح لك السعادة فى أصل الفطرة بقريحة صـافية وفطنة بليغة لا تكل عن درك غوامض العلوم ومشكلاتها على سبيل البديهة والمبادرة فان البليد اذا أتعب خاطره وأكد نفسه ربما أدرك بعض الغوامض أيضا ولكن يدرك منها شيئا يسيرا فى مدة طويلة فلن يصلح لاقتباس المعرفة الحقيقية الا قلب صاف كأنه مرآة مجلوة ، وانما يصير كذلك بقوة الفطرة وصحة القصد ، ثم بازالة كدورات الدنيا عن وجهه فانه الرين والطبع الذى يمنع الله به القلوب عن معرفته وأن الله يحول بين المرء وقلبه .

---

(١) وفى نسخة « عقدة » .

القســم الثــانى

فى الأعمال الظاهرة وهى عشرة أصول

الأصل الاول فى الصــلاة

قال الله تعالى « وأقم الصلاة لذكرى » وقال النبى عليه السلام (الصلاة عماد الدين) . واعلم أنك فى صلاتك مناج ربك فانظر كيف تصلى ، وحافظ فيها على ثلاثة أمور لتكون من جملة المحافظين على الصلاة والمقيمين لها فان الله تعــالى انما يأمر بالاقامة ويقول « أقم الصلاة — وأقيموا الصلاة » وليس يقول صل أو صلوا ، ويثنى على المحافظين على الصلاة فيقول « والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون » : « الأول » المحافظة على الطهارة بأن يسبغ الوضوء قبل الصلاة واسباغها أن يأتى بجميــع ســننها وأذكارها المروية عند كل وظيفة منها ويحتاط أيضا فى طهارة ثيابه وطهارة بدنه وطهارة الماء الذى يتوضأ به احتياطا لا ينفتح عليه باب الوسواس فان الشيطان يوسوسه فى الطهارة فيضيع أكثر أوقات العبادة .

« واعلم » أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارج ثم من طهارة البدن وهو القشر القريب ، ثم طهارة القلب وهو اللب الباطن وطهارة القلب عن نجاسات الأخلاق المذمومة أهم الطهارة كما سنذكرها فى القسم الثالث . لكن لا يبعد أن يكون للطهارة الظاهرة أيضا تأثير فى اشراق نورها على القلب ، فانك اذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك صادفت فى قلبك انشراحا وصفاء كنت لا تصادفه من قبل — وذلك لسر العلاقة التى بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . فان ظاهر البدن من عالم الشهادة . والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته . وانما هبوطه الى عالم الشهادة كالغريب عن جبلته وكما تنحدر من معارف القلب آثار الى الجوارح فكذلك ترتفع من أحوال الجوارح أنوار الى القلب — ولذلك أمروا بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التى هى من عالم الشهادة ولذلك جعلها رسول الله ﷺ فى الدنيا ومن الدنيا ،

وقال : (حبب الى من دنياكم ثلاث) الحديث ، فلا يستبعد أن يفيض من طهارة الظاهر أثر على الباطن ، ففى بدائع صنع الله أمور أعجب من هذا اذ قد عرف بالتجـربة أن المجامع فى حال المباشرة لو أدمن النظر الى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه مال لون المولود الى ذلك اللون الذى غلب عليه وأن الجنين أول ما يتحرك فى البطن تميل صورته الى الحسن ان كانت الأم مشاهدة فى تلك الحالة صورة حسـنة بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها ، ولذلك أمر رسول الله ﷺ المباشر عند مباشرته أن يحضر فى قلبه ارادة اصلاح المولود ، ويدعو الله بذلك فيقول : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان عما رزقتنا حيث يفيض الله سبحانه مبادىء الصلاح على الروح التى يخلقها عند القاء البذر فى محل الحرث بواسطة الصلاح الغالب على قلب الحارث كما يفيض الله النور بواسطة المرآة المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآة ، وهذا الآن نقرع بابا عظيما من معرفة عجائب صنع الله فى الملك والملكوت . والى قريب منه يرجع سر الشفاعة فى الآخرة فلنجاوزه . فغرضنا الآن ذكر الأعمـال دون المعارف ، وقد أشممناك شيئا يسيرا من أسرار الطهارة الظاهرة . فان كنت لا تصادف بعد الطهارة واسباغ الوضوء شيئا من الصفاء الذى وصفناه ، فاعلم أن الدرن الذى عرض على قلبك من كدورات شهوات الدنيا وشواغلها اقتضى كلال حس القلب فصار لا يحس باللطائف والأشياء الخفية اللطيفة ولم يبق فى قوته الا ادراك الجليات ان بقى ، فاشـتغل بجلاء قلبك وتصفيته — فذلك أوجب عليك من كل ما أنت فيه .

« المحافظة الثانية » أن تحافظ على سنن الصلاة وأعمالها الظاهرة وأذكارها وتسبيحاتها حتى تأتى فيها بجميع السنن والآداب والهيئات كما جمعناها فى « كتاب بداية الهداية » فان لكل واحد منها سرا وله تأثير فى القلب كما نبهنا عليه فى تأثير الطهارة بل أشد وأبلغ وشرح ذلك يطول ، وأنت اذا أتيت بذلك انتفعت به وان لم تعلم أسراره كما ينتفع شارب الدواء بشربه وان لم يعرف طبائع أخلاطه ووجوه مناسـبته لمرضه .

« واعلم » أن الصلاة (١) صورة صورها رب الأرباب كما صور الحيوان مثلا ، فروحها النية والاخلاص وحضـور القلب ، وبدنها الأعمال ، وأعضاؤها الأصلية الأركان ، وأعضاؤها الكمالية الأبعاض ، فالاخلاص والنية فيها يجرى مجرى الروح ، والقيام والقعود يجرى مجرى البدن ، والركوع والسجود يجرى مجرى الرأس واليد والرجل ، واكمال الركوع والسجود والطمأنينة وتحسين الهيئة يجرى مجرى حسن الأعضاء وحسن أشكالها وألوانها . والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجرى مجرى آلات الحس المودعة فى الرأس والأعضاء كالعينين والأذنين وغيرهما ، ومعرفة معانى الاذكار وحضور القلب عندها يجرى مجرى قوة الحس المودعة فى آلات الحس كقوة السمع وقوة البصر والشم والذوق واللمس فى معادنها .

« واعلم » أن تقربك بالصلاة كتقرب بعض خدم السلطان باهداء وصيفة الى السلطان « واعلم » أن فقد النية والاخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة ، والمهدى الجيفة الميتة مستهزىء بالسلطان ، فيستحق سفك الدم ، وفقد الركوع والسـجود يجرى مجرى فقد الأعضاء ، وفقد الاذكار يجرى مجرى فقد العينين من الوصيفة وجدع الأنف والأذنين . وعدم حضور القلب فى غفلته عن معرفة معانى القرآن والاذكار كفقد السمع والبصر مع بقاء جرم الحدقة والأذن . ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفة كيف يكون حاله عند السلطان .

« واعلم » أن قول الفقيه فى الصـلاة الناقصة ألفاظها وسننها أنها صحيحة كقول الطبيب فى الوصيفة المقطوعة أطرافها أنها حية وليست بميتة ، فان كان ذلك كافيا فى التقرب بها الى السلطان ونيل الكرامة منه « فاعلم » أن الصلاة الناقصة صالحة أيضا للتقرب بها الى الله ونيل الكرامة وان أوشك أن يرد ذلك على المهدى ويزجر فلا يبعد مثل ذلك فى الصلاة ، فانها ترد على المصلى كالخرقة الخلقة كما ورد فى الخبر « واعلم » أن أصل الصـلاة التعظيم والاحترام واهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام .

(١) وفى نسخة «للصلاة» .

« المحافظة الثالثة » أن تحافظ على روح الصلاة وهى الاخلاص وحضور القلب فى جملة الصلاة واتصاف القلب فى الحال بمعانيها ، فلا تسجد ولا تركع الا وقلبك خاشـع متواضع على موافقة ظاهرك فان المراد خضوع القلب لا خضوع البدن ، ولا تقول « الله أكبر » وفى قلبك شىء أكبر من الله تعالى ولا تقول « وجهت وجهى » الا وقلبك متوجه بكل وجهه الى الله ومعرض عن غيره ، ولا تقول « الحمد لله » الا وقلبك طافح بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر ، ولا تقول « واياك نستعين » الا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك وأنه ليس اليك ولا الى غيرك من الأمر شىء — وكذلك فى جميع الأذكار والأعمال وشرح ذلك يطول ، وقد شرحناه فى كتاب الاحياء فجاهد نفسك فى أن ترد قلبك الى الصلاة حتى لا تغفل من أولها الى آخرها ، فانه لا يكتب للرجل من صلاته الا ما عقل منها . فان تعذر عليك الاحضار وما أراك الا كذلك ، فانظر فان كان قدر الغفلة مقدار ركعتين فلا تعد الصلاة ولكن افهم أن النوافل جوابر الفرائض ، فتنفل بمقدار أن يحضر القلب فيها فى مقدار ركعتين ، فكلما زادت الغفلة زد فى النوافل حتى يحضر قلبك مثلا فى عشر ركعات بمقدار أربع ركعات وهو قدر فرضك ، فمن رحمة الله عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنوافل ، فهذه أصول المحافظة على الصلاة .

الأصل الثانى الزكاة والصدقة

قال الله سبحانه « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » وقال رسـول الله ﷺ « هلك الأكثرون الا من قال بالمـال هـكذا وهكذا » .

« فاعلم » ان انفاق المال فى الخيرات أحد أركان الدين وانما سر التكليف به بعد ما يرتبط به من مصالح البلاد والعباد ، وسد الخلات والفاقات فان المال محبوب الخلق وهم مأمورون بحب الله ويدعون الحب بنفس الايمان ، فجعل بذل المـال معيارا لحبهم وامتحانا لصدقهم فى

دعواهم فان المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب فانقسم الخلق فيه الى ثلاث طبقات :

« الطبقة الأولى » الأقوياء وهم الذين انفقوا جميع ما ملكوا ولم يدخروا لأنفسهم شيئا ، فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب كما فعل أبو بكر الصديق اذ جاء بماله كله فقال له رسول الله ﷺ « ماذا أبقيت لنفسك ؟ » فقال : الله ورسوله ، وقال لعمر رضى الله عنه : « ماذا أبقيت لنفسك ؟ » قال : مثله أى مثل ما أتيت به ، فقال ﷺ « بينكما مثل ما بين كلمتيكما » .

« الطبقة الثانية » المتوسطون وهم الذين لم يقدروا على اخلاء اليد عن المال دفعة واحدة . ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للانفاق عند ظهور محتاج اليه . فهم يقنعون فى حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة واذا عرض محتاج بادروا الى سد خلته وحاجته ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وانما غرضهم الأظهر فى الامساك ترصد الحاجات .

« الطبقة الثالثة » الضعفاء وهم المقتصرون على أداء الزكاة الواجبة فلا يزيدون عليها ولا ينقصون منها . فهذه درجاتهم وبذل كل واحد على مقدار حبه لله . وما أراك تقدر على الدرجة الأولى والثانية . ولكن اجتهد حتى تجاوز الدرجة الثالثة الى أواخر طبقات المقتصدين المتوسطين . فتزيد على الواجب ولو شيئا يسيرا . فان مجرد الواجب حد البخلاء قال الله سبحانه وتعالى « ان يسئلكموها فيحفكم تبخلوا » أى يستقصى عليكم فتبخلوا . فاجتهد أن لا ينقضى عليك وقت الا وتتصدق بشىء وراء الواجب ولو بكسرة خبز فترتفع بذلك عن درجة البخلاء . فان لم تملك شيئا فليست الصدقة كلها فى المال لكن كل كلمة طيبة وشفاعة ومعونة فى حاجة وعيادة مريض وتشييع جنازة . وفى الجملة أن تبذل شيئا مما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطييب قلب مسلم فيكتب جميع ذلك لك صدقة . وحافظ فى زكاتك وصلاتك وصدقتك على خمسة أمور :

« الأول : الاسرار » فان في الخبر أن صدقه السر تطفيء غضب الرب . والذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله . وقد قال الله تعالى « وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » وبذلك تتخلص عن الرياء فانه غالب على النفس وهو مهلك ينقلب فى القلب اذا وضع الانسان فى قبره فى صورة حية أى يؤلم ايلام الحية . والبخل ينقلب فى صورة عقرب . والمقصود فى كل الانفاق الخلاص من رذيلة البخل . فاذا امتزج به الرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية . فما تخلص من العقرب ولكن زاد فى قوة الحية اذ كل صفة من الصفات المهلكات فى القلب انما غذاؤها وقوتها فى اجابتها الى مقتضاها .

« الثانى » أن تحذر من المن . وحقيقته أن ترى نفسك محسنا الى الفقير متفضلا عليه .وعلامته أن تتوقع منه شكرا أو تستنكر تقصيره فى حقك وممالاته عدوك استنكارا يزيد على ما كان قبل الصدقة ، فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلا . وعلاجه أن تعرف أنه المحسن اليك بقبول حق الله منك . فان من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح — ولذلك كانت الزكاة مطهرة اذ بها حصلت الطهارة فكأنها غسالة نجاسة — ولذلك ترفع رسول الله ﷺ وأهل بيته من أخذ الزكاة وقال عليه السلام « انها أوساخ أموال الناس » . واذا أخذ الفقير منك ما هو طهرة لك فله الفضل عليك . أرأيت لو كان فصاد فصدك مجانا وأخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره فى الحياة الدنيا أكان الفضل لك أم له . فالذى يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها فى الحياة الآخرة أولى بأن تراه متفضلا .

« الثالث » أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها قال الله تعالى « ويجعلون لله ما يكرهون » وقال الله « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه » الآية . وقال ﷺ « ان الله طيب لا يقبل الا الطيب » يعنى الحلال . فان المقصود من هذا اظهار درجة الحب والانسان يؤثر الأحب اليه الأنفس دون الأخس .

« الرابع » أن تعطى بوجه طلق مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره قال رسول الله ﷺ « سبق درهم ماية ألف » وانما أراد ما يعطيه عن بشاشة وطيبة نفس من أنفس ماله وأجوده فذلك أفضل من ماية ألف مع الكراهة .

« الخامس » أن تتخير لصدقتك محلا تزكو به الصدقة وهو المتقى العالم الذى يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه . أو الصالح المعيل ذو الرحم . فان لم تجتمع هذه الأوصاف . فتزكو الصدقة بآحادها أيضا . ورعاية الصلاح أصل الأمور . فما الدنيا الا البلغة للعباد وزاد لهم الى المعاد . فليصرف الى المسافرين اليه المتخذين هذه الدار منزلا من منازل الطريق . قال رسول الله ﷺ « لا تأكل الا طعام تقى ولا يأكل طعامك الا تقى » .

الأصل الثالث فى الصيام

قال رسول الله ﷺ « يقول الله سبحانه كل حسنة بعشر أمثالها الى سبع مائة ضعف الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به » وقال عليه السلام « لكل شىء باب وباب العبادة الصوم » وانما كان الصوم مخصوصا بهذه الخواص لأمرين « أحدهما » أنه يرجع الى كف نفسى وهو عمل سر لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى كالصلاة والزكاة وغيرهما « والثانى » أنه قهر لعدو الله فان الشيطان هو العدو ولن يقوى العدو الا بواسطة الشهوات . والجوع يكسر جميع الشهوات التى هى آلة الشيطان — فلذلك قال عليه السلام « ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع » وهو سر قوله ﷺ « اذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنـــان . وغلقت أبواب النيران . وصفدت الشياطين ، ونادى مناد : يا باغى الخير هلم ويا باغى الشر أقصر » .

« واعلم » أن الصوم بالاضافة الى مقداره على ثلاث درجات وبالاضافة الى أسراره على ثلاث درجات ، أما درجات مقداره فأقلها الاقتصار على شهر رمضان . وأعلاها صوم داود عليه السلام وهو أن تصوم يوما وتفطر يوما ، ففى الخبر الصحيح أن ذلك أفضل من صوم

الدهر وأنه أفضل الصيام ، وسره أن من صام الدهر صار الصوم له عادة فلا يحس بوقعه فى نفسه بالانكسار . وفى قلبه بالصفاء وفى شهواته بالضعف ، فان النفس انما تتأثر بما يرد عليها لا بما مرنت عليه فلا يبعد هذا فان الأطباء أيضا ينهون عن اعتياد شرب الدواء وقالوا من تعود ذلك لم ينتفع به اذا مرض اذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به .

« واعلم » أن طب القلوب قريب من طب الأبدان . وهو سر قوله ﷺ لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم . فقال عليه السلام « صم يوما وأفطر يوما » فقال أريد أفضل من ذلك فقال عليه السلام « لا أفضل من ذلك » ولذلك لما قيل لرسول الله ﷺ ان فلانا صام الدهر . فقال عليه السلام « لا صام ولا أفطر » كما قالت عائشة رضى الله عنها لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة ان هذا ما قرأ القرآن ولا سكت .

« وأما الدرجة المتوسطة » فهو أن تصوم ثلث الدهر ومهما صمت الاثنين والخميس وأضفت اليه رمضان ، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام . وهو زيادة على الثلث . لكن لابد أن ينكسر يوم من أيام التشريق ، وترجع الزيادة الى ثلاثة أيام ويتصور أن ينكسر فى العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام . فترجع الزيادة الى يوم واحد فتأمل حسابه تعرفه ، فلا ينبغى أن ينقص من هذا القدر صومك فانه خفيف على النفس وثوابه جزيل .

« وأما درجات أسراره » فثلاث « أدناها » أن يقصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحه عن المكاره وذلك صوم العموم وهو قناعتهم بالاسم « الثانية » أن تضيف اليه كف الجوارح فتحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر بالريبة — وكذا سائر الأعضاء « الثالثة » أن تضيف الى صيانة القلب عن الفكر والوسواس ، وتجعله مقصورا على ذكر الله عز وجل وذلك صوم خصوص الخصوص وهو الكمال . ثم للصيام خاتمة بها يكمل وهو أن يفطر على طعام حلال لا على شبهة

وان لا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضحوة فيكون قد جمع بين أكلتين دفعة واحدة فتثقل معدته وتقوى شهونه ويبطل سر الصوم وفائدته . ويفضى الى التكاسل عن التهجد ، وربما لم يستيقظ قبل الصبح ، وكل ذلك خسران وربما لا توازيه فائدة الصوم .

الأصل الرابع فى الحج

قال الله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وقال صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا » وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الاسلام على خمس » الحديث ، وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها فى كتاب الأحياء ، وننبهك الآن على آداب دقيقة ، وأسرار باطنة .

« أما الآداب » فسبعة « الأول » أن ترتاد للطريق رفيقا صالحا ونفقة طيبة حلالا ، فالزاد الحلال ينور القلب والرفيق الصالح يذكر الخير ويزجر عن الشر « الثانى » أن يخلى يده عن مال التجارة كيلا يتشعب فكره ، وينقسم خاطره ولا يصفو للزيارة قصده « الثالث » أن يوسع فى الطريق بالطعام ويطيب الكلام مع الرفقاء والمكارى « الرابع » أن يترك الرفث والجدال والتحدث بالفضول فى أمر الدنيا بل يقصر لسانه بعد مهمات حاجاته على الفكر وتلاوة القرآن « الخامس » أن يركب راحلة دون المحمل ويكون رث الهيئة أشعث أغبر غير متزين بل على هيئة المساكين حتى لا يكتب فى جملة المترفين « السادس » أن ينزل عن الدابة أحيانا ترفيها للدابة وتطييبا لقلب المكارى ، وتخفيفا للأعضاء بالتحرك ولا يحمل الدابة ما لا تطيق بل يرفق بها ما أمكن « السابع » أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقة وبما أصابه من تعب وخسران ، وأن يرى ذلك من آثار قبول الحج فيحتسب الثواب عليه .

« وأما أسراره » فكثيرة نرمز منها الى فنين « أحدهما » أنه وضع بدلا عن الرهبانية التى كانت فى الملل كما ورد به الخبر ، فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم فشرف البيت العتيق واضافه الى نفسه ونصبه مقصدا لعباده ، وجعل مع ما حواليه حرما لبيته

تفخيما لأمره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضعه على مثال حضرة الملك ليقصده الزوار من كل فج عميق ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين . خضوعا لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت أو يحويه مكان ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم — ولذلك كلفهم أعمالا غريبة لا تناسب الطبع والعقل ليكون اقدامهم بحكم محض العبودية ، وامتثال الأمر من غير معاونة باعث آخر ، وهذا سر عظيم فى الاستعباد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » (١) .

« الفن الثانى » أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمرا من أمور الآخرة موازيا له فان فيه تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر المستبصر ، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل فى سكرات الموت ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا ، ومن ركوب الجمل وركوب الجنازة ومن الالتفاف فى أثواب الاحرام الالتفاف فى أثواب الكفن ، ومن دخول البادية الى الميقات ما بين الخروج من الدنيا الى ميقات القيامة ، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر ونكير ، ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته ، ومن التلبية اجابة داعى الله عز وجل عند البعث — وكذلك فى سائر الأعمال فان فى كل عمل سرا وتحته رمزا ، يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفاء قلبه وقصور همه على مهمات الدين .

الأصل الخامس فى قراءة القرآن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن » وقال عليه السلام « لو كان القرآن فى اهاب ما مسته النار » وقال عليه السلام « ما من شفيع أفضل منزلة عند الله يوم القيامة من

---

(١) وفى نسخة الخزانة النورية « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » عن ان يكشفه بيت او يحويه مكان ليكون ذلك ابلغ فى رقهم وعبوديتهم ولذلك كلفهم أعمالا غريبة ، اهـ ، فتأمل .

القرآن لا نبى ولا ملك ولا غيره » وقال عليه السلام « يقول الله سبحانه من شغلته قراءة القرآن عن دعائى ومسئلتى أعطيته أفضل ثواب الشاكرين » .

« واعلم » أن لقراءة القرآن آدابا ظاهرة وأسرارا باطنة ، أما الآداب الظاهرة فثلاثة « الأول » أن تقرأه باحترام وتعظيم ولن تلزم الحرمة قلبك ما لم تلزم هيئة الحرمة ظاهرك ، وقد عرفت كيفية علاقة القلب بالجوارح ووجه ارتفاع الأنوار منها اليه .

« وهيئة الحرمة » أن تجلس وأنت على الطهارة ساكنا مطرقا مستقبل القبلة غير متكىء ولا متربع ولا نائم كما تجلس بين يدى المقرىء وتقرأه بترتيل وتفخيم وتؤدة حرفا حرفا من غير هذرمة قال ابن عباس رضى الله عنه لان أقرأ اذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب الى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا « الثانى » أن تتشوق فى بعض الأوقات الى أقصى درجات الفضل فيه ، وذلك بأن تقرأه فى الصلاة قائما خصوصا فى المسجد بالليل لأن القلب فى الليل أصفى لأنه أفرغ . فانك وان خلوت بالنهار فتردد الخلق وحركاتهم فى أشغالهم تحرك باطنك وتشغلك خصوصا ان كنت تتوقع أن تطلب شغلا من الأعمال والأشغال : وكيفما قرأته ولو مضطجعا من غير طهارة فلا تخلو عن الفضل • فان الله تعالى أثنى على الجميع ، وقال « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » الآية . ولكن ما ذكرناه فى الزيادة الفضل . فان كنت من مريدى الآخرة فلا يسهل عليك ترك الفضل ، وقد قال على رضوان الله عليه من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة فله بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأ القرآن فى غير صلاة وهو على طهارة فخمس وعشرون حسنة ، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات .

« الثالث » فى مقدار القراءة وله ثلاث درجات « أدناها » أن يختم فى الشهر مرة « وأقصاها » أن يختم فى ثلاثة أيام مرة ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقه » « وأعدلها » أن يختم فى الأسبوع مرة وأما الختم فى كل يوم فغير مستحب ، واياك أن

تتصرف بعقلك فتقول ما كان خيرا ونافعا فكلما كان أكثر كان أنفع . فان عقلك لا يهتدى الى أسرار الأمور الالهية ، وانما تتلقاها قوة النبوة ، فعليك بالاتباع فان خواص الأمور لاتدرك بالقياس أوما ترى كيف ندبت الى الصلاة ونهيت عنها جميع النهار وأمرت بتركها بعد الصبح وبعد العصر وعند الطلوع وعند الغروب والزوال ــ وذلك ينتهى الى قدر ثلث النهار وكيف وأثر الفساد ظاهر على قياسك هذا . فانه كقول القائل الدواء نافع للمريض فكلما كان أكثر كان أنفع ، وأنت تعلم أن كثرة الدواء ربما تقتل .

« وأما الأسرار الباطنة » فخمسة «الأول» أن تستشعر فى أول قراءتك عظمة الكلام باستشعار تعظيم المتكلم فتحضر فى قلبك العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما من الملائكة والجن والانس والحيوانات والنباتات والمعادن وتتذكر أن الخالق لجميعها واحد ، وأن الكل فى قبضة قدرته متردد بين فضله ورحمته وانك تريد أن تقرأ كلامه وتنظر به الى صفة ذاته وتطالع جمال علمه وحكمته وتعلم أنه كما لا يمس ظاهر المصحف الا المطهرون بظواهرهم وهو محجوب عن غيرهم — فكذلك حقيقة معناه وباطنه محجوب عن باطن القلب الا اذا كان مطهرا من كل رجس وخبث من خبائث الباطن ، وبمثل هذا التعظيم كان عكرمة اذا نشر المصحف ربما غشى عليه ويقول هذا كلام ربى هذا كلام ربى .

« واعلم » أنه لولا أن أنوار كلامه العزيز وعظمته غشيت بكسوة الحروف لما أطاقت القوة البشرية سماعه لعظمته وسلطانه وسبحات نوره . ولولا تثبيت الله عز وجل موسى عليه السلام لما أطاق سماعه مجردا عن كسوة الحروف والأصوات كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حتى صار دكا دكا .

« الثانى » أن تقرأ بتدبر معانيه ان كنت من أهله وكل ما يجرى لسانك به فى غفلة فأعده ولا تعده من عملك لأن الترتيل فى الظاهر للتمكن من التدبر . قال على عليه السلام لا خير فى عبادة لا فقه فيها ولا فى قراءة لا تدبر فيها . واياك أن تصير مشغوفا بعدد الختمات على نفسك فلأن تردد آية واحدة ليلة تتدبرها خير لك من ختمتين . فقد قرأ رسول

الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فرددها عشرين مرة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها « ان تعذبهم فانهم عبادك » وقام تميم الدارى ليلة بقوله سبحانه « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الآية وقام سعيد ابن جبير ليلة بقوله تعالى « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » . ولعل الأليق بك ما قاله بعض العارفين اذ قال لى فى كل جمعة ختمة ولى فى كل شهر ختمة . وفى كل سنة ختمة . ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد — وذلك بحسب درجات التدبر . فان القلب فى بعض الأوقات لا يحتمل التدبر الطويل فليكن للتدبر الطويل ختمة خاصة .

« الثالث » أن تجتنى فى تدبرك ثمار المعرفة من أغصانها وتقتبسها من أوطانها . ولا تطلب الترياق من حيث تطلب منه الجواهر . ولا الجواهر من حيث يطلب منه المسك والعود . فان لكل ثمرة غصنا . ولكل جوهر معدنا . وانما يتيسر لك هذا بأن تعرف الأصناف العشرة التى حصرنا فيها أقسام القرآن . وهى عشرة معادن . « فما يتعلق » من القرآن بالله تعالى وبصفاته وأفعاله فاقتبس منه معرفة الجلال والعظمة « وما يتعلق » بالارشاد الى الصراط المستقيم فاقتبس منه معرفة الرحمة والعطف والحكمة « وما يتعلق » باهلاك الأعداء فاقتبس منه معرفة العزة والاستغناء والقهر والتجبر « وما يتعلق » بأحوال الأنبياء فاقتبس منه معرفة اللطف والنعمة والفضل والكرم — وكذلك فى كل صنف ما يليق به . فلا تنظرن اليه بعين واحدة . وشرح ذلك يطول .

« الرابع » أن تتخلى عن موانع الفهم وهى الأكنة التى تمنع من الفهم . قال الله عز وجل « انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً » الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء » .

« واعلم » أن معانى القرآن من جملة الملكوت . وانما حروفها من عالم الشهادة والأكنة التى يبتلى بها المتقى المتعطش الى الحق نوعان

« أما ما ابتلى به » ضعيف الايمان من حجاب الشك والجحود « وأماما ابتلى به » المنهمك فى الدنيا من حجاب الشهوات المستغرقة للقلب . فذلك جلى لا يخفى كونه مانعا من فهم لطائف القرآن واقتباس أنواره فيها حجب أكثر الخلق .

« واما العباد » المتجردون لطريق الله عز وجل يحجبون بنوعين آخرين «أحدهما» الوسواس الصارف للقلب الى التفكر فى النية كيف كانت فى الابتداء وهل بقيت الآن . وهل هو مخلص فى الحال هذا ان كان فى الصلاة أو الوسواس الصارف للهم الى تصحيح مخارج الحروف، والتشكك فيها واعادتها لأجل ذلك . وهذا يجرى فى الصلاة وغيرها فكيف يطالع أسرار الملكوت قلب محجوب مصروف الى مطالعة الشفتين وكيفية انطباقهما واللسان والحنك وكيفية انسلال الهواء من اصطكاكهما . وهو معنى تقطيع الحروف وتصحيحها « النوع الثانى » التقليد لظواهر معانى القرآن والجمود عليها ــ وذلك حجاب عظيم عن الفهم . ولست أعنى به التقليد الباطل كتقليد المبتدع بل التقليد الحق أيضا فان الحق الذى كلف الخلق اعتقاده له درجات وله مبدأ ظاهر وهو كالقشر والمثال وله غور باطن وهو كاللباب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا » فالجامد على الظاهر الظان أنه ليس وراءه مرتقى يرتقى اليه كيف يتصور أن تنكشف له الأسرار . فقد كلف الخلق مثلا أن يعتقدوا أن الله تعالى يرى ولكن للرؤية ظاهر وسر . فمن اعتقد أن رؤية الله تعالى مناسبة للرؤية التى يألفها الانسان فى هذا العالم كيف يتصور أن يتطلع على سر قوله تعالى « لن ترانى » وكيف يفهم ان ذلك ممتنع فى هذه الحياة الدنيا بهذه العين الموقوفة على ملاحظة الجهات والأقطار . وكيف يدرك قوله لا تدركه الابصار مع قوله « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » ويكفيك هذا المثال الواحد . فلسنا نكشف لك أكثر من هذا . ولسنا نقصد فى هذا الأصل الا التلويحات لمبادىء الأسرار تشويقا للمستعدين لها .

« الخامس » أن لا تقتصر على اقتباس الأنوار . بل تضيف اليها اقتباس الأحوال والآثار وذلك أن لا تقرأ آية الا وأن تصير بصفتها . فيكون لك بحسب كل فهم حال ووجد . فعند ذكر الرحمة وعند المغفرة تستبشر كأنك تطير من الفرح . وعند ذكر الغضب وشدة العقاب تتضاءل كأنك تموت من الفزع . وعند ذكر الله وأسمائه وعظمته تتطأطأ وتتصاغر حتى كأنك تنسحق من مشاهدة الجلال . وعند ذكر الكفار ما يستحيل عليه من ولد وصاحبة تنكسر وتغض صوتك كأنك تنطمس من الحياء . وكذلك فى كل صنف من الأصناف العشرة . وذلك يطول . وليظهر أثر ذلك على جوارحك من بكاء عند الحزن وعرق جبين عند الحياء . واقشعرار الجلد وارتعاد الفرائص عند الهيبة والجلال . وانبساط فى الأعضاء واللسان والصوت عند الاستبشار وانقباض فيها عند الاستشعار . فاذا فعلت ذلك اشترك فى نيل حفظ القرآن جميع أعضائك(١) وفاضت آثار القرآن على عوالمك الثلاثة . أعنى عالم الملكوت وعالم الجبروت وعالم الشهادة «واعلم» أنك من العوالم الثلاثة ففيك من كل عالم جزء « واعلم » أن محض أنوار المعرفة تفيض من عالم الملكوت الى سر القلب لأنه أيضا من الملكوت . وأما آثارها من الخشية والخوف والسرور والهيبة وسائر الأحوال فانها تهبط من عالم الجبروت . ومهبطها الصدر الذى هو عالم الجبروت . وهو عالم آخر من عوالمك كنينا عنه بالصدر كما كنينا عن الأول بالقلب لأن عالم الجبروت بين عالم الملكوت وعالم الشهادة كما أن الصدر بين القلب والجوارح .

« وأما البكاء » والشهيق والاقشعرار وارتعاد الفرائص فتنزل من عالم الشهادة ومهبطها الجوارح لأنها من عالم الشهادة . وما أراك تفهم من القلب غير اللحم الصنوبرى الشكل ومن الصدر غير العظم المحيط به . فانك لا تدرك من كل شىء الا غلافه وقشره . وما أبعدك عن درك الحقائق . فان هذا يوجد للبهائم والميت ولا تنزل عليه أنوار المعارف والعلوم ولا آثارها من الخشية والهيبة والسرور . فان أردت أن

---

(١) وفى النسخة النورية « اجزائك » .

تستنشق شيئا من روائح هذه الأسرار وما أراك تريد فقد أخذ الشيطان بمخنقك بحبال الشهوات : فعليك بباب التوحيد من أول كتاب التوكل ان أردته .

« واعلم » أن القرآن كالشمس . وفيضان أسرار المعارف منه على القلب كفيضان أنوار الشمس على الأرض . وسريان آثار الخوف والخشية والهيبة وسائر الأحوال منه على الصدر كسريان حرارة الشمس فى باطن الأرض تابعا لاشراق الأنوار . فان الخشية أثر نور المعرفة . وانما يخشى الله من عباده العلماء . فانتشار الحركات والتغيرات الى الجوارح من البكاء والعرق والاقشعرار والارتعاد منبعث من آثار الخشية . وسائر الأحوال كحركة أجزاء الأرض لتصاعد الأبخرة والأدخنة منها بتصعيد حرارة الشمس فالحركة تبع الحرارة . والحرارة تبع النور . والنور تبع وقوع المحاذاة بين الأرض والشمس . فاجتهد بأن تحاذى بوجه قلبك شطر شمس القرآن وتستضىء بأنواره — كذلك فان لم تطق ذلك فاصغ الى النداء الوارد من جانب الطور الأيمن . فان آنست من جوانبه نارا فخذ منه قبسا وأشعل منه سراجا . فان كان زيتك صافيا يضىء ولو لم تمسسه نار ، فاذا مسته النار انبعث منه الضياء ووجدت على النار هدى . وقام فى حقك مقام الشمس المنتشرة الاشراق والضياء .

الأصل السادس فى
ذكر الله تعالى فى كل حال

قال الله سبحانه « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » . وقال صلى الله عليه وسلم « لذكر الله بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن اعطاء المال سخاء » (١) . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من اعطاء الورق والذهب . وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم

(١) وفى النسخة النورية « صحا » .

ويضربوا أعناقكم . قالوا وما ذاك يا رسول الله . فقال ذكر الله » . وقال صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون سبق المفردون » فقيـــل ومن هم يا رسول الله فقال « المستهترون بذكر الله وضع ذكر الله عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا » .

« واعلم » أنه قد انكشف لأرباب البصائر ان الذكر أفضل الأعمال ولكن له أيضا قشور ثلاثة بعضها أقرب الى اللب من بعض ، وله لب وراء القشور الثلاثة وانما فضل القشور لكونها طريقـــا اليه « فالقشر الأعلى منه » ذكر اللسان فقط « والثانى » القلب اذا كان القلب يحتاج الى موفقته حتى يحضر مع الذكر ، ولو ترك وطبعه لاسترسل فى أودية الأفكار « والثالث » أن يستكمن الذكر من القلب ويستولى عليه بحيث يحتاج الى تكلف فى صرفه عنه الى غيره كما احتيج فى الثانى الى تكلف فى قرار معه ودوامه عليه « والرابع وهو اللباب » أن يستكمن المذكور من القلب وينمحى الذكر ويخفى وهو اللباب المطلـــوب ، وذلك بأن لا يلتفت الى الذكر ولا الى القلب بل يستغرق المذكور جملته ، ومهما ظهر له فى أثناء ذلك التفات الى الذكر فذلك حجاب شاغل ، وهذه الحالة التى يعبر عنها العارفون بالفناء ، وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظـــواهر جوارحه ، ولا من الأشياء الخـــارجة عنه ولا من العوارض الباطنة فيه بل يغيب عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك ذاهبا الى ربه أولا ، ثم ذاهبا فيه آخرا ، وان خطر له فى أثناء ذلك أنه فنى عن نفسه بالكلية فذلك شوب وكدورة . بل الكمال فى أن يفنى عن نفسه ويفنى عن الفناء أيضا ، فان الفناء عن الفناء غاية الفناء — وهذا قد يظنه الفقيه الرسمى أنه طامات غير معقولة ، وليس كذلك بل هذه الحالة لهم بالاضافة الى محبوبهم كحالتك فى أكثر الأحوال بالاضافة الى محبوبك من جاه أو مال أو معشوق فانك قد تصير مستغرقا لشدة الغضب بالفكر فى عدوك ولشدة التفكر فى معشوقك حتى لا يكون فيك متسع لشيء أصلا ، فتخاطب فلا تفهم . ويجتاز بين يديك غيرك فلا تراه وعيناك مفتوحان . ويتكلم عندك فلا تسمع وما بأذنيك صمم ، وأنت فى هذا الاســـتغراق غافل عن كل شيء وعن الاستغراق أيضا .

فان الملتفت الى الاستغراق معرض عن المستغرق به ، وانما سموا هذه الحالة فناء وان كان الشخص والطلل باقيا لأن الأشخاص والأطلال بل سائر المحسوسات ليس لها حقيقة الوجود بل الوجود الحقيقى لعالم الأمر والملكوت ، والقلب من عالم الأمر ، قال الله تعالى « قل الروح من أمر ربى » والقوالب من عالم الخلق وأعنى بالقلب اللطيفة الذاكرة العارفة التى هى مهبط الأنوار الالهية دون القلب الظاهر ، فان ذلك من عوالم الخلق فلا يفهم من هذا اشارة الى قدم الروح وحدوث القالب بل هما جميعا حادثان ، وانما أعنى بالخلق ما تقع عليه المساحة والتقدير وهى الأجسام وصفاتها ، وأعنى بعالم الأمر ما لا يتطرق اليه التقدير ، والعالم الجسمانى ليس له وجود حقيقى بل هو من ذلك العالم كالظل من الأجسام ، وليس لظل الانسان حقيقة الانسان ، وليس للشخص حقيقة الوجود بل هو ظل الحقيقة والكل من صنع الله تعالى ، قال الله تعالى « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » وظلالهم بالغدو والآصال وسجود عالم الأمر طوع لله ، وسجود الظلال كره ، وتحته سر بل أسرار تحرك أوائلها سلسلة المجانين الحمقى فضلا عن أواخرها فلنتجاوزها ، فقد أفهمناك ما أرادوه بالفناء ، فدع عنك الغيبة والتكذيب بما لم تحط بعلمه كما قال تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » وقال تعالى « واذ لم يهتدوا فسيقولون هذا افك قديم » .

فاذا فهمت الفناء فى المذكور «فاعلم» أنه أول الطريق ، وهو الذهاب الى الله عز وجل ، وانما الهدى بعده أعنى بالهدى هدى الله كما قال الخليل صلوات الله عليه « انى ذاهب الى ربى سيهدين » فأول الأمر ذهاب الى الله ، ثم ذهاب فى الله -- وذلك هو الفناء والاستغراق به . ولكن هذا الاستغراق أولا يكون كبرق خاطف قل ما يثبت ويدوم . فان دام ذلك صار عادة رسخة وهيئة ثابتة عرج به الى العالم الأعلى وطالع الوجود الحقيقى الأصفى ، وانطبع له نقش الملكوت وتجلى له قدس اللاهوت ، وأول ما يتمثل له من ذلك العالم جواهر الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء فى صورة جميلة يفيض اليه بواسطتها بعض

الحقائق -- وذلك في البداية الى أن تعلو درجته عن المثال . فيكافح بصريح الحق في كل شيء ، فاذا رد الى هذا العالم المجازي الذي هو كالظلام ، نظر الى الخلق نظر مترحم عليهم لحرمانهم عن مطالعة جمال حظيرة القدس وتعجب منهم في قناعتهم بالظلال وانخداعهم بعالم الغرور وعالم الخيال فيكون معهم حاضرا بشخصه غائبا بقلبه . متعجبا هو من حضورهم ويتعجبون هم من غيبته ، فهذه ثمـــرة لبـــاب الذكر وانما مبدؤها ذكر اللسان ، ثم ذكر القلب تكلفا ، ثم ذكر القلب طبعا ، ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر ، وهذا سر قوله ﷺ « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل » بل سر قوله « يفضل الذكر الخفي على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفا » .

« واعلم » أن كل ذكر يشعر به قلبك تسمعه الحفظة فان شعورهم يقارن شعورك وفيه سر حتى اذا غاب ذكرك عن شعورك بذهابك في المذكور بالكلية فيغيب ذكرك عن شعور الحفظة وما دام القلب يشـــعر بالذكر ويلتفت اليه فهو معرض عن الله عز وجل وغير منفك عن شرك خفي حتى تصير مستغرقا بالواحد الحـــق . فذلك هو التوحيـــد — وكذلك القول في المعرفة . فمن طلب المعرفة للمعرفة فقـــد قال بالثاني . ومن وجدها كمثل أن لا يجدها بل يجد المعروف بها فهو الذي استمكن من حقيقة الوصال . وحل بحبوحة حظيرة القدس .

« فان قلت » فلم اختصت هذه المكاشفات بحال الفناء « فاعلم » أن هذه قصة يطول فيها نظر الناظر — وذلك اذا تأملت لم تقصر عن أن تدرك كون الحواس وعوارض النفس وشهواتها جاذبة الى هذا العـــالم المحسوس . وهو عالم الزور والغرور -- ولذلك ينكشف صريح الحق بالموت لبطلان سلطان الحواس والخيالات المولية بوجه القلب الى عالم السفل . فان قصر عنك سلطان الحواس بالنوم طولعت بشيء من الغيب على قدر استعدادك وقبولك وهمتك . ولكن بمثال يحتاج الى التعبير وما عندي أنك لم تصادف من نفسك رؤيا صادقة اطلعت بها على أمر مستقبل . لكن الخيال لا يفتر في النوم وان ركدت الحواس . فلذلك

يضعف الاطلاع ولا يخلو من شوب المثال . وأما الفناء فعبارة عن حالة تركد فيها الحواس ولا تشتغل . ويسكن فيها الخيال ولا يشوش . فان بقيت فى الخيال بقية مغلوبة لم يؤثر الا فى محاكاة ما يتجلى من عالم القدس حتى يتمثل الأنبيـاء والملائكة والأرواح المقدسـة فى قوالب الخيال . فهذه أمور نبهت عليها لتكون متشوقا الى أن تصير من أهل الذوق لها . فان لم تكن فمن أهل العلم بها . فان لم تكن فمن أهل الايمان بها « ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » واياك أن تكون من المنكرين لها فتلقى العذاب الشديد اذا كوشفت بالحق عند سكرات الموت الذى كنت منه تحيد وقيل لك لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد .

« واعلم » أن الايمان والعلم والذوق ثلاث درجات متباعدة . فان العنين مثلا يتصور أن يصدق بوجود شـهوة الوقاع لغيره بأن يقبل ذلك ممن يحسن ظنه به ولا يتهمه بالكذب — وذلك ايمان ويتصور أن يعلم بالبرهان وجوده لغيره . وهو علم . ومأخذه قياس أن ينظر الى شهوته للطعام مثلا فيقيس بها شهوة الوقاع . وكل ذلك بعيد عن ادراك حقيقة الشهوة بوجودها له — وكذلك المرض يعـرفه العامى الصحيح ويؤمن به . ويعرفه الطبيب الصحيح بالبرهان وهو علم . ومن لم يصر مريضا لم يحصل له الذوق فكذلك القول فى الفنـاء فى التوحيـد « فالذوق » مشاهدة « والعلم » قياس « والايمان » قبول بحسن الظن مع الانفكاك عن التهمة . فاجتهد أن تصير من أهل المشاهدة . فليس الخبر كالمعاينة .

« فان قلت » فقد عظمت أمر الذكر فهو أفضـل أم قراءة القـرآن « فاعلم » أن قراءة القرآن أفضـل للخلـق كلهم الا للذاهب الى الله عز وجل وهو أفضل للذاهب الى الله فى جميع أحوال بدايته وفى بعض أحواله فى نهايتـه . فان القرآن هو المشتمل على صـنوف المعـارف والأحوال والارشاد الى الطريق . فما دام العبـد مفتقرا الى تهذيب الأخلاق وتحصيل المعارف . فالقرآن أولى به . فان جاوز ذلك واستولى

الذكر على قلبه بحيث يرتجي له أن يفضي به ذلك الى الاستغراق فمداومة الذكر أولى به . فان القرآن يجاذب خاطره ويسرح به في رياض الجنة ، والمريد الذاهب الى الله تعالى لا ينبغي أن يلتفت الى الجنة ورياضها . بل ينبغي أن يجعل همه هما واحدا وذكره ذكرا واحدا حتى يدرك درجة الفناء والاستغراق — فلذلك قال الله عز وجل « ولذكر الله أكبر » وكذلك من ينتهي الى درجة الاستغراق ولا يدوم ولا يثبت عليه فاذا رد الى نفسه فقد تنفعه تلاوة القرآن . وهذه حالة نادرة عزيزة كالكبريت الأحمر يتحدث به ولا يوجد . فتكون تلاوة القرآن أفضل مطلقا لأنه أفضل في كل حال الا في حال من شغله المتكلم عن الكلام . اذ لباب القرآن معرفة المتكلم بالقرآن ومعرفة جماله والاستغراق به . والقرآن سائق اليه وهاد نحوه ومن أشرف على المقصد لم يلتفت الى الطريق .

« فان قلت » فأي الاذكار أفضل « فاعلم » ان الأفضل كما ذكرناه استيلاء المذكور على القلب وهو شيء واحد لا كثرة فيه حتى يختار أفضله . وذلك عين الجمع والتوحيد . وانما التفرقة والكثرة قبل ذلك فذلك (١) ما دمت في مقام الذكر باللسان والقلب : وعند هذا قد ينقسم الذكر الى الأفضل وغير الأفضل . وفضله بحسب الصفات التي يعبر عنها بالأذكار . والصفات والأسماء الواردة في حق الله سبحانه تنقسم الى ما هو حقيقة في حق العباد ومؤولة في حقه سبحانه كالصبور والشكور والرحيم والمنتقم والى ما هو حقيقة في حقه سبحانه . واذا استعمل في حق غيره كان مجازا . فمن أفضل الاذكار « لا اله الا الله الحي القيوم » فان فيه اسم الله الأعظم اذ قال صلى الله عليه وسلم « اسم الله الأعظم في آية الكرسي وأول آل عمران » ولا يشتركان الا في هذا . وله سر يدق عن فهمك ذكره والقدر الذي يمكن الرمز اليه ان قولك « لا اله الا الله » يشعر بالتوحيد . ومعنى الوحدانية في الذات والربية حقيقي في حق الله عز وجل غير مؤول بل هو في حق غيره مجاز ومؤول — وكذلك « الحي » فان معنى الحي هو الذي يشعر بذاته

---

(١) وفي النسخة النورية «قبل ذلك ما دمت» أي باسقاط «فذلك»

ويعلم ذاته . والميت هو الذى لا خير له من ذاته — وهذا أيضا حقيقى لله تعالى غير مؤول « والقيوم » يشعر بكونه قائما بذاته وان كل شيء قوامه به — وهذا أيضا حقيقى لله عز وجل غير مؤول ولا يوجد لغيره . وماعداها من الأسماء الدالة على الأفعال كالرحيم والمقسط والعدل وغيره فهو دون ما يدل على الصفات لأن مصادر الأفعال هى الصفات والصفات أصل والأفعال تبع . وما عداها من الصفات التى تدل على القدرة والعلم والارادة والكلام والسمع والبصر ، فذلك مما يظن أن الثابت منهــا لله عز وجل مفهوم من ظواهرها . وهيهات فان المفهوم من ظواهرها أمور تناسب صفات الانسان وكلامه وقدرته وعلمه وسمعه وبصره . بل لها حقائق يستحيل ثبوتها للانسان فيستخرج من هذه الاسامى بنوع من التأويل .

فهــذا ينبهك على ما يحتمله فهمك من اختصــاص هذه الكلمات بكونها أعظم . ويقرب منه قولك « سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر » سبحان الله للتقديس وهو حقيقى فى حقــه فان القــدس الحقيقى لا يتصور الا له تعالى وقولك « الحمد لله » يشعر باضافة النعم كلها اليه وهو حقيقى اذ هو المتفرد بالأفعال كلها تفردا حقيقيا بلا تأويل . وهو تبارك وتعالى المستوجب الحمد وحده اذ لا شركة لأحد معه فى فعله أصلا كما لا شركة القلم مع الكاتب فى استحقاق المحمدة عند حسن الخط .

« واعلم » ان كل من سواه ممن ترى منه نعمة فهو تعالى مســخر له كالقلم فهذا مثال ينبهك على تفرده باســتحقاق الحمــد . وقولك « لا له الا الله » فقد عرفت أنه التوحيد الحقيقى . وقولك « الله أكبر » فليس المعنى به أنه أكبر من غيره اذ ليس معه سبحانه غيره حتى يقال أكبر منه . بل كل ما سواه فهو نور من أنوار قدرته . وليس لنــور الشمس مع الشمس رتبة المعية حتى يقال انها أكبر منه بل رتبة التبعية بل معناه أنه عز وجل أكبر من أن ينال بالحواس أو يدرك جلاله بالعقل والقياس . بل أكبر من أن يدرك كنه جلاله غيره . بل أكبر من أن يعرفه غيره . فانه لا يعرف الله تبارك وتعالى الا الله . فان منتهى معرفة عباده

أن يعرفوا أنه يستحيل منهم معرفتــه الحقيقية ولا يعــرف ذلك أيضا بكماله الا نبى أو صديق « أما النبى » فيعبر عنه ويقول « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأما الصديق فيقول « العجز عن درك الادراك ادراك » فان تشوقت الى زيادة تحقيــق فى هــذا المعنى واستنكرت قولى لا يعرف الله الا الله . فاطلب معرفة حقيقته بالبرهان من كتاب « المقصد الأقصى فى معانى أســماء الله الحســنى » ويكفيك الآن هذا القدر من الرموز الى أسرار الذكر وفضل الاذكار .

الأصل السابع فى طلب الحــلال

قال الله سبحانه « كلوا من الطيبات واعملــوا صالحا » والحرام خبيث وليس بطيب ، فقد قرن عز وجل أكل الطيبات بالعبــادات وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة على كل مسلم بعد الفريضة » أى بعد فريضة الايمان والصلاة . وقال صلى الله عليه وسلم « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وفى رواية أخرى زهده الله فى الدنيــا . وقال ﷺ « ان لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل » فالصرف النافلة ، والعدل الفضيلة ، وقال ﷺ « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم واحد حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه منه شىء » وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنه « لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يقبل الله ذلك منكم الا بورع حاجز » وقيل العبادة مع أكل الحرام كالبنيان على السرقين .

فصــــل

اعلم أن طيب المطعم له خاصية عظيمة فى تصفية القلب وتنويره وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة ، وفيه سر لا يحتمل هذا الكتاب ذكره ، ولكن ينبغى أن تفهم أن درجات الورع أربعة هى « الدرجة الأولى » هى التى يجب الفسق باقتحامها(١) وتزول العدالة بزوالها ،

(١) وفى نسخة « بتركها » .

وهى التى يحرمها فتوى الفقهاء « الثانية » ورع الصالحين وهو الحذر عما يتطرق اليه احتمال التحريم ، وان أفتى المفتى بحله بناء على الظاهر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » « الثالثة » ورع المتقين قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذرا ومخافة مما به بأس » وقال عمر رضى الله عنه كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام ، ومن هذا الأصل كان بعضهم اذا استحق ماية درهم اقتصر على تسعة وتسعين ، ويترك الواحد حاجزا بينه وبين النار لخوف الزيادة ، وكان بعضهم يأخذ بنقصان حبة ويعطى ما يعطى بزيادة حبة — ولذلك أخذ عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه آنفه حذرا من ريح المسك لبيت المال كان يوزن بين يديه وقال هل ينتفع الا بريحه ، ومن ذلك أن يتورع عن الزينة وأكل الشهوات خيفة من أن تغلب النفس فتدعوه الى الشهوات المحظورة ، ومن ذلك ترك النظر الى تجمل أهل الدنيا فانه يحرك دواعى الرغبة فى الدنيا — ولذلك قال الله تعالى « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزوجا منهم زهرة الحياة الدنيا » ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام « ولا تنظروا الى أموال أهل الدنيا فان بريق أموالهم يذهب بحلاوة ايمانكم » — ولذلك قال السلف : من رق ثوبه رق دينه . فالحلال الطلق الطيب كل حلال انفك عن مثل هذه المخافة ولم يوجد فيها .

« الرابعة » ورع الصديقين وهو الحذر عن كل ما لا يراد بتناوله القوة على طاعة الله تعالى اذا كان قد يتطرق الى بعض أسبابها معصية . فمن ذلك ما حكى أن ذا النون المصرى كان محبوسا جائعا فبعثت اليه امرأة صالحة من طيب مالها طعاما على يد السجان ، فلم يأكل منه واعتذر أنه جاءنى على طبق ظالم أى يد السجان . ومن ذلك أن بشر الحافى كان لا يشرب الماء من الأنهار التى حفرها السلاطين . وأطفأ بعضهم سراجا أشعله غلامه من بيت ظالم . وشرب بعضهم دواء فأشارت اليه امرأته بالمشى والتردد ، فقال هذه مشية لا أعرف لها وجها ، وأنا أحاسب نفسى على جميع حركاتى — وهذه رتبة أقوام وفوا بقوله تعالى

« قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » فعدوا كل ما لم يكن لله تعالى حراما ، وليس هذا من عشك وعش ناصحك ، فادرج واجتهد أن تفىء بورع العدول الذى تفتى به الفقهاء ، نعم ينبغى أن تضيف اليه شيئين « احدهما » أن تحذر عن مواقع غرورهم ولا تلتفت الى قولهم « من وهب فى آخر السنة ماله زوجته واستوهب منها مالها سقطت الزكاة عنهما » فانهم ان عنوا به أن السلطان لا يطالبهم بالزكاة لأن مطمح نظره ظاهر الملك فهو صدق ودرجة الفقهاء وفتواهم ذكر ما يتعلق بالظواهر فيحكمون بالبراءة عن الزكاة اذا سقط طلب الساعى ويحكمون بصحة الصلاة اذا امتنع القتل على السلطان بجريان صورة الصلاة ، اذ ليس بأيديهم من القوانين الا القانون الذى يستعمله السلطان فى السياسة لينتظم أمر المعيشة الدنيوية التى هى منزل من منازل الطريق كما سبق « وأما أنت » اذا كنت تنظر فيما ينفعك غدا عند جبار الجبابرة وسلطان السلاطين فلا تلتفت الى هذا .

و « اعلم » أن مقصود الزكاة ازالة رذيلة البخل فانه مهلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه» وهبة مال الزكاة لأجل درء الزكاة تجعل الشح مطاعا فانه يصير مطاعا باجابته الى ما يقتضيه . وقبل هذا لم يكن مطاعا فكيف يكون ذلك منجيا . وكذلك من يسىء معاشرة زوجته حتى تنفك له من من المهر فلا يحل له المهر بينه وبين الله عز وجل وان كان الفقيه يفتى بسقوط المهر وصحة الابراء لأن الله تعالى قال « فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » وليس هذا طيبة النفس بل طيبة القلب . والفقيه لا يميز بين الأمرين لأن شغفه بقطع الخصومات الظاهرة لا غير « والحجامة » وشرب الدواء البشيع لا تطيب به النفس بل يطيب به القلب — وكذلك كل ما يأباه الطبع ويريده العقل لمصلحة البدن فى العاقبة .

وهذا باب طويل . وأصله أن لا تستحل مال غيرك الا برضاء مطلق صاف . وينبغى أن لا تأكل من السؤال . فان سألت فاحذر أن تسأل على الملأ فربما يعطى بالحياء — وذلك ليس مقرونا بالرضاء فان المستحى يؤثر

ألم ازالة الملك على ألم الحياء . ولا فرق بين أن تأخذ ماله بضرب ظاهره بالسوط وبين أن تأخذه بضرب باطنه بسوط الحياء ، فالكل مصادرة واحذر أيضا أن يعطيك بالدين . وذلك بأن يعطيك لظنه أنك ورع تقى فتأكل بالدين ويكون من شرط حله أن لا يكون فى باطنك ما لو اطلع عليه المعطى لامتنع من الاعطاء ، فلا فرق بين من يأخذ بالتصوف والتقوى وليس هو متصفا به باطنا وبين من يزعم أنه علوى ليعطى وهو كاذب . وكل ذلك حرام عند ذوى البصائر وان أفتى الفقيه بالحل بناء على الظاهر .

« الفن الثانى » أن تراجع قلبك وان أفتوك فان الاثم حزاز القلوب فالذى يضرك ما حاك فى قلبك — ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك » وهذا السر طويل ذكره . ولكن اعلم على الجملة أن المحذور من الحرام اظلام القلب والمطلوب من الحلال تنويره — وذلك يتشعب من اعتقادك لا من نفس المعتقد . فمن وطىء امرأة على ظن أنها أجنبية . فاذا هى منكوحة حصل اظلام القلب . ولو وطىء أجنبية على ظن أنها زوجته لم يحصل — وكذلك فى النجاسات والطهارات المؤثرة فى تنوير القلب وهمك واعتقادك فما أمرت بأن تصلى وثوبك طاهر بل ان تصلى وأنت تعتقد أنه طاهر فاستشعار الطهارة مؤثرة فى اشراق القلب وان لم يكن على وفق الحال — ولذلك نقول ان من صلى ثم تذكر أنه كان معه نجاسة فليس عليه الاعادة على الأصح لأنه ﷺ خلع نعليه فى أثناء صلاته لما أخبره جبريل عليه السلام بأن عليهما قذرا واستمر فيها ، ولذلك يشدد الأمر على الموسوس فانه لما لم يطمئن قلبه باعتقاد الطهارة فيجب عليه الاستقصاء والمعاودة . وأولئك قوم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فهلكوا باستقصائهم ، كما قال عليه السلام « هلك المتنطعون » — فكذلك فى الحلال أنت متعبد بما يطمئن اليه قلبك لا بما يفتى به المفتى فاستفت قلبك .

فصل

اياك أن تشدد على نفسك فتقول ان أموال الدنيا كلها حرام . وقد أخبثتها الأيدى العادية والمعاملات الفاسدة . فأقتنع بالحشيش مترهبا أو

أتناول من الجميع متوسعا . لا أفضل فيه بين حلال وحرام بل اعلم قطعا أن الحلال بين والحرام بين . وبينهما أمور متشابهات ـ كذلك كان فى عصر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ـ وكذلك يكون أبد الدهر . فاستمد من السر الذى ذكرناه فانك غير متعبد بما هو فى نفسه حلال بل بما هو فى اعتقادك حلال لا تعرف سببا ظاهرا فى تحريمه فقد توضـأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشرك وتوضأ عمـر رضى الله عنه من جرة نصرانية . ولو عطشوا لشربوا منـه . وشرب الماء النجس حرام . ولكن استصحبوا يقين الطهارة ولم يتركوها لتوهم النجاسة .

وكذلك كل مال صادفته فى يد رجل مجهول عندك حاله . فلك أن تشترى منه وتأكل من ضيافته تحسينا للظن بالمسلم فان الأصل أن مافى يده فهو حلال . وما تصادفه فى يد رجل عرفته بالصلاح فهو أولى بأن تعتقده حلال « نعم » يجب الحذر مما تصادفه فى يد سلطان ظالم أو رجل عرفته بالربا أو بيع الخمر فيجب الحذر منه حتى تسأل وتستقصى وتعرف انه من أين حصل له . فان ظهر لك جهة حصوله وانه حلال فلك أخذه والا فلا . فالاعتماد على العلامة الظاهرة وهى قرينة حاله . وهذا اذا كان أكثر أمواله كذلك . فان كان أكثرها حلالا فلك أن تأكل منه وان تركته فذلك ورع . فقد كتب بعض وكلاء ابن المبارك من البصرة اليه يسأله عن معاملة رجل يعامل السلطان . فقال ان كان لا يعامل غير السلطان فلا تعامله . وان كان يعامل غيره أيضا فعامله .

وبالجملة الناس فى حقك ستة أقسام « أحدها » أن يكون مجهولا فكل من ماله والحذر ليس بواجب بل هو محض الورع « الثانى » أن تعرفه بالصلاح فكل منه ولا تتورع . فالورع فيه وسوسة . فان أدى الى الأذى والايحاش فهو معصية وحرام لما فيه من الايذاء . ولما فيه من سوء الظن بالرجل الصالح « الثالث » أن تعرفه بالظلم والربا حتى علمت أن كل ماله أو أكثره حرام كالسـلاطين الظلمة وغيرهم فمالهم حـرام « الرابع » أن تعرف أن أكثر أمواله حـلال ولكن لا يخلو عن حرام كرجل له تجارة وميراث وهـو مع هذا فى عمـل السلطان فلك الأخذ بالأغلب لكن الترك من الورع المهم «الخامس» أن يكون مجهولا عندك

لكن ترى عليه علامة الظلم كالقباء والقلنسوة وهيئة الظلمة . فهذه علامة ظاهرة توجب الحذر فلا تأكل من ماله الا بعد التفتيش« السادس » أن ترى عليه علامة الفسق لا علامة الظلم كطول الشارب وانقسام شعر الرأس قزعا أو رأيته يشتم غيره أو ينظر الى امرأة . فان علمت له مالا موروثا أو تجارة لم يحرم ماله بذلك . وان كان أمره مجهولا عندك فهذا فيه خطر لأن علامة الفسق أضعف دلالة من علامة الظلم ولكن الأظهر عندى انه لا يحرم ماله لأن ظاهر اليد والاسلام يدل على الملك دلالة أظهر من دلالة هذه العلامات على التحريم . وليست هذه الدلالة أقوى من دلالة النصرانية والمجوسية على نجاسة الماء . ولم يلتفت اليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عمر رضى الله عنه أما علامة الظلم فتضاهى ما اذا رأينا ظبية تبول فى ماء ثم وجدنا الماء متغيرا فأمكن أن يكون من طول المكث وأمكن أن يكون من البول فانه يجب اجتنابه احالة على السبب الظاهر . ثم من وراء ذلك كله عليه أن يستفتى قلبه . فاذا وجد فى قلبه حزازة فليجتنبه . فالاثم حزازة القلوب وحكاكات الصدور . ولكن ههنا دقيقة يغفل عنها أهل الورع . وهى أنه حيث يكون الترك من الورع أو من حزازة فى النفس فلا يجوز الترك والسؤال بحيث يؤذى فالمجهول اذا قدم اليك طعاما فانسألته انه منأين استوحشوتأذى . والايذاء حرام . وسوء الظن حرام وان سألته عن غيره بحيث يدرى زاد الايذاء وان سألت بحيث لا يدرى فقد تجسست وأسأت الظن . وبعض الظن اثم وتساهلت بالغيبة والتهمة وكل ذلك حرام . وترك الورع ليس بحرام . فليس لك الا التلطف بالترك فان لم يكن الا بايذاء فعليك أن تأكل فان طيبة قلب المسلم وصيانته عن الايذاء أهم من الورع . فاياك أن تكون من القراء المغرورين الذين لا يدركون دقائق الورع .

« واعلم » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل منصدقة بريرة ولم يسأل عن المتصدق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تحملاليه الهدايا فيقبل ولا يسأل . نعم سأل فى أول قدومه الى المدينة عما حمل اليه هل هو صدقة أو هدية لأن ذلك ليس فيه ايذاء ولأن قرينة الحال كانت تقتضى الامكان فى الصدقة والهدية على وتيرة واحدة وكان صلى

الله عليه وسلم يدعى الى الضيافات فيجيب ولا يسأل ولم ينقل السؤال الا نادرا فى محل الريبة « فان قلت » فان وقع طعام حرام فى سوق فهل نشترى من ذلك السوق « فأقول » ان تحققت أن الحرام هو الأكثر فلا تشتر الا بعد التفتيش . وان علمت أن الحرام كثير وليس بالأكثر فلك الشراء والتفتيش من الورع .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يشترون فى أسفارهم من الأسواق مع علمهم بأن فيهم أهل الربا والغصب وأهل الغلول فى الغنيمة . وكانوا لا يتركون المعاملة معهم . وهذا الباب يستدعى شرحا طويلا . فان رغبت فيه فطالع كتاب الحلال والحرام من كتب الاحياء تشهد عند مطالعته بأنه لم يصنف فى فنه مثله فى التحقيق والتحصيل والاحاطة بجميع التفاصيل .

الأصل الثامن في القيام بحقوق المسلمين

وحسن الصحبة معهم

وهو ركن من أركان الدين . اذ الدين معناه السفر الى الله تعالى . ومن أركان السفر حسن الصحبة فى منازل السفر مع المسافرين والخلق كلهم سفر يسير بهم العمر سير السفينة بركابها .

« واعلم » أن الانسان فى الدنيا اما أن يكون وحده أو يكون مع خواصه من أهل وولد وقريب وجار أو يكون مع عموم الخلق ، فهذه ثلاثة أحوال وعليه حسن الصحبة واداء الحقوق فى جميع هذه الأحوال .

الحالة الاولى

أن يكون وحده وليعلم أنه بنفسه عالم وأن باطنه يشتمل على أصناف من الخلق مختلفى الطباع والأخلاق فان لم يحسن صحبتهم ولم يقم بحقهم هلك ، وأصناف جنود الباطن كثيرة « وما يعلم جنود ربك الا هو » وقد استقصينا بعض ذلك فى كتاب « عجائب القلب » ونذكر الآن أمراء الجنود ورؤوسها ، فنقول فيك شهوة تجذب بها الى نفسك

النافع وغضب تدفع به عن نفسك الضار ، وعقل تدبر به الأمور وترعى به الرعية ، فأنت باعتبار غضبك كلب وباعتبار شهوتك بهيمة كالفرس مثلا ، وباعتبار عقلك ملك وأنت مأمور بالعدل بينهم والقيام بحقوقهم والاستعانة بهم لتقتنص بمعونتهم سعادة الأبد ، فان رضت الفرس وأدبت الكلب وسخرتهما للملك تيسر لك الظفر بما طلبت ، وان سخرت العقل فى استنباط الحيل لتحصيل ما يتقاضاه الكلب بغضبه (١) والحاجة والفرس بحرصه وجشعه أوفيت على العطب فضلا عن ادراك مقصود الطلب فصرت منكوسا معكوسا فاجرا ظالما لأن الظلم وضع الشيء فى غير موضعه ، ولو رأيت شخصا جعل فى طاعته ملك وكلب وخنزير فلم يزل يضطر الملك الى أن يسجد للخنزير والكلب ، فهل تراه ظالما مستوجبا اللعنة ، ولو كوشفت بحالك عند منامك أو عند فيائك عن نفسك كما وصفناه فى الاستغراق بالله لرأيت كل من أطاع شهوته وغضبه ساجدا لكلب وخنزير اذ لم يكن الكلب كلبا لصورته بل لمعناه ، وكذلك ترى نفسك بعد الموت لأن المعانى فى عالم الآخرة تستتبع الصور ولا تتبعها فتتمثل كل شيء بصورة توازى معناه فيحشر المتكبرون فى صغر الذر يطؤهم من أقبل وأدبر ، والمتواضعون أعزاء .

« وأما هذا العالم » فعالم التلبيس فقد يودع معنى الخنزير والكلب فى صورة الانسان فلا تغتر به فان ذلك ينكشف يوم تبلى السرائر ، فعليك أن تحسن صحبة رفقائك الثلاثة فتكسر شر الشهوة بسطوة الغضب وتفل من غلواء الغضب بخداع الشهوة ، وتسلط أحدهما على الآخر فان ذلك بليغ جدا فى تقويمهما حتى ينقادا للعقل والشرع فيستعملهما العقل بحيث ينتفع بهما كما يستعمل الصائد الفرس والكلب عند الحاجة ويسكنهما عند الاستغناء وشرح هذا الرياضة والصيد طويل ذكرناه فى كتاب رياضة النفس .

---

(١) وفى نسخة « بعضه » .

الحالة الثانية

صحبتك مع عموم الخلق فأقل درجات حسن الصحبة كف الأذى عنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وفوق ذلك أن تنفعهم وتحســـن اليهم قال النبى صلى الله عليه وسلم « الخلق كلهم عيال وأحبهم الى الله أنفعهم لعياله » وفوق ذلك أن تتحمل الأذى منهم وتحسن مع ذلك اليهم ، وذلك درجة الصديقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه « ان أردت أن تسبق الصديقين فصل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك » هذه جملة الأمر ، وتفصيل هذه الحقوق كثيرة ونقتصر من جملتها على عشرين وظيفة .

« فمنها » أن لا تحب للناس الا ما تحب لنفسك قال عليه السلام « من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وليأت الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه » .

« ومنها » أن يتواضع لكل أحد ولا يفتخر عليه فان الله لا يحب كل مختال فخور ، وان تكبر عليه غيره فليحتمل قال الله تعـالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

« ومنها » أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان قال عليه السلام « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا ، وقال عليه السلام « من اجلال الله تعالى اكرام ذى الشيبة المسلم » وقال صلى الله عليه وسلم « ما وقر شاب شيخا لسنه الا قيض الله له فى شيبته من يوقره » وهذا يبشره بطول الحياة مع الأجر .

« ومنها » أن تكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه وقال صلى الله عليه وسلم « أتدرون على من حرمت النار » قالوا الله ورسوله أعلم قال « على الهين اللين السهل القريب » وقال صلى الله عليه وسلم « ان الله يحب السهل الطلق » .

« ومنها » اصلاح ذات البين بين المسلمين ولو بالمبالغة والزيادة فى الكلام قال صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين الاثنين ، فقال خيرا أو نمى خيرا » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأفضل من درجات القيام والصلاة والصدقة » قالوا بلى يارسول الله قال « اصلاح ذات البين وفساد ذات البين هى الحالقة » .

« ومنها » أن لا تسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة قتات » وقيل من نم اليك نم عليك .

« ومنها » أن لا تزيد فى الهجرة عند الوحشة على ثلاثة أيام قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » وقال صلى الله عليه وسلم « من أقال مسلما عثرته أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة » .

« ومنها » أن تحسن الى كل أحد كان أهلا لذلك أو لم يكن قال صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس أهله فان لم يصب أهله فأنت من أهله » .

« ومنها » أن تخالق كل صنف بأخلاقهم ولا تلتمس من الجاهل والغبى ما تلتمس من الورع العالم ، قال داود عليه السلام « الهى كيف لى أن يحبنى الناس وأسلم فيما بينى وبينك » فأوحى الله سبحانه اليه « خالق أهلَ الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة » .

« ومنها » أن تنزل الناس منازلهم فتزيد فى اكرام ذى المنزلة ، وان كانت منزلته فى الدنيا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط رداءه لبعضهم ، وقال « اذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » .

« ومنها » أن تستر عورات المسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه الا دخل الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان فى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فان من يتبع عورة

أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ، ولو فى جوف بيته » .

« ومنها » أن تتقى مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن وألسنتهم عن الغيبة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا مواضع التهم » وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم احدى نسائه فمر به رجل ، فسلم عليه فلما مر دعاه ، فقال « يافلان هذه زوجتى صفية ، فقال يا رسول الله من كنت أظن فيه لا أظن فيك ، فقال : ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

« ومنها » أن تسعى فى قضاء حوائج المسلمين ولو بشفاعة ، قال صلى الله عليه وسلم . اشفعوا الى تؤجروا فانى أريد الأمر فأؤخره كى تشفعوا الى فتؤجروا » وقال صلى الله عليه وسلم « من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين » وقال صلى الله عليه وسلم « قيامك مع أخيك ساعة خير من اعتكافك سنة »

« ومنها » أن تبادر بالسلام على كل مسلم وتصافحه ليكون لك فضل البداية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة تسع وستون لأحسنهما برا » .

« ومنها » أن ينصر أخاه فى غيبته فيرد عن عرضه وماله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد ينصر مسلما فى موضع يهتك فيه من عرضه وتستحل حرمته الا نصره الله فى موطن يجب فيه نصرته . وما من أحد يخذل مسلما فى موضع تهتك فيه حرمته الا خذله الله فى موضع يجب فيه نصرته » .

« ومنها » أن تدارى أهل الشر لتسلم منهم ، قالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ، فلما دخل ، ألان له القول حتى ظننت أن له عنده منزلة ، فلما خرج راجعته فى ذلك ، فقال « يا عائشة ان شر الناس منزلة

عند الله يوم القيامة من يكرمه الناس اتقاء فحشه » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خالطوا الناس بأعمالهم وزايلوهم بالقلوب » .

« ومنها » أن تحذر مجالسة الأغنياء وتكثر مجالسة المساكين ، قال صلى الله عليه وسلم «اياكم ومجالسة الموتى» قيل ومن هم ، قال الأغنياء . وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين » وكان سليمان عليه السلام اذا رآى في المسجد مسكينا جلس اليه وقال مسكين جالس مسكينا . وقال موسى عليه السلام « الهي أين أطلبك ، قال عند المنكسرة قلوبهم من أجلي .

« ومنها » أن لا يجالس الا من يفيده في الدين فائدة أو من يستفيد منه . فأما أهل الغفلة فيتحذر منهم . قال صلى الله عليه وسلم « الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة» فاذا أكثر من مجالسة أهل الغفلة فينتقص من دينه بكل جلسة شيء فليقدر أن كل واحد منهم لو كان يأخذ منه في كل جلسة سلكا من ثوبه أو شعرة من شعر لحيته أما كان يحذره خيفة أن يصير على القرب أمرد عاريا . فالحذر لأجل الدين أولى .

« ومنها » أن يعود مرضاهم ، ويشيع جنائزهم ، ويزور قبورهم ، ويدعو لهم في الغيبة ، ويشمت العاطس ، وينصف الناس من نفسه ، وينصح اذا استنصح . الى غير ذلك من حقوق كثرت فيها الأخبار آثرنا فيها الاختصار . وجملتها أن تعمل في حقهم ما تحب أن يعمل في حقك من احسان واهتمام وكف أذى .

الحالة الثالثة

الصحبة مع من يدلي ـــ سوى عموم الاسلام ـــ بخاصية كجوار أو قرابة أو ملك .

قال صلى الله عليه وسلم « اذا رميت كلب جارك فقد آذيته » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أول خصمين يوم القيامة جاران » ، وقيل له صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصوم النهار وتصلى الليل وتؤذى الجيران

فقال « هي في النار » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما حق الجار ان استعان آعنته ، وان استقرضك أقرضته ، وان افتقر جدت عليه ، وان مرض عدته ، وان مات اتبعت جنازته ، وان أصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ، واذا اشتريت فاكهة فاهد له وان لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك الا أن تغرف له منها . أتدرون ما حق الجار ، والذى نفسى بيده لا يبلغ حق الجار الا من رحمه الله » :

« وأما القرابة » فقد قال صلى الله عليه وسلم « قال الله تبارك وتعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمى . فمن وصلها وصلته . ومن قطعها بتته » وقال صلى الله عليه وسلم « صلة الرحم تزيد في العمر » ، وقال صلى الله عليه وسلم « توجد رائحة الجنة على مسيرة خمس مائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصيام والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله عز وجل » ، وقال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدة على الولد ضعفان » ، وقال ﷺ « ساووا بين أولادكم بالعطية » .

« وأما المملوك » فقد قال فيهم صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم » وقال صلى الله عليه وسلم « اذا كفى أحدكم مملوكه طعاما فكفاه حره وعلاجه وقربه اليه فليجلسه فليأكل معه أو ليأخذ لقيمة فليرغها وليضعها في يده وليقل كل هذه » ، وسئل صلى الله عليه وسلم ، كم نعفو عن المملوك في اليوم والليلة ، قال سبعين مرة ، فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ويعفو عن زلته ولا ينظر اليه بعين الكبر والازدراء ، ويعلمه مهمات دينه .

« وأما حقوق المنكوحة » فتزيد على هذا اذ يجب لها مع القيام بواجباتها حسن العشرة والمطايبة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » وكان صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع نسائه ، والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى .

فصـــل

من أصول الدين فى أمر الصحبة اتخاذ الأخوان فى الله عز وجل ، قال تعالى لبعض أنبيائه « أما زهدك فى الدنيا فقد استعجلت الراحة ، وأما انقطاعك الى فقد تعززت بى فهل واليت فى وليا ، وهل عاديت فى عدوا » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله يوم القيامة أين المتحابون لجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى » وأوحى الله سبحانه الى عيسى عليه السلام «لو انك عبدتنى بعبادة أهل السموات والأرض وحب فى الله ليس وبغض فى الله ليس ماأغنى عنك ذلك شيئا » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ان حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور وليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء » فقالوا يارسول الله حلهم لنا من هم . فقال « المتحابون فى الله ، والمتجالسون فى الله ، والمتزاورون فى الله عز وجل » .

« واعلم » أن كل حب لا يتصور دون الايمان بالله واليوم الآخر فهو حب فى الله ، ولكنه على درجتين « احداهما » أن تحبه لتنال منه فى الدنيا نصيبا يوصلك الى الآخرة كحبك أستاذك وشيخك ، بل تلميذك الذى ينمو علمك بتعليمه ، بل خادمك الذى يفـرغ قلبك عن كنس بيتك وغســل ثوبك لتتفــرغ بسببه لطاعة الله تعالى بل المنفق عليك من ماله اذا كان غرضك من ذلك افراغ القلب لعبادة الله تبارك وتعالى ، « الثانية » وهى أعلى أن تحبه لأنه محبوب عند الله عز وجل ويحب الله وان لم يتعلق غرض به لك فى الدنيا والآخرة من علم أو معونة على دين أو غيره ، وهذا أكمل لأن الحــب اذا غلب تعدى الى كل من هــو من المحبوب بسبب حتى يحب الانسان محب محبوبه ومحبوب محبوبه ، بل يميز بين الكلب الذى هو فى سكة محبوبه وبين سائر الكلاب ، وانما سر آية الحب بقدر غلبة الحب ، ومن أحب لقاء الله لم يمكنه أن لا يحب عباده الصالحين المرضيين عنده الا أن ذلك قد يقوى حتى يحمل أن يسلك بهم مسلك نفسه بل يؤثرهم على نفســه ، وقد يقصر عن ذلك .

وفضلهم عنده ينقسم بقدر درجته وقوته ، وكذلك يبغض لا محالة من يعصيه ويخالف أمره ، ويظهر أثر ذلك فى مجانبته ومهاجرته له وتقطيبه الوجه عند مشاهدته ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبى » حذرا من أن يقدح ذلك فى البغض فى الله ، وبالجملة من لا يصادف من نفسه الحب فى الله ، والبغض فى الله بهذه الأسباب فهو ضعيف الايمان . وهذا له تفصيل وتحقيق . فاطلبه من كتاب الصحبة والأخوة فى الله تعالى .

الأصل التاسع فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

قال الله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » الآية . وقال تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » الآية . وقال تعالى « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته : أيها الناس انكم تقرؤون هذه الآية وتتأولونها على خلاف تأويلها « يأأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهديتم » ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل الا أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا أعمالهم أعمال الأنبياء » قالوا يا رسول الله كيف ذلك ، قال « لم يكونوا يغضبون الله عز وجل ، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » .

فصل

كل من شاهد منكرا ، ولم ينكره وسكت عنه فهو شريك فيه ، فالمستمع شريك فى المغتاب ، ويجرى هذا فى جميع المعاصى حتى فى مجالسة من يلبس الديباج ويختتم بالذهب ويجلس على الحرير . والجلوس فى الدار أو فى حمام على حيطانها صور أو فيها أوانى من

ذهب أو فضة أو الجلوس فى مسجد يسىء الناس الصلاة فيه فلا يتمون الركوع والسجود ، والجلوس فى مجلس وعظ يجرى فيه ذكر البدعة أو فى مجلس مناظرة أو مجادلة يجرى فيها الايذاء والايحاش بالسفه والشتم ، وبالجملة من خالط الناس كثرت معاصيه وان كان تقيا فى نفسه الا أن يترك المداهنة ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ويشتغل بالحسبة والمنع وانما يسقط عنه الوجوب بأمرين :

« أحدهما » أن يعلم أنه ان أنكر لم يلتفت اليه ولم يترك المنكر ونظر اليه بعين الاستهزاء ، وهذا هو الغالب فى منكرات ترتكبها الفقهاء ومن يزعم أنه من أهل الدين ، فههنا يجوز السكوت ، ولكن يستحب الزجر باللسان اظهارا لشعار الدين مهما لم يقدر على غير الزجر باللسان ، ويجب أن يفارق ذلك الموضع فليس يجوز مشاهدة المعصية بالاختيار ، فمن جلس فى مجلس الشرب فهو فاسق وان لم يشرب ، ومن جالس مغتابا أو لابس حرير أو آكل ربا أو حرام فهو فاسق فليقم من موضوعه .

« والثانى » أن يعلم أنه يقدر على المنع من المنكر بأن يرى زجاجة فيها خمر فيرميها فتنكسر ، أو يسلب آلة الملاهى من يده ويضربها على الأرض ، ولكن يعلم أنه يضرب أو يصاب بمكروه . فههنا يستحب الحسبة لقوله تعالى « وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك » ولا يجب الا أن يكون المكروه الذى يصيبه له درجات كثيرة يطول النظر فيها ذكرناها فى كتاب الأمر بالمعروف من الاحياء ، وعلى الجملة فلا يسقط الوجوب الا بمكروه فى بدنه بالضرب أو فى ماله بالاستهلاك أو فى جاهه بالاستخفاف به بوجه يقدح فى مروءته ، فاما لخوف استيحاش المنكر عليه ، وخوف تعرضه له باللسان ، وعداوته له أو توهم سعيه له فى المستقبل بما يسوؤه أو يحول بينه وبين زيادة خير يتوقعها ، فكل ذلك موهومات وأمور ضعيفة لا يسقط الوجوب بها .

فصـــل

عمدة الحسبة شيئان « أحدهما » الرفق واللطف والبداية بالوعظ على سبيل اللين لا على سبيل العنف والترفع والادلال بدالة الصــلاح فان ذلك يؤكد داعية المعصية ويحمل العاصى على المناكرة وعلى الايذاء . ثم اذا آذاه ولم يكن حسن الخلق غضب لنفسه وترك الانكار لله تعالى واشتغل بشفاء غليله منــه فيصير عاصيا بل ينبغى أن يــكون كارها للحسبة يود لو ترك المعصية بقــول غيره فانه اذا أحــب أن يكون هو المتعرض (١) كان ذلك لما فى نفسه من دالة الاحتساب وعزته . قال عليه السلام « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر الا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهى عنه فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه » .

ووعظ المأمون رحمة الله عليه واعظ بعنف ، فقال : يا رجل ارفق فقد بعث الله تعالى من هو خير منك الى من هو شر منى فأمره بالرفق . فقال الله تعالى « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . وروى أبو امامة الباهلى رضى الله عنه : أن غلاما شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أتأذن لى بالزنا . فصاح الناس به . فقال النبى عليه السلام « أقروه أقروه ادن منى » فدنا منه ، فقال عليه السلام « أتحبه لأمك » فقال : لا ، جعلنى الله فداك ، قال عليه السلام «كذلك الناس لا يحبونه لأماتهم» ثم قال « أتحبه لابنتك » قال لا ، قال «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم» حتى ذكر له الأخت والعمة والخالة ، ويقول عليه السلام «كذلك الناس لا يحبونه » ثم وضع يده على صدره ، وقال « اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فــرجه » . فلم يكن بعد ذلك شىء أبغض اليه من الزنا . وقال بعضهم للفضــيل ان سفيان بن عيينة قبــل جوائز الســلطان . فقال : ما أخذ منهم الا دون حقه . ثم خلا به وعاتبه بالرفق . فقال : يا أبا على ان لم نكن من الصالحين فانا نحب الصالحين .

---

(١) وفى النسخة النورية « المعترض » .

العمدة الثانية

أن يكون المحتسب قد بدأ بنفسه فهذبها وترك ما ينهى عنه أولا . قال الحسن البصرى : اذا كنت تأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به والا هلكت . فهذا هو الأولى حتى ينفع كلامه والا استهزىء به : وليس هذا شرطا بل يجوز الاحتساب للعاصى أيضا . قال أنس : قلنا يا رسول الله ألا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله . قال عليه السلام « بلى ، مروا بالمعروف وان لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وان لم تجتنبوه كله » ، وقال الحسن البصرى يريد أن لايظفر الشيطان منكم بهذه الخصلة ، وهو أن لا تأمروا بالمعروف حتى تأتوا به كله يعنى ان هذا يؤدى الى حسم باب الحسبة . فمن ذا الذى يعصم عن المعاصى .

الأصل العاشر فى اتباع السنة

اعلم أن مفتاح السعادة اتباع السنة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته حتى فى هيئة آكله وقيامه ونومه وكلامه . لست أقول ذلك فى آدابه فى العبادات فقط لأنه لا وجه لاهمال السنن الواردة فيها ، بل ذلك فى جميع أمور العادات . فبذلك يحصل الاتباع المطلق ، قال الله سبحانه « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ، وقال تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فعليك أن تلبس السراويل قاعدا وتتعمم قائما ، وتبدأ باليمين فى تنعلك ، وتأكل بيمينك ، وتقلم أظفارك ، وتبتدىء بمسبحة اليد اليمنى وتختم بابهامها ، وفى الرجل تبتدىء بخنصر اليمنى وتختتم بخنصر اليسرى . وكذلك جميع حركاتك وسكناتك . فقد كان محمد بن أسلم لا يأكل البطيخ لأنه لم ينقل اليه كيفية أكل رسول الله ﷺ له . وسهى بعضهم فابتدأ فى لبس الخف باليسرى . فكفر عن ذلك بكر حنطة . فلا ينبغى أن تتساهل فى أمثال ذلك فتقول هذا مما يتعلق بالعادات فلا معنى للاتباع فيه لأن ذلك يغلق عليك بابا عظيما من أبواب السعادة .

فصـــل

لعلك تشتهى الآن الوقوف على السبب المرغـب فى الاتباع فى هذه الأفعال وتستبعد أن يكون تحت ذلك أمر مهم يقتضى هذا التشديد العظيم فى المخالفة . فاعلم أن ذكر السر فى آحـاد تلك السنن طـويل لا يحتمل هذا الكتاب شرحه ، لكن ينبغى أن تفهم أن ذلك ينحصر فى ثلاثة أنواع من الأسرار « الأول » انا قد نبهناك فى مواضع على العلاقة التى بين الملك والملكوت ، وبين الجوارح والقلب ، وكيفية تأثر القلب بعمل الجوارح . فان القلب كالمرآة ولا تتجلى فيه حقائق الأشياء الا بتصقيله وتنويره وتعديله « أما تصقيله » فبازالة خبث الشهوات وكدورة الأخلاق الذميمة « وأما تنويره » فبأنوار الذكر والمعرفة ، ويعين على ذلك العبادة الخالصة اذا أديت على كمال الخدمة بمقتضى السنة « وأما تعديله » فبأن يجرى فى جميع حركات الجوارح على قانون العدل اذ اليد لا تصل الى القلب حتى تقصد بتعديله ، وتحدث فيه هيئة معتدلة صحيحة لا اعـوجاج فيها ، وانما التصرف فى القلب بواسطة تعديل الجوارح وتعديل حركاتها ، ولهذا كانت الدنيا مزرعة الآخـرة ، ولهذا تعظم حسرة من مات قبل التعديل لانسداد طريق التعديل بالموت اذ تنقطع علاقة القلب عن الجوارح ، فمهما كانت حركات الجوارح بل حركات الخواطر أيضا موزونة بميزان العدل حدث فى القلب هيئة عادلة مستوية تستعد لقبول الحقائق على نعت الصحة والاستقامة ، كما تستعد المرآة المعتدلة لمحاكاة الصور الصحيحة من غير اعوجاج .

« ومعنى العدل » وضع الأشياء مواضعها ، ومثاله أن الجهات مثلا أربع ، وقد خص منها جهـة القبلة بالتشريف فالعـدل أن تستقبلها فى أحوال الذكر والعبادة والوضوء ، وأن تنحرف عنها عند قضاء الحاجة وكشف العورة اظهارا لفضل ما ظهر فضله « ولليمين » زيادة على اليسار غالبا لفضـل القـوة . فالعدل أن تفضـلها على اليسـار وتسـتعملها فى بعض الأعمال الشريفة كأخذ المصـاحف والطعام ، وتترك اليسـار للاسـتنجاء وتنـاول القاذورات « وقلم الظفـر » مثلا تطهير لليـد

فهو اكرام فينبغي أن تبدأ بالأكرم والأفضل . وربما لا يستقل عقلك بالتفطن للترتيب فى ذلك وكيفية البداية . فاتبع فيه السنة وابتدىء بالمسبحة من اليمنى لأن اليد أفضل من الرجل ، واليمنى أفضل من اليسرى . والمسبحة التى بها الاشارة فى كلمة التوحيد أفضل من سائر الأصابع . ثم بعد ذلك تدور من يمين المسبحة . وللكف ظهر ووجه فوجهه ما تقابله . فاذا جعلت الكف وجه اليد كان يمين المسبحة من جانب الوسطى فقدر اليدين متقابلتين بوجهيهما ، وقدر الأصابع كأنها أشخاص فتدور بالمقراض من المسبحة الى أن تختم بابهام اليمنى . كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحكمة فى ذلك ما ذكرناه . فاذا أنت تعودت رعاية العدل فىدقائق الحركات صارت العدالة والصحةهيئة راسخة فى قلبك واستوت صورها . وبذلك تستعد لقبول صورة السعادة . ولذلك قال الله تعالى « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى » ، فروح الله عز وجل مفتاح أبواب السعادة ، ولم يكن نفخها الا بعد التسوية . ومعنى التسوية يرجع الى التعديل . وفىذلك سر طويل يطول شرحه ، وانما نريد الرمز الى أصله . فان كنت لا تقوى علىفهم حقيقته فالتجربة تنفعك . فانظر الى من تعود الصدق كيف يصدق رؤياه غالبا لأن الصدق حصل فى قلبه هيئة صادقة يتلقى لوائح الغيب فى النوم على الصحة . وانظر كيف يكذب رؤيا الكذاب بل رؤيا الشاعر لتعوده التخيلات الكاذبة . فاعوج لذلك صورة قلبه . فان كنت تريد أن تلسح جنات القدس فاترك ظاهر الاثم وباطنه ، واترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، واترك الكذب حتى فى حديث النفس أيضا . « السر الثانى » أن تعلم أن الأشياء المؤثرة فى بدنك بعضها انما يعقل تأثيرها بنوع من المناسبة الى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . كقولك ان العسل يضر المحرورين وينفع البارد مزاجه . ومنها ما لا يدرك بالقياس ويعبر عنه بالخواص ، وتلك الخواص لم يوقف عليها بالقياس بل مبدأ الوقوف عليها وحى أو الهام . فالمغناطيس يجذب الحديد ، والسقمونيا يجذب خلط الصفراء من أعماق العروق . لا على القياس بل بخاصية وقف عليها اما بالالهام أو بالتجربة .

وأكثر الخــواص عرفت بالالهــام ، وأكثر التأثيرات فى الأدوية وغيرها من قبل الخواص ، فلذلك « فاعلم » أن تأثيرات الأعمال فى القلب تنقسم الى ما يفهم وجه مناسبته . كعلمــك بأن اتباع الشهوة الدنيوية يؤكد علاقته مع هذا العالم فيخرج من العالم منكوس الرأس موليا وجهه الى هذا العالم اذ فيه محبوبه . وكعلمك ان المداومة على ذكر الله تعالى تؤكد الانس بالله تعالى ، وتوجب الحب حتى تعظم اللذة به عند فراق الدنيا والقدوم على الله سبحانه . اذ اللذة على قدر الحب ، والحب على قدر المعرفة والذكر .

« ومن الأعمال » ما يؤثر فى الاستعداد لسعادة الآخرة أو لشقاوتها بخاصية ليست على القياس لا يوقف عليها الا بنور النبوة فاذا رأيت النبى ﷺ قد عدل عن أحد المباحين الى الآخــر وآثره عليه مع قدرته عليهما « فاعلم » أنه اطلع بنور النبوة على خاصية فيه وكوشف به من عالم الملكوت ، كما قال صلى الله عليه وسلم «يأيها الناس ان الله أمرنى أن أعلمكم مما علمنى وأؤدبكم مما أدبنى فلا يكثرن أحدكم الكلام عند المجامعة فانه يكون منه خرس الولد ، ولا ينظرن أحدكم الى فرج امرأته اذا هو جامعها فانه يكون منه العمى . ولا يقبلن أحدكم امرأته اذا هو جامعها فانه يكون منه صمم الولد . ولا يديمن أحدكم النظر فى الماء فانه يكون منه ذهاب العقل » ، وهذا مثال مما ذكرناه وأردنا تنبيهك على اطلاعه على خواص الأشياء بالاضافة الى أمــور الدنيا لتقيس به اطلاعه صلى الله عليه وسلم على ما يؤثر بالخاصية فى السعادة والشقاوة فلا ترضى لنفسك أن تصدق محمد بن زكريا الرازى المتطبب فيما يذكره من خواص الأشياء فى الحجامة والأحجار والأدوية ، ولا تصدق سيد البشر محمد بن عبد الله الهاشمى المكى المدنى صلوات الله عليه وسلامه فيما يخبر به عنها ، وأنت تعلم أنه صلى الله عليه وسلم مكاشف من العالم الأعلى بجميع الأسرار ، وهذا ينبهــك على الاتباع فيما لا يفهــم وجه الحكمة فيه على ما ذكرناه فى السر الأول . « السر الثالث » أن سعادة الانسان أن يتشبه بالملائكة فى النــزوع عن الشهوات وكسر النفس الأمارة بالسوء ، ويبعد عن مشابهة البهيمة المهملة سدى التى تسترسل

فى اتباع الهوى بحسب ما يقتضيه طبعها من غير حاجز ، ومهما تعود الانسان فى جميع الأمور أن يفعل ما يشاء من غير حاجز ألف اتباع مراده وهواه ، وغلب على قلبه صفة البهيمة ، فمصلحته أن يكون فى جميع حركاته ملجما بلجام يصده عن طريق الى طريق كيلا تنسى نفسه العبوديه ولزوم الصراط المستقيم فيكون أثر العبودية ظاهرا عليه فى كل حركة ، اذ لا يفعل شيئا بحسب طبعه بل بحسب الأمر ، فلا ينفك فى جميع أحواله عن مصادمات الزمان بايثار بعض الأمور على بعض .

ومن ألقى زمامه الى يد كلب مثلا حتى لم يكن تصرفه وتردده بحكم طبعه بل بحكم غيره فنفسه أقوم الى قبول الرياضة الحقيقية وأقرب وأقوى ممن جعل زمامه فى يد هواه يسترسل بها استرسال البهيمة ، وتحت هذا سر عظيم فى تزكية النفس ، وهذه فائدة تحصل بوضع الشارع صلى الله عليه وسلم كيفما وضعه والفائدة الحكمية والخاصية لا يتغير بالوضع ، وهذا يتغير بالوضع ، فان المقصود أن لا يكون مخلى مع اختياره ، وذلك المقصود يحصل بالمنع عن أحد الجانبين أى جانب كان ، وفى مثل هذا يتصور أن تختلف الشرائع لأنه ثمرة الوضع ، فيكفيك هذه التنبيهات الثلاث على فضل ملازمة الاتباع فى جميع الحركات والسكنات .

فصل

هذا التحريض كله الذى ذكرته انما هو فى العادات « وأما فى العبادات » فلا أعرف لترك السنة من غير عذر وجها الا كفر خفى أو حمق جلى ، بيانه أن النبى صلى الله عليه وسلم اذا قال « تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ، فكيف تسمح نفس المؤمنين بتركها من غير عذر ، نعم يكون السبب فى ذلك اما حمق أو غفلة بأن لا يتفكر فى هذا التفاوت العظيم ، ومن يستحمق غيره اذا آثر واحدا على اثنين كيف لا يستحمق نفسه اذا آثر واحدا على سبع وعشرين ، لا سيما فيما هو عماد الدين ومفتاح السعادة الأبدية .

« وأما الكفر » فهو أن يخطر بباله أن هذا ليس كذلك ، وانما ذكره للترغيب فى الجماعة ، والا فأى مناسبة بين الجماعة وبين هذا العدد المخصوص من بين سائر الأعداد ، وهذا كفر خفى قد ينطوى عليه الصدر وصاحبه لا يشعر به ، فما أعظم حماقة من يصدق المنجم والطبيب فى أمور أبعد من ذلك ، ولا يصدق النبى المكاشف بأسرار الملكوت ، فان المنجم لو قال لك اذا انقضى سبعة وعشرون يوما من أول تحويل طالعك أصابتك نكبة فاحترز فى ذلك اليوم واجلس فى بيتك ، فلا تزال فى تلك المدة تستشعر وتترك جميع أشغالك ، ولو سألت المنجم عن سببه ، لقال لك انما قلت ذلك لأن بين درجة الطالع وموضع زحل سبعا وعشرين درجة فتتأخر النكبة فى كل درجة يوما أو شهرا ، فاذا قيل لك هذا هوس اذ لا مناسبة له فلا تصدقن به فلا يخلو قلبك عن الاستشعار ، وتقول فى أفعال الله تعالى عجائب لا تعرف مناسبتها ولعلها خواص لا تدرك ، وقد عرف بالتجربة أن ذلك مما يؤثر وان لم يعرف مناسبته ، ثم اذا آل الأمر الى خبر النبوة عن الغيب أنكرت مثل هذه الخواص وطلبت المناسبة الصريحة ، فهل لهذا سبب الا شرك خفى لا بل كفر جلى ، اذ لا محمل له سواه ، وسبب هذا التكاسل كله أنه لا يهمك أمر آخرتك ، فان أمر دنياك لما كان يهمك فتحتاط فيه بقول المنجم والطبيب وبالاختلاج والفال والأمور البعيدة عن المناسبة غاية البعد ، وتنقاد الى الاحتمالات البعيدة لأن الشفيق بسوء الظن مولع . ولو تفكرت لعلمت أن هذا الاحتياط بالخطر الأبدى أليق « فان قلت » ففى أى جنس من الأعمال ينبغى أن تتبع السنة .

« فأقول » فى كل ما وردت به السنة . والأخبار فى ذلك كثيرة . وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم « من احتجم يوم السبت والأربعاء فأصابه برص فلا يلومن الا نفسه » ، وقد احتجم بعض المحدثين يوم السبت ، وقال هذا الحديث ضعيف فبرص ، وعظم ذلك عليه حتى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فشكا اليه ذلك ، فقال لم احتجمت يوم السبت ، فقال : لأن الراوى كان ضعيفا ، قال : أليس كان قد نقل عنى فقال تبت يارسول الله ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالشفاء فأصبح وقد زال ما به ، وقال صلى الله عليه وسلم « من احتجم يوم الثلاثاء لسبعة عشر كان دواء السنة » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من نام بعد العصر فاختلس عقله فلا يلومن الا نفسه » ، وقال صلى الله عليه وسلم « اذا انقطع شسع نعل أحدكم فلا يمشى فى نعل واحد حتى يصلح شسعه » ، وقال صلى الله عليه وسلم «اذا ولدت امرأة فليكن أول ما تأكل الرطب فان لم يكن فتمر فانه لوكان شيء أفضل منه لأطعمه الله عز وجل مريم حين ولدت عيسى عليه السلام» ، وقال صلى الله عليه وسلم « اذا أتى أحدكم بالحلواء فليصب منه ، واذا أتى أحدكم بالطيب فليمس منه » . وأمثال ذلك فى العــادات كثيرة ، ولا يخلو شيء منها عن سر .

خاتمة ترتيب الأوراد

وتنعطف على الأصول العشرة

« اعلم » أن هذه العبادات التى فصلناها « منها » ما يمكن الجمع بينها كالصوم والصلاة والقراءة « ومنها » ما لا يمــكن الجمع بينها كالقراءة والذكر والقيام بحقوق الناس والصلاة ، فينبغى أن يكون من أهم أمورك توزيع أوقاتك على أصناف الخيرات من صباحك الى مسائك . ومن مسائك الى صباحك ، وتعلم أن مقصود العبادات تأكيد الأنس بذكر الله عز وجل للانابة الى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، ولن يسعد فى دار الخلود الا من قدم على الله سبحانه محبا له ، ولا يكون محبا له الا من كان عارفا به مكثرا لذكره ، ولا تحصل المعرفة والحب الا بالفكر والذكر الدائم ، ولن يدوم الذكر فى القلب الا بالمذكرات وهى العبادات المستغرقة للأوقات على التعاقب ، وباختــلاف أصنافها زيادة تأثير فى التذكير ومنع الملال وسقوط أثره عن القلب بالدوام الذى ينتهى الى حد الاعتياد ، نعم ان كنت والها بالله عز وجل مستغرقا به لم تفتقر الى ترتيب الأوراد ، بل وردك واحد وهو ملازمة الذكر ، وما أراك تكون كذلك فان ذلك من أعز الامور ، فان لم تكن والها مستهترا فعليك أن ترتب أورادك . فأحد الأوراد هو وقت انتباهك من النوم الى طلوع الشمس وينبغى أن تجمع فى هذا الوقت الشريف بعــد الفراغ من الصلاة بين

الذكر والدعاء والقراءة والتفكر فان لكل واحد أثرا آخر فى تنوير القلوب ، وتعرف كيفية ذلك وتفصيله من كتاب « بداية الهداية ، وكتاب ترتيب الأوراد » وكذلك تفعل بين الطلوع والزوال ، وبين الزوال والغروب ، وبين الغروب والعشاء فانها من أشرف الأوقات ، لأن النشاط انما يتوفر بأن تميز ورد كل وقت لتكون فى كل وقت عبادة أخرى تنتقل من بعضها الى بعض ، هذا ان كنت من العباد .

« فان كنت » معلما أو متعلما أو واليا فالاشتغال بذلك أولى فى بياض النهار ، وأفضل من العبادات البدنية لأن أصل الدين العلم الذى به يحصل التعظيم لأمر الله سبحانه والنفع الذى يصدر عن الشفقة على خلق الله تعالى ، وكذلك ان كنت معيلا محترفا فالقيام بحق العيال بكسب الحلال أفضل من العبادات البدنية ، ولكن فى جميع ذلك لا ينبغى أن تخلو وتنفك عن ذكر الله تعالى بل تكون كالمستهتر بمعشوقه المدفوع الى شغل من الأشغال لضرورة وقته ، فهو يعمل ببدنه وهو غائب عن عمله حاضر بقلبه مع معشوقه .

حكى عن أبى الحسن الجرجانى أنه كان يعمل بالمسحاة دائما ، وكان يقول أعطينا اليد واللسان والقلب ، فاليد للعمل ، واللسان للخلق، والقلب للحق . ولنقتصر على هذا القدر فى قسم الطاعات الظاهرة ، ففيه الكفاية ان شاء الله .

القسم الثالث فى تزكية القلب عن الأخلاق المذمومة

قال الله تعالى « قد أفلح من تزكى » ، وقال « قد أفلح من زكاها » ، والتزكية هى التطهير ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطهور شطر الايمان » فافهم منه أن كمال الايمان بتزكية القلب (١) عما لا يحبه

---

(١) نعم ما قال بعض شعراء الفرس فيما له مناسبة بهذا البحث

دردل همة شرك روى برخاك جه سود
يا جسم بليد وجامة باك جة سود
زهراست كناه توبة ترياق وى است
جون زهربجان رسيد ترياق جه جه سود =

الله عز وجل وتحليته بما يحبه الله فالتزكية شطر الايمان ، وكيف يشتغل بالطهارة من لا يعرف النجاسة ــ فلنذكر الأخلاق المذمومة ، وهي كثيرة ، ولكن نحتاج أن نرد شعبها الى عشرة أصول .

الأصل الاول
في شره الطعــام

وهو من الأمهات لأن المعدة ينبوع الشهوات اذ منها تتشعب شهوة الفرج . ثم اذا غلبت شهوة المأكول والمنكوح يتشعب منهــا شره المال اذ لا يتوصل الى قضاء الشهوتين الا به . ويتشعب من شهوة المال شهوة الجاه اذ يعسر كسب المــال دونه . ثم عند حصــول المــال والجــاه وطلبهما تزدحم الآفات كلها كالكبر والرياء والحسد والحقــد والعداوة وغيرها ، ومنبع جميع ذلك البطن ــ فلهذا عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الجوع ، فقال عليه السلام (ما من عمل أحب الى الله تعالى من الجوع والعطش) وقال (لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه) وقال عليه السلام (سيد الأعمال الجوع) وقال عليــه السلام (الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة) وقال عليــه السلام (أفضلكم عند الله تعــالى أطولكم جوعا وتفكرا وأبغضكم الى الله تعالى كل أكول شروب نؤوم) وقال عليه الســلام (ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنــه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لا محــالة فثلث لطعــامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) وقال عليه السلام (ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشــيطان بالجوع والعطش) وقال عليــه

= وهذه ترجمة البيتين :

ما الفائدة في وضع الوجه والجبهة على التراب ، والقلب ممتلىء بالشرك ، وما الفائدة من نظافة الألبسة مادام الجسم وسخا ، الذنب كالسم والتوبة ترياقه ، وحينما يصل السم الى القلب ماذا ينفع الترياق ، ومثله قول الشاعر العربى :

لا يغــرنك ثــوب نقيت فهى بالصابون والماء نظيفة
تشبه البيضــة لما فســدت قشرها أبيض والباطن جيفة

السلام لعائشة رضى الله عنها (أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم) قالت كيف نديم قال عليه السلام (بالجوع والظمأ) وقال عليه السلام « كلوا واشربوا فى أنصاف البطون فانه جزء من النبوة » .

فصــــل

لعلك تشتهى أن تعلم السر فى تعظيم الجوع ومناسبته لطريق الآخرة « فاعلم » أن له فوائد كثيرة ولكن يرجع أصولها الى سبع :

« أحداها » صفاء القلب ونفاذ البصيرة فان الشبع يورث البـلادة ويعمى القلب . قال صلى الله عليه وسلم (من أجاع بطنــه عظمت فكرته وفطن قلبه ولا يخفى أن مفتاح السعادة المعرفة ولا تنال الا بصفاء القلب فلذلك كان الجوع قرع باب الجنة .

« الثانية » رقة القلب حتى يدرك به لذة المنـاجاة ويتـأثر بالذكر والعبادة . وقال الجنيد : يجعل أحدكم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام ويريد أن يجـد حلاوة المناجاة ، ولا يخفى عليك أن أحوال القلب من الخشية والخوف والرقة والمناجاة والانكسار بالهيبة من مفاتيح أبواب الجنة وان كان باب المعرفة فوقه والجوع فرع لهذا الباب .

« الثالثة » ذل النفس وزوال البطر والطغيان منها فلا تكسر النفس بشىء كالجوع والطغيان داع الى الغفلة عن الله تعالى وهو باب الجحيم والشقاوة ــ والجوع اغلاق لهذا الباب . وفى اغلاق باب الشقاوة فتح باب السعادة ـــ ولذلك لما عرضت الدنيا عليه صلى الله عليه وسلم قال (لا بل أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت صبرت وتضرعت . واذا شبعت شكرت) « الرابعة » أن البلاء من أبواب الجنة لأن فيه مشاهدة طعم العذاب وبه يعظم الخوف من عذاب الآخرة . و لا يقدر الانسان على أن يعذب نفسه بشىء كالجوع فانه لا يحتاج فيه الى تكلف . وترتبط بها فوائد أخرى فيكون مشاهداً بلاء الله تعالى على الدوام .

« الخامسة » وهى من كبـار الفوائد ، كسر شـهوات المعـاصى والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء وكسر سـائر الشهوات التى هى

منابع المعاصى . قال على رضى الله عنه « ما شبعت قط الا عصيت أو هممت بالمعصية » وقالت عائشة رضى الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع أن القوم اذا شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم الى الدنيا .

« السادسة » خفة البدن للتهجد والعبادة وزوال النوم المانع من العبادة . فان رأس مال السعادة العمر . والنوم ينقص العمر اذ يمنع من العبادة . وأصله كثرة الأكل . قال أبو سليمان الدارانى من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة العبادة . وتعذر حفظ الحكمة . وحرمان الشفقة على الخلق لأنه اذا شبع ظن الخلق كلهم شباعا . وزيادة الشهوات . وان سائر المؤمنين يدورون حول المساجد وهو يدور حول المزابل .

« السابعة » خفة المؤنة وامكان القناعة بقليل من الدنيا وامكان ايثار الفقر فان من تخلص من شره بطنه لم يفتقر الى مال كثير فيسقط عنه أكثر هموم الدنيا فمهما أراد أن يستقرض لقضاء شهوة البطن استقرض من نفسه وترك شهوته . كان اذا قيل لابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه فى شىء أنه غال قال أرخصوه بالترك .

فصل

لعلك تقول قد صار الشبع والاكثار فى الأكل عادة فكيف أتركها « فاعلم » أن ذلك يسهل على من أراده بالتدريج وهو أن ينقص كل يوم من طعامه لقمة حتى ينقص رغيفا فى مقدار شهر فلا يظهر أثره ويصير التقليل عادته ، ثم اذا أذعنت بالقليل فلك النظر فى الوقت والقدر والجنس . « أما القدر فله ثلاث درجات « أعلاها » وهى درجة الصديقين الاقتصار على قدر القوام وهو الذى يخاف النقصان منه على العقل أو الحياة ، وهو اختيار سهل التسترى ، وكان يرى أن الصلاة قاعدا لضعفه بالجوع أفضل من الصلاة قائما مع قوة الأكل «الثانية» أن تقنع بنصف مد كل يوم وهو ثلث البطن وعلى ذلك كان فعل عمر رضى الله عنه وجماعة من الصحابة اذ كان قوتهم فى الأسبوع صاعا من شعير «الثالثة» المد الواحد وما جاوز ذلك فهو مشاركة مع أهل العادة وميل عن طريق السالكين

المسافرون الى الله تعالى . وقد يؤثر فى المقادير اختلاف الأحوال والأشخاص ، وعند ذلك فالأصل فيه أن يمد اليد اذا صدق جوعه ويكف وهو بعد صادق الاشتهاء ، وعلامة صدق الجوع أن تشتهى أى خبز كان من غير أدم فاذا استثقل الأكل بغير أدم فهو علامة الشبع .

« وأما الوقت » ففيه أيضا ثلاث درجات « أعلاها » أن ينطوى ثلاثة أيام فما فوقهما ، فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام . وابراهيم بن أدهم والثورى سبعا ، وبعضهم انتهى الى أربعين يوما ، وقيل من طوى أربعين يوما ظهرت له لا محالة أشياء من عجائب الملكوت ، ولا يمكن ذلك الا بالتدريج « وأما الأوسط » بأن يطوى يومين « والأدنى » بأن يأكل فى اليوم مرة واحدة فمن أكل مرتين لم تكن له حالة جوع أصلا فيكون قد ترك فضيلة الجوع .

« وأما الجنس » فأعلاه خبز البر مع الأدام ، وأدناه خبز الشعير بلا أدام والمداومة على الأدام مكروه جدا ، قال عمر رضى الله عنه لولده « كل مرة خبزاً ولحما ومرة خبزاً وسمناً ومرة خبزاً ولبناً ومرة خبزاً وملحاً ومرة خبزاً قفارا » فهذا تنبيه على الأحسن فى أهل العادة .

« وأما السالكون الطريق » فقد بالغوا فى ترك الأدوام بل فى ترك الشهوات جملة حتى كان بعضهم يشتهى الشهوة عشر سنين وعشرين سنة وهو يخالف نفسه ويمنعها شهواتها . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم) . وانما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون فى الكلام ، وقد شرحنا طريق السلف فى ترك الشهوات فى كتاب كسر الشهوتين .

الأصل الثانى
فى شره الكلام

وذلك لابد من قطعه فان الجوارح كلها تؤثر أعمالها فى القلب ولكن اللسان أخص به لأنه يؤدى عن القلب ما فيه من الصور فيقتضى كل كلمة صورة فى القلب محاكية لها فلذلك اذا كان كاذباً حصل فى القلب صورة كاذبة وأعوج به وجه القلب واذا كان فى شىء من الفضول مستغنى عنه

اسود به وجه القلب ، وأظلم حتى تنتهى كثرة الكلام الى اماتة القلب ، ولذلك عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر اللسان فقال (من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليــه أتوكل له بالجنة) وسـئل عن أكثر ما يدخل النار ، فقال عليه السلام (الاجوفان الفم والفرج) وقال عليه السلام (وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم) وقال (من صمت نجا) وقال له معاذ أى الأعمال أفضل فأخرج لسانه ووضع عليه يده . وقال (ان أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه) ، وقال عليه السلام (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) وقال عليه السلام (من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به) ، ولهذا كان الصديق رضى الله عنه يضع حجراً فى فيــه ليمنع نفسه من الكلام .

فصـــل

اعلم أن للسان عشرين آفة شرحناها « كتــاب آفات اللسان » ويطول ذكرها ، ويكفيك العمل بآية واحدة قال الله تعالى : « لاخير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف » الآية . ومعناه أن لاتتكلم فيما لايعنيك وتقتصر على المهم ففيــه النجاة ، قال أنس رضى الله عنــه استشهد غلام منا يوم أحد فوجد على بطنــه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئا لك الجنة يابنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لايعنيه ويمنع ما لا يضره) وحد ما لا يعنى هو الذى لو ترك لم يفت به ثواب ولم تنتجز به ضرورة ومن اقتصر من الكلام على هذا قل كلامه ، فليحاسب العبد نفسه عند ذكره ما لا يعنيه أنه لو ذكر الله تعالى بدلا عن تلك الكلمة لكان ذلك كنزا من كنوز السعادة فكيف يسمح العقل بترك كنز مكنوز وأخذ مدرة هذا لو لم يكن فيه اثم ، فان كان اثم فقد اسـتبدل بترك كل كنز وأخذ شعلة من النار . ومن جملة ما لايعنى حكاية الأسفار وأحوال أطعمة البلاد وعاداتهم وأحوال الناس وأحوال الصناعات والتجارات وهو من جملة ما ترى الناس يخوضون فيه .

فصـــل

لعلك تريد أن تعرف تفصيل بعض هذه الآفات «فاعلم» أن الغالب على الألسنة من جملة العشرين آفة خمســة « الكذب والغيبة والمماراة والمدح والمزاح » — « الأولى » الكذب وقد قال ﷺ (لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) وقال صلى الله عليــه وسلم (ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك منه الناس ويل له ويل له) وقيل يا رسول الله أيزنى المؤمن أيسرق المؤمن . قال عليــه السلام (قد يكون ذلك) فقيل له أيكذب . فقـال (لا انما يفترى الـكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) وقال عليــه السلام (ألا أنبئكم بأكبر الـكبائر الاشراك بالله وعقـوق الوالدين وكان متكئا فقعد وقال عليه الســلام ألا وقول الزور) وقال عليه الســلام (كل خصلة يطبع الله عليها المؤمن الا الخيانة والكذب) .

فصـــل

اعلم أن الـكذب حرام فى كل شيء الا لضرورة حتى قالت امرأة لولدها الصغير تعال حتى أعطيك . فقال النبىصلى الله عليه وسلم (وماذا كنت تعطيه لو جاء) قالت تمرة . قال (أما لو لم تفعلى كتبت عليك كذبة) فليحذر الانسان الكذب حتى فى التخيل وحديث النفس . فان ذلك يثبت فى النفس صورة معوجة حتى تكذب الرؤيا فلا تنكشف فى النوم أسرار الملكوت والتجربة تشهد بذلك . نعم انما يرخص فى الـكذب اذا كان الصدق يفضى الىمحذور آخر أشد من الكذب فيباح كما تباح الميتة اذا أدى تركها الى محـذور أشـد من أكلهـا وهو فوات الروح ، قالت أم كلثوم رضى الله عنها ما رخص رسول الله ﷺ فى شيء من الكذب الا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد الاصلاح . والرجل يقول القول فى الحرب . والرجل يحدث امرأته . وهذا لأن أسرار الحرب لو وقف عليها العدو اجترأ . وأسرار الزوج لو وقفت عليها المرأة نشأ منها فساد أعظم

من فساد الكذب ، وكذلك المتخاصمان تدوم بينهما المعصية والعداوة فاذا أمكن الاصلاح بكذب فذلك أولى . فهذا ما ورد فيه الخبر وما فى معناه كذب الانسان ليستر مال غيره عن ظالم أو انكاره لسر غيره بل انكاره لمعصية نفسه عن غيره فان المجاهرة بالفسق واظهاره حرام وكذلك انكاره لمعصية نفسه على غيره لتطييب قلبه وكذلك انكاره مع زوجته أن تكون ضرتها أحب اليه وكل ذلك يرجع الى دفع المضر . ولا يباح لجلب زيادة مال وجاه وفيه يكون كذب أكثر الناس . ثم اذا اضطر الى الكذب فليعدل الى المعاريض ما أمكن حتى لا يعتاد نفسه الكذب .

كان ابراهيم بن أدهم اذا طلب فى الدار قال لخادمته قولى له اطلبه فى المسجد . وكان الشعبى يخط دائرة ويقول لخادمته ضعى الأصبع فيها . وقولى ليس ههنا . وكان بعضهم يعتذر عند الأمير ويقول منذ فارقتك ما رفعت جنبى من الأرض الا ماشاء الله تعالى . وكان بعضهم ينكر ما قال فيقول ان الله ليعلم ما قلت من ذلك من شىء فيوهم النفى بحرف « ما » وهو يريد غير ذلك . وتباح المعاريض لغرض خفيف لقوله ﷺ (لا يدخل الجنة عجوز ونحملك على ولد البعير وفى عينى زوجك بياض) لأن هذه الكلمات أوهمت خلاف ما أراد . فيباح مثل ذلك مع النساء والصبيان لتطييب قلوبهم بالمزاح — وكذلك من يمتنع عن أكل الطعام فلا ينبغى أن يكذب ويقول لا أشتهى اذا كان يشتهى بل يعدل الى المعاريض . قال النبى عليه السلام لامرأة قالت ذلك (لاتجمعى كذباً وجوعاً) .

الآفة الثانية الغيبة

قال الله تعالى « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه »

وقال عليه السلام «الغيبة أشد من الزنا» وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام « من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة . ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار » ، وقال ﷺ (مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم فقيل لى هؤلاء الذين كانوا يغتابون الناس) .

« واعلم » ان حد الغيبة كما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه وان كنت صادقاً سواء ذكرت نقصاناً فى نفسه أو عقله أو ثوبه أو فعله أو قوله أو داره أو نسبه أو دابته أو شيئا مما يتعلق به حتى قولك انه واسع الكم أو طويل الذيل . حتى ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقيل ما أعجزه فقال عليه السلام (اغتبتموه) وأشارت عائشة رضى الله عنها بيدها الى امرأة أنها قصيرة . فقال عليه السلام اغتبتيها . فبهذا يعلم أن الغيبة لا تقتصر على اللسان بل لا فرق بين أن يحصل التفهيم باليد أو بالرمز أو بالاشارة أو بالحركة أو بالمحاكاة أو التعريض المفهم كقولك ان بعض أقربائنا وبعض أصدقائنا كذا وكذا .

« واعلم » ان أخبث أنواع الغيبة غيبة القراء . يقولون مثلا الحمد لله الذى لم يبتلينا بالدخول على السلطان لطلب الدنيا أو نعوذ بالله من قلة الحياء وهم يفهمون المقصود بذلك . يقولون ما أحسن أحوال فلان لولا أنه بلى بمثل ما ابتلىبه أمثالنا وهو قلة الصبر عنالدنيا فنسأل الله تعالى أن يعافينا . وغرضهم بذلك الغيبة فيجمعون بين الغيبة والرياء واظهار التشبه بأهل الصلاح فى الحذر من الغيبة . وهذه خبائث يفترون بها وهم يظنون أنهم تركوا الغيبة — وكذلك قد يغتاب واحد فيغفل عنه الحاضرون فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى ينتبه القوم الى الأصغاء فيستعمل ذكر الله فى تحقيق خبثه ويقول قلبى مشغول بفلان تاب الله علينا وعليه وليس غرضه الدعاء بل التعريف ولو قصد الدعاء لأخفاه ولو اغتم قلبه لأجله لكتم عيبه ومعصيته — وكذلك المستمع قد يظهر تعجبا من كلام المغتاب حتى يزيد نشاطه فى الغيبة . والمستمع أحد المغتابين ، كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف اذا حرك نشاطه بالتعجب . وكذلك قد يقول دع غيبة فلان وهو بقلبه غير كاره لغيبته انما غرضه أن يعرف بالتورع — وذلك لايخرجه عن اثم الغيبة ما لم يكرهها بقلبه ، ويورطه فى اثم الرياء بل يخرج من الاثم بأن يكرهه قلبه ويكذب المغتاب ولا يصدقه عليه لأنه فاسق يستحق التكذيب والمسلم المذكور بالغيبة يستحق احسان الظن به . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم

من المسلمين دمه وعرضه وماله وان يظن به ظن السوء) فالغيبة بالقلب حرام كما أنه باللســان حرام الا أن يضطر الى معرفتــه بحيث لا يمكنه التجاهل .

فصـــل

انما يرخص فى الغيبة فى ستة مواضع « الأول منها » المتظلم يذكر ظلم الظالم عند سلطان ليدفع ظلمه فأما عند غيرسلطان وعند غير من يقدر على الدفع فلا . اغتيت الحجاج عند بعض السلف ، فقال ان الله لينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه « الثانى » الذى يستعان به على تغيير المنكر يجوز أن يذكر له أيضا « الثالث » المستفتى اذا افتقر الى ذكر السؤال كما قالت هند للقاضى ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى ـــ وهـــذا كله شكاية ولكن انما يحل اذا كانت فيهـــا فائدة « الرابع » تحـــذير المسلم من شر الغـــير اذا علم أنه لو لم يذكره لقبلت شهادته كما يذكر المزكى اذ يعامل ويناكح فيتضرر به فيـــذكر لمن يتوقع ضرره به فقط « الخامس » أن يكون معروفا باسم فيه عيبه كالأعمش والأعرج فالعدول الى اسم آخر أولى « السادس » أن يكون مجاهرا بذلك العيب لا يكرهه أن يذكر كالمخنث وصاحب الماخور (١) قال الحسن ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى والفاسق المعلن بالفسق والامام الجائر ، وهؤلاء يجمعهم أنهم مجـــاهرون لايكرهون الذكر ، والصحيح أن ذكر الفاسق بمعصية يخفيها ويكره ذكرها لايجوز من غير عذر .

فصـــل

علاج النفس فى كفها عن الغيبة أن يتفكر فى الوعيد الوارد فيها فى قوله صلى الله عليه وسلم « ان الغيبة أسرع فى حسنات العبد من النـــار فى اليبس » وورد أن حسنات المغتـــاب تنقل الى ديوان المظلوم بالغيبة فينظر فى قلة حسناته وكثرة غيبته وانه ينتهى الى افلاســـه على القرب ثم يتفكر فى عيوب نفسه فان كان فيه عيب فيشتغل بنفسه عن غيره وان كان

---

(١) الماخور الموضع الذى يباع فيه الخمر .

قد ارتكب صغيرة فيعلم أن ضرره من صغيرة نفسه أكثر من ضرره من كبيرة غيره وان لم يكن فيه عيب فيعلم أن جهله بعيوب نفسه أعظم عيب ، ومتى يخلو الانسان من عيب ثم ان خلا عنه فليشكر الله تعالى بدلا من الغيبة فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب فليحذر منه ، ثم مهما سبق لسانه الى الغيبة فينبغى أن يستغفر الله تعالى ويذهب الى المغتاب ويقول ظلمتك فاعف عنى فيستحله فان لم يصادقه فليكثر من الثناء عليه ومن الدعاء له ومن الحسنات حتى اذا نقل بعضها الى ديوان المظلوم بقى له ما يكفيه فهى كفارة الغيبة .

الآفة الثالثة المراء والمجادلة

قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ومن تركه وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة » وهذا لأن الترك على المحق أشد ، وقال عليه السلام « لا يستكمل العبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وهو محق » . « وحد المراء » هو الاعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه اما فى اللفظ واما فى المعنى ، والباعث عليه تارة الترفع باظهار الفضل ، وسببه خبث الرعونة ، وأما السبعية التى فى الطبع المتشوفة الى تنقيص الغير وقهره فالمراء والمجادلة تقوية لهذين الخبيثين المهلكين بل الواجب أن يصدق ما سمعه من الحق ويسكت عما سمعه من الخطأ الا اذا كان فى ذكره فائدة دينية وكان يسمع منه فيذكره برفق لا بعنف .

الآفة الرابعة المزاح

الافراط فيه يكثر الضحك ويميت القلب ويورث الضغينة ويسقط المهابة والوقار ، قال ﷺ « ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه فيهوى بها أبعد من الثريا » وقال عليه السلام « لا تمار أخاك ولا تمازحه » .

« واعلم » أن اليسير منه فى بعض الأوقات لا بأس به لاسيما مع النساء والصبيان تطييبا لقلوبهم نقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم لكنه قال « انى لأمزح ولا أقول الا حقا » ويعسر على غيره ضبط ذلك وقد روى أنه سابق عائشة رضى الله عنها بالعدو ، وقال عليه السلام لعجوز « لا يدخل الجنة عجوز » أى لا يبقى عجوزا فى الجنة (١) وقال لصبى يا أبا عمير ما فعل النغير ، والنغير ولد العصفور كان يلعب به الصبى . وقال ﷺ لصهيب وهو يأكل التمر « أتأكل التمر وأنت رمد » وقال انما آكل بالشق الآخر فتبسم رسول الله ﷺ . فهذا وأمثاله من المفاكهة لابأس بها بشرط أن لايتخذها عادة .

الآفة الخامسة المدح

كما جرت به عادة الناس عند المحتشمين (٢) من أبناء الدنيا وكما جرت به عادة القصاص والمذكرين . فانهم يمدحون من يحضر مجالسهم من الأغنياء . وفى المدح ست آفات « أربع » على المادح « واثنتان » على الممدوح . أما المادح « فالآفة الأولى فيه » أنه قد يفرط فيه فيذكره بما ليس فيه فيكون كذاباً « الثانية » أنه قد يظهر له من الحب ما لايعتقده فيكون منافقا مرائيا « الثالثة » أنه يقول ما لايتحققه فيكون مجازفا كقوله انه عدل وانه ورع وغير ذلك مما لايتحقق فيه .

مدح رجل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا . فقال عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك ان كان لابد من كون أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب فلاناً ولا أزكى على الله أحداً حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك » « الرابعة » أن يفرح الممدوح به وربما كان ظالما فيعصى بادخال السرور على قلبه . وقال ﷺ « ان الله ليغضب اذا مدح الفاسق » وقال الحسن من دعا لفاسق بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله . فالظالم الفاسق ينبغى أن يذم لتفتر رغبته فى الظلم والفسق .

« وأما الممدوح » فاحدى الآفتين فيه أن يحدث فيه كبراً أو اعجاباً وهما مهلكان — ولذلك قال قطعت عنق صاحبك « الثانية » أن يفرح به

---

(١) وفى النسخة العراقية« لا يدخل الجنة عجوز » أى لا يبقى فى الجنة عجوز .

(٢) أى الأكابر والسلاطين .

فيفتر عن العمل ويرضى عن نفسه . قال صلى الله عليه وسلم « لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه » وأما اذا سلم المدح من هذه الآفات فى المادح والممدوح فلا بأس به وربما يندب اليه : قال ﷺ «لو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالمين لرجح » وقال ﷺ « لو لم أبعث لبعثت ياعمر » وقد أثنى على كثير من الصحابة اذ علم أن ذلك يزيد فى نشاطهم ولا يورثهم عجبا .

فصل

حق على الممدوح أن يتأمل فى خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال . ويتذكر ما يعرفه من نفسه من القبائح الباطنة لاسيما فى أفكاره وحديث نفسه ما لو عرفه المادح لكف عن المدح . وينبغى أن يظهر كراهة المدح ويكره بالقلب . واليه الاشارة بقوله ﷺ « احثوا التراب فى وجوه المداحين » وقال بعضهم لما أثنى عليه اللهم ان عبدك هذا تقرب الى بمقتك وأنا أشهدك على مقته . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه « اغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى خيرا مما يظنون » .

الأصل الثالث فى الغضب

اعلم أن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة . ومن غلب عليه فقد نزع الى عرق الشيطان مخلوق من النار . وكسر شدة الغضب من المهمات فى الدين . قال صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » وقال عليه السلام « الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل » وقال عليه السلام « ماغضب أحد قط الا أشفى على جهنم » وقال رجل يارسول الله أى شىء أشد ، قال غضب الله ، قال فما ينقذنى من غضب الله . قال « أن لاتغضب » وقال رجل لرسول الله ﷺ مرنى بعمل وأقلل ، فقال عليه الصلاة والسلام « لاتغضب » فأعاد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارا وهو يقول « لاتغضب » . فكيف لا تعظم آفة الغضب

وهو يحمل فى الظاهر على الضرب والشتم واطالة اللسان . وفى الباطن على الحقد والحسد واظهار السوء والشماتة والعزم على افشاء السر وهتك الستر والفرح بمصيبة المغضوب عليه والغم بمسرته . وكل واحد من هذه الخبائث مهلك .

فصل

عليك فى صفة الغضب وظيفتان « احداهما » كسره بالرياضة ولست أعنى بكسره اماطته فانه لايزول أصله ولا ينبغى أن يزول بل ان زال وجب تحصيله لأنه آلة القتال مع الكفار والمنع من المنكرات وكثير من الخيرات وهو ككلب الصائد انما رياضته فى تأديبه حتى ينقاد للعقل والشرع فيهيج باشارة العقل والشرع ويسكن باشارتهما ولا يخالفهما كما ينقاد الكلب للصياد ــ وهذا ممكن بالمجاهدة وهو اعتياد الحلم والاحتمال مع التعرض للمغضبات « الثانية » ضبط الغضب عند الهيجان بالكظم ، ويعين عليه علم وعمل « أما العلم » فهو أن يعلم أنه لاسبب لغضبه الا أنه أنكر أن يجرى الشىء على مراد الله لا على مراده ، وهذا غاية الجهل ، والآخر أن يعلم أن غضب الله عليه أعظم من غضبه وأن فضل الله أكبر ، وكم عصاه وخالف أمره فلم يغضب عليه وان خالفه غيره فليس أمره عليه ألزم على عبده وأهله ورفقته من أمر الله عليه « وأما العمل » فهو أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اذ يعلم أن ذلك من الشيطان فان لم يسكن جلس ان كان قائما ويضطجع ان كان قاعدا كذلك ورد الخبر باختلاف الحال أنه يؤثر فى التسكين ، وان لم يسكن فيتوضأ ، قال عليه الصلاة والسلام « ان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ » وقال عليه السلام « ألا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ألا ترون الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئا فليضرب خده بالأرض » وهذه اشارة الى تمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع لينكسر الكبر فانه السبب الأعظم فى الغضب ليعلم أنه عبد ذليل فلا يليق به الكبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الرجل ليدرك بالحلم درجة القائم الصائم وانه ليكتب جباراً وما يملك

الا أهل بيته » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله تعالى قلبه يوم القيامة أمنا وايمانا » وقال عليه السلام « ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ يكظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله جوفه ايمانا » .

الاصل الرابع فى الحسد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقال عليه السلام « ثلاث لاينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد » وسأحدثكم بالمخرج من ذلك اذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض واذا حسدت فلا تبغ ، وقال عليه السلام « دب اليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء » ، والبغضة هى الحالقة ، وقال زكريا عليه السلام قال الله تعالى الحاسد عدو لنعمتى مسخط لقضائى غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى .

« واعلم » أن الحسد حرام وهو أن تحب زوال النعمة من غيرك أو تحب نزول مصيبة به ، ولا تحرم المنافسة وهم أن تغبطه وتشتهى لنفسك مثله ولا تحب زوالها منه ، ويجوز أن تحب زوال النعمة ممن يستعين بها على الظلم والمعصية لأنك لاتريد زوال النعمة وانما تريد زوال الظلم ، وعلامته أنه لو ترك الظلم والمعصية لم تحب زوال نعمته . وسبب الحسد اما الكبر واما العداوة واما خبث النفس اذ يبخل بنعمة الله على عباده من غير غرض فيه له .

فصل

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلب ، ومرض القلب لايداوى الا بمعجون العلم والعمل « فأما العلاج العلمى » فهو أن يعلم أن حسده يضره و لايضر محسوده بل ينفعه ، أما أنه يضره فهو أنه يبطل حسناته ويعرضه لسخط الله تعالى اذ يسخط قضاء الله ويشح بنعمته التى وسعها من خزائنه على عباده وهذا ضرر فى دينه «وأما ضرره فى دنياه» فهو أنه لايزال فى غم دائم وكمد لازم وذلك مراد عدوه منه فان أهم أغراض عدوه

وأكمل النعمة عليه حزن حاسده . فقد كان يريد المحنة لعدوه فحصلت له .
والحسود لايخلو قط من الغم والمحنــة اذ لايزال أعداؤه أو واحد منهم في نعمة .

« وأما أنه » ينفع عدوه ولا يضره لأن النعمة لا تزول بحسده وأنه يضاعف حسناته اذ تنقل حسنات الحاسد اليه ، لاسيما اذا طول اللسان فيه فانه مظلوم من الحاسد فقد طلب الحاسد زوال نعمة الدنيا منه فأضاف اليه نعمة الآخرة وحصل لنفسه مع عذاب الدنيا عذاب الآخرة فهو كمن رمى عدوه بحجر فلم يصب عدوه وعاد الى عينه فأعماها . وزادت عليـه شماتة عدوه ابليس فانه فاتته النعمة وفاته الرضا بالقضاء ، ولو رضى به لكان فيه ثواب لاسيما اذا حسد على العلم والورع فان محب العالم يعظم ثوابه « وأما العلاج العملى » فهو أن يعرف حكم الحسد وما يتقـاضاه من قول وفعل فيخالفه ويعمل نقيضه فيثنى على المحسود ويظهر الفرح بنعمته ويتواضع له وبذلك يعود المحسود صـديقا له ويزايله الحســد ويتخلص عن اثمه وأمله قال الله تعالى « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

فصـــل

لعل نفسك لا تطاوعك على التسوية بين عدوك وصديقك بل تكره مساءة الصديق دون العدو ، وتحب نعمة الصديق دون العــدو ولست مكلفــاً بما لا تطيق فان لم تقــدر على ذلك فتخلص من الاثم بأمرين « أحدهما » أن لاتظهر الحسد بلسانك وجوارحك وأعمالك الاختيارية بل تخالف موجبها « والثانى » أن تكره من نفسك حبها زوال نعمة الله تعالى عن عبد من عباده فاذا اقترنت الكراهة عن باعث الدين بحب زوال النعمة الذى اقتضاه الطبع اندفع عنك الاثم وليس عليك تغيير الطبع فان ذلك لاتقــدر عليه فى أكثر الأحوال . وعلامة الكراهية أن تكون بحيث لو قدرت على ازالة نعمته لم تقــدم على الازالة مع حبك لها ولو قدرت على معونته فى دوام نعمته أو فى زيادتها فعلت مع كراهيتك لذلك . فاذا كنت كذلك فلا اثم عليك فيما يتقاضاه طبعك فان الطبع انما يصيره مقهوراً

فى حق المستهتر بالله الذى انقطع نظره عن الدنيا وعن الخلق ، بل علم أن المنعم عليه ان كان فى النار فما تنفع هـذه النعمة وان كان فى الجنة فأى نسبة لهذه النعمة الى الجنة بل يرى كل الخلق عبـاد الله تعالى فيحبهم لأنهم عباد لمحبوبه ويحب أن يظهر أثر نعمة محبوبه على عباده . وهـذه حالة نادرة لا تدخل تحت التكليف .

الأصل الخـامس
فى البخل وحب المال

واعلم أن البخل من المهلكات العظيمة قال الله تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وقال الله تعالى « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » الآية ، وقال الله تعالى « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » الآية ، وقال صلى الله عليه وسـلم : « اياكم والبخل فانه أهلك من كان قبلكم » وقال صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج الجنة الا سخى ، والبخل شجرة تنبت فى النار فلا يلج النار الا بخيل » وقال عليه السلام « ثلاث مهلـكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » وقال عليه السـلام « شر ما فى الرجل شح هالع وجبن خالع (١) » وقال عليه السلام « ان الله يمقت البخيل فى حياته ويحب السخى عند موته » وقال عليه السلام « السخى الجهول أحب الى الله من العابد البخيل » . وقال عليه السلام « لا يجتمع اثنـان فى مؤمن البخل وسوء الخلق » .

فصـــل

اعلم أن أصل البخل حب المال وهو مذموم ومن لا مال له لا يظهر بخله بالامساك ولكن يظهر بحب المال . ورب رجل سخى لكنه يحب المال فيسخى به ليذكر بالسخاء وذلك أيضـا مذموم لأن حب المال يلهى عن ذكر الله عز وجل ويصرف وجه القلب الى الدنيا ويحكم علاقته فيها حتى

---

(١) هلع هلعا ــ من باب تعب ــ أى جزع ، وقوله « خالع » . الخلع نزع الشىء وأخرجه .

يثقل عليه الموت الذى فيه لقاء الله تعالى ، قال الله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » وقال تعالى « انما أموالكم وأولادكم فتنة » وقال تعالى « ألهاكم التكاثر » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » وقيل للنبى عليه الصلاة والسلام : أى أمتك أشر : فقال عليه السلام « الأغنياء » . وقال رجل : يا رسول الله انى لا أحب الموت ، قال عليه السلام هل لك مال ، قال نعم . قال عليه السلام « قدم مالك فان قلب الرجل مع ماله ان قدمه أحب أن يلحقه وان أخره أحب أن يتخلف » . وقال عليه الصلاة والسلام « اذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم . وقال الناس ما خلف » وقال عليه الصلاة والسلام « تعس (١) عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش (٢) » .

فصل

اعلم أن المال ليس مذموما من كل وجه . وقد قال رسول الله ﷺ « نعم المال الصالح للرجل الصالح » وقال عليه الصلاة والسلام « الدنيا مزرعة الآخرة » وكيف يكون مذموما مطلقا والعبد مسافر الى الله تعالى والدنيا منزل من منازل سفره وبدنه مركبه ولا يمكنه السفر الى الله الا به ولا يبقى البدن الا بمطعم وملبس ولا وصول اليهما الا بالمال ، ولكن من فهم فائدة المال وعلم أنه آلة علف الدابة لسلوك الطريق لم يعرج عليه ولم يأخذ منه الا قدر الزاد فان اقتصر على ذلك سعد به كما قال النبى عليه السلام لعائشة رضى الله عنها « اذا أردت اللحاق بى فاقنعى من الدنيا بزاد الراكب ولا تجددى ولا تخلعى قميصا حتى ترقعيه » ،

---

(١) تعس — بفتح العين — أى سقط على الوجه ، وفى الدعاء تعسا له وتعس وانتكس فالتعس أن يخذل وجهه والنكس ان لا يستقل بعد سقطته .

(٢) أى اذا وصل شوك فى عضوه فلا انتقش على بناء المبنى للمفعول دعاء عليه بعدم اخراجه بالمنقاش يعنى أذا وقع فى البلاء فلا يترحم عليه وانما خص انتقاش الشوك بالذكر لأن الانتقاش أسهل ما يتصور فى المعاونة لمن أصابه مكروه واذا نفى ذلك الأهون فما فوقه بالطريق الأولى .

وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » وان زاد على قدر الكفاية هلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام « من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهلك وهو لا يشعر » وكذلك المسافر اذا أخذ ما يزيد على زاد الطريق مات تحت ثقله ولم يبلغ مقصد سفره .

فالزيادة على قدر الكفاية مهلكة من ثلاثة أوجه « أحدها » أن يدعو الى المعاصى فانه يمكن منها ومن العصمة أن لا تقدر . وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء والصبر مع القدرة أشد « والثانى » أن يدعو الى التنعم بالمباحات وهو أقل الدرجات فينبت على التنعم جسده ولا يمكنه الصبر عنه وذلك لايمكن استدامته الا بالاستعانة بالخلق والالتجاء الى الظلمة وذلك يدعو الى النفاق والكذب والرياء والعداوة والبغضاء . ويتشعب منه جملة من المهلكات ــ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

« والثالث » أن يلهى عن ذكر الله عز وجل الذى هو أساس السعادة الأخروية اذ يزدحم على القلب خصومة الفلاحين ومحاسبة الشركاء والتفكر فى تدبير الحذر منهم وتدبير استثمار المال وكيفية تحصيله أولا وحفظه ثانيا واخراجه ثالثا . وكل ذلك مما يسود القلب ويزيل صفاءه ويلهى عن الذكر كما قال الله تعالى « ألهاكم التكاثر » الى آخر السورة .

فصل

لعلك تشتهى أن تعرف مقدار الكفاية وتقول مامن غنى الا ويدعى أن ما فى يده دون مقدار الكفاية « فاعلم » أن الضرورة انما تدعو الى المطعم والملبس فقط ، فان تركت التجمل فى الملبس فيكفيك فى السنة ديناران لشتائك وصيفك فتتخذ بهما ثوبا خشنا يدفع عنك الحر والبرد . وان تركت التنعم فى مطعمك والشبع من الطعام فى جميع أحوالك فيكفيك فى كل يوم مد فيكون فى السنة خمسمائة رطل ، ويكفيك لادامك ان لم توسع فيه واقتصرت على اليسير منه فى بعض الأوقات ثلاثة دنانير على

التقريب فى السنة عند رخاء الأسعار فاذاً يبلغ كفايتك خمسة دنانير وخمسمائة رطل وهو القدر الذى نقدره اذا فرضنا نفقة العزب ، فان كنت معيلا فخذ لكل واحد منهم مثل ذلك . فان كنت كسوبا وكسبت فى اليوم مايكفيك ليومك فانصرف واشتغل بعبادتك فان طلبت الزيادة كنت من أهل الدنيا ، وان لم تكن كسوبا وكنت مشغولا بالعلم والعبادة واقتنيت ضيعة يدخل منها هذا القدر دائما ، فأرجو أن لاتصير بذلك من أهل الدنيا لا سيما فى هذه الأعصار وقد تغيرت القلوب واستولى عليها الشح وانصرفت الهمم عن تفقد ذوى الحاجات فاقتناء هذا القدر أولى من السؤال وهذا بشرط أن يكون بودك أن تتخلص من التعرض الى الجوع والبرد لتطرح الضيعة وتتركها ولا تكون كارها للموت ولا محبا للضيعة ، ولتكن الضيعة وهى مدخل طعامك كالخلاء الذى هو موضع فراغك فانما تريده للضرورة وبودك لو تخلصت منه لتخرج عن النهى فى قوله ﷺ « لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » ، فانك اذا قصدت الفراغة (١) للاستعانة بها على الدين كنت متزودا مسافرا لا معرجا على الضيعة . وربما لايحتمل بعض الأشخاص القناعة بالقدر الذى ذكرته الا بشدة ومشقة ، ولا حرج فى الدين فى ازدياد الضعف على هذا القدر (٢) اذ لا يصير من أبناء الآخرة والمسافرين الى الله تعالى ما دام يقصد بذلك دفع الألم الشاغل عن الذكر والعبادة دون التلذذ والتنعم فى الدنيا ، ثم ما فضل من الطعام صرفه الى البائس والأرامل (٣) ولا يبقى بعد هذه الرخصة داعية الى الزيادة الا التنعم أو للتصدق أو للاستظهار لو أصاب المال آفة .

« أما التنعم » فاعراض عن الله تعالى واشتغال بالدنيا « وأما التصدق » فترك المال أفضل منه ، قال عيسى عليه السلام : يا طالب الدنيا

---

(١) كذا فى الأصل ومثله فى النسخة النورية الا أن فى النورية حاشية على كلمة « الفراغة » وهى « أى أسباب المعيشة » .

(٢) وفى النسخة الكردية « فأرى أنه على الضعف من هذا القدر لا تصير من أبناء الدنيا ولا تخرج الخ » .

(٣) وفى النسخة الدمشقية « الى اللباس والادام والأرامل » .

لتبر فتركك لها أبر وأبر « وأما الاستظهار » لخوف آفة لا مرد له وهو سوء الظن لا آخر له بل ينبغى أن تدفع ذلك بحسن الظن بتدبير الله عز وجل وهو أن تتصور أن تصيب المال آفة من حيث لا يتوقع فيتصور أن ينفتح للرزق أيضا باب لا يحتسب ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . وان فرض على الندور خلافه فلا ينبغى أن يعتقد العبد أن سلامته طول عمره عن البلاء محتوم بل البلاء هو الذى يصقل القلب ويزكيه ويخلصه من الخبائث كلها ، ولهذا كان موكلا بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل فاتكل على فضل الله « واعلم » أنك لايصيبك الا ما فيه خيرك وخيرتك فان الله مدبر الملك والملكوت أعلم بمصالحك .

فصـــل

هذا الذى ذكرته تقريب يمكن الزيادة عليه والنقصان منه بالاجتهاد فى بعض الأشخاص وفى بعض الأحوال . ولكن اعتقد قطعا أن المال كالدواء النافع منه قدر مخصوص ، والافراط فيه قاتل والقرب من الافراط ممرض ان لم يقتل ، فعليك بالقليل والحذر من الافراط والرفاهية ـــ فذلك خطر عظيم . وليس فى التقليل الا مشقة قليلة فى أيام قلائل وذو الحزم لا يثقل عليه أن يجوع نفسه لوليمة الفردوس لعلمه أن اللذة على قدر الجوع .

فصـــل

لعلك ترغب فى معرفة حد البخل اذ الشخص الواحد قد تشك فى أنه بخيل أم لا ويختلف الناس فيه « فاعلم » أن حد البخل منع ما يوجبه الشرع أو المروءة ولا تظن أن من سلم الى زوجته وقريبه ما فرضه القاضى ، وضايق وراء ذلك فى لقمة فليس ببخيل . وأن من رد الخبز واللحم الى الخباز والقصاب لنقصان قدر منه يسير ليس ببخيل وان كان له ذلك فى الشرع فان معنى الشرع فى هذه الأمور قطع خصومة البخلاء بتقدير مقدار يطيقه البخيل ـ ولذلك قال الله تعالى

« ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا » بل لابـد من مراعاة المروءة ودفع قبح الأحدوثة وذلك يختلف باختلاف الأشخاص وقدر المال . ومن له مال وأمكنه أن يقطع هجو شاعر وذمه عن نفسه بقدر يسير فلم يفعله فهو بخيل وان لم يكن ذلك واجبا عليه اذ قال صلى الله عليه وسلم « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة » والتحقيق فيه أن المال خلق لفائدة لأجلها يمسك وفى بذله أيضا فائدة فمهما ظهر له أن فائدة البـذل أعظم من فائدة الامساك ثم شق عليه البذل فهو بخيل محب للمال . والمال لا ينبغى أن يحب لذاته بل لفائدته فيصرف الى أقوى فائدة وحفظ المروءة أفضل وأقوى من التنعم بالأكل الكثير مثلا . وقد يحمله البخل وحب المال على أن يجهل أقوى الفـائدتين وأولاهما وذلك غاية البخل فان علم وعسر عليه البذل فهو بخيل أيضا وان بذل تكلفا . بل انما يبرأ عن البخل بأن لا يثقل عليه بذل المال فيما ينبغى أن يبذل فيه عقلا وشرعا . وأما درجة السخاء فلا تنال الا ببذل ما يزيد على واجب الشرع والمروءة جميعا .

فصـــل

لعلك تريد أن تفهم علاج البخل « فاعلم » أن دواءه معجون مركب من العلم والعمل « أما العلم » فهو أن تعلم ما فى البخل من الهلاك فى دار الآخرة والمذمة فى الدنيا وتعلم أن المال لا يتبعه ان بقى الى قبره . وانما المال لله تعـالى مكنه منه ليصرفه الى أهم أموره وتعلم أن امساك المال ان كان للتنعم فى الشهوات فحسن الأحدوثة وثواب الآخرة أعظم وألذ منه . فقضاء الشهوة سجية البهائم . وهذه سجية العقلاء . وان كان يمسكه ليتركه لولـده فكأنه يترك ولده بخير ويقدم على ربه بشر ــ وهذا عين الجهل كيف وولده ان كان صالحا فالله تعالى يكفيه وان كان فاسقا فيستعين به على المعصية ويكون هو سبب تمكنه منها فيتضرر هو ويتنعم غيره .

« وأما العمل » فهو أن يحمل نفسه على البذل تكلفا ولا يزال يفعل ذلك حتى يصير له عادة . ومن نوافذ حيله فيه أن يخدعه بحسن الاسم وتوقع المكافأة حتى يرغب فى البذل . ثم بعد ذلك يتدرج أيضا الى قمع هذه الصفات .

الاصل السادس فى الرعونة وحب الجاه

قال الله عز وجل « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » الآية وقال عليه السلام « حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » وقال عليه الصلاة والسلام « ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر فسادا فيها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم » وقال عليه الصلاة والسلام فى مدح الخمول « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره » وقال عليه الصلاة والسلام « ان أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له : الذين اذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، واذا خطبوا النساء لم ينكحوا واذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم » وقال سليمان بن حنظلة بينما نحو حول أبى بن كعب نمشى خلفه اذ رآه عمر فعلاه بالدرة ، فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع ، فقال ان هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع ، وقال الحسن ان خفق النعال خلف الرجل قل ما يثبت معه قلوب الحمقاء وقال أبو أيوب والله ما صدق الله عبدا الا سره أن لا يشعر بمكانه . فقد عرفت بهذا مذمة الشهرة والجاه الا أن يشهر الله عبدا فى الدين من غير طلب منه كما يشهر الأنبياء والخلفاء الراشدين والعلماء والأولياء .

فصل

حقيقة الجاه هى ملك القلوب لتتسخر لذى الجاه على حسب مراده وتطلق اللسان بالثناء عليه وتسعى فى حاجته ، وكما أن معنى المال ملك الدراهم ليتوصل بها الى الأغراض — كذلك معنى الجاه ملك القلوب لكن الجاه أحب لأن التوصل به الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه ولأنه محفوظ عن أن يسرق ويغصب أو تعرض له الآفة ولأنه يسرى وينمو من غير تكلف ، فان من ملك قلبه باعتقاد التعظيم فلا يزال يثنى ويقتنص قلوب سائر الناس لصاحبه ، وفيه سر آخر وهو أن الجاه

معناه العلو والكبرياء والعز وهى من الصفات الالهية والالهية محبوبة للانسان بالطبع بل هو ألذ الأشياء عنـــده وذلك لسر خفى فى مناسبة الروح للأمـــور الالهية وعنه العبارة بقوله تعالى « قل الروح من أمر ربى » فهو أمر ربانى شغفه من حيث الطبع للاستبداد والانفراد بالوجود وهو حقيقة الالهية اذ ليس مع الله موجود بل الموجودات كلها كالظل من نور القدرة فلها رتبة التبعية لا رتبة المعية ، فليس فى الوجود مع الله غيره ، وكان الانسان يشـــتهى ذلك بل فى كل نفس أن يقول أنا ربكم الأعلى لكن أظهره فرعون وأخفاه غيره ولكن ان فاته الانفراد بالوجود فيشتهى أن لا يفوته الاستعلاء والاستيلاء على الموجودات كلها ليتصرف فيها على حسب مراده وهو الالهية ، لكن تعذر على الانسان ذلك فى السموات والكواكب والبحار والجبال ، فاشتهى الاستيلاء على جميعها بالعلم لأن العلم نوع استيلاء أيضـــا كما أن من عجز عن وضع الأشياء العجيبة فيشتهى أن يعرف كيفية الوضع وكـــذلك يشـــتهى أن يعرف عجائب البحر وما تحت الجبال ويتصور أن يتسخر له الأعيان التى على وجه الأرض من الحيوان والمعادن والنبات ، فيحب أن يتملكها ويتمولها ويتصور أن يتسخر له الانسان فيحب أن يتسخر بواسطة قلبه ، ويملك قلبه بالقاء التعظيم فيه ويحصل التعظيم بأن يعتقد فيه كمال الخصال فان الاجلال يتبع اعتقاد الكمال — فلهذا يحب الانســـان أن يتســـع جاهه وينتشر صـــيته حتى الى البلاد التى يعلم قطعا أنه لا يطؤها ولا يرى أهلها لأن كل ذلك يناسب صفات الربوبية ، وكلما صار أعقل كانت هذه الصفة عليه أغلب وشهواته البهيمية فيه أضعف .

فصـــــل

لعلك تقول فاذا كان كذلك فلم كان طلب الرفعة مذموما وهو من نتائج العقل وخواص الروح المناسبة للأمور الربانية .

« فاعلم » أن الرفعة الحقيقية طلبها محمود غير مذموم اذ مطلوب الكل هو القرب من الله تعالى ـــوذلك هو الرفعة والكمال اذ هو عز لا ذل فيه وغنى لا فقر معه . وبقاء لا فناء بعده ، ولذة لا كدورة لها وطلب

ذلك محمود ، وانما المذموم طلب الكمال الوهمى دون الحقيقى والكمال الحقيقى يرجع الى العلم والحرية والقدرة وهو أن لا يكون مقيدا بغيره ولا يتصور للعبد حقيقة القدرة فان قدرته انما تكون بالمال والجاه وذلك كمال وهمى فانه أمر عارض لابقاء له ولا خير فيما لا بقاء له بل قيل :

أشد الغم عندى فى سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

كيف وهذه القدرة العارضة مع سرعة انقضائها بالموت وبآفاتها قبله لا تصفو عن الكدورات فمن توهمها كمالا فقد زل ، بل الكمال فى الباقيات الصالحات التى تنال بها القرب من الله سبحانه ، ولا تزول بالموت بل تتضاعف تضاعفا غير محدود ، وذلك هو المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وهو العلم بكل الموجودات اذ ليس فى الوجود الا الله تعالى وأفعاله ، لكن قد ينظر فيها الناظر لا من حيث أنها أفعال الله تعالى كالذى ينظر فى التشريح لغرض الطب أو ينظر فى هيئة العالم لمعرفة الاستدلال بأحكام النجوم ، فهذا لا قدر له ، ومن الكمال الحقيقى الحرية وهو انقطاع علاقتك عن جميع علائق الدنيا بل عن كل ما يفارقك بالموت والاقتصار فى الالتفات الى لازمك الذى لابد لك منه وهو الله تعالى كما أوحى الله الى داود « يا داود أنا بدك (١) اللازم فالزم بدك » فالعلم والحرية من الباقيات الصالحات وهما كمالان حقيقيان والمال والبنون زينة الحياة الدنيا وهما كمالان وهميان ، والمنكوسون هم الذين عكسوا الحقيقة فأعرضوا عن طلب الكمال الحقيقى واشتغلوا بطلب الكمال الوهمى وهم الذين يحترقون عند الموت بنيران الحسرة اذ يشاهدون أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أما الآخرة فلأنهم يطلبونها ولم يحصلوا أسبابها من المعرفة والحرية ، وأما الدنيا فلأنها ودعتهم وانقلبت الى أعدائهم وهم ورثتهم ولا تظنن أن الايمان والعلم يفارقانك بالموت ، فالموت لا يهدم محل العلم أصلا وليس الموت عدما حتى تظن انك اذا عدمت الموت عدمت صفاتك بل

---

(١) البد بالتشديد معرب « بت » الفارسية وهو الصنم كما فى قاموس الفيروزآبادى .

معنى قطع علاقة الروح من البدن الى أن تعاد اليه ، واذا تجرد عن البدن فهو على ما كان عليه قبل الموت من العلم والجهل « وفهم هذا طويل وتحته أسرار لا يحتمل هذا الكتاب كشفها » .

فصل

اذا عرفت حقيقة الجاه وماهيته وأنه كمال وهمى فقد عرفت أن طريق العلاج فى قمع حبه من القلب ، اذا علمت أن أهل الأرض لو سجدوا لك مثلا لما بقى الا الى مدة قريبة لا الساجد ولا المسجود له ، كيف ويشح الدهر عليك بأن يسلم لك الملك فى محلتك فضلا عن قريتك أو بلدتك ، فكيف ترضى أن تترك ملك الأبد والجاه الطويل العريض عند الله تعالى وعند ملائكته بجاهك الحقير المنغص عند جماعة من الحمقى لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يملكون لك موتا ولا حياة ولا نشورا ولا رزقا ولا أجلا ، نعم ملك القلوب كملك الأعيان وانت محتاج منه الى قدر يسير لتحرس نفسك عن الظلم والعدوان وعما يشوش عليك سلامتك وفراغك الى تستعين بها على دينك . فطلبك لهذا القدر مباح بشرط القناعة بقدر الضرورة كما فى المال ، وبشرط أن لا تكتسبه بالمرايات بالعبادات فذلك حرام كما سيأتى ، وأن لا تكتسبه بالتلبيس بأن تظهر من نفسك ما أنت خال عنه فلا فرق بين من يملك القلوب بالتلبيس وبين من يملك الأموال ، فاذا حصلت الجاه بطريقة واقتصرت على قدر التحرز من الآفات فترجى لك السلامة الا أنك فى خطر عظيم أكثر من خطر المال لأن قليل الجاه يدعو الى كثيره فانه ألذ من المال ــ ولذلك لا يسلم الدين غالبا الا لخامل مجهول لا يعرف كما فهمت ذلك من الأخبار .

فصل

من البواعث على طلب الجاه حب المدح فان الانسان يتلذذ به من ثلاثة أوجه « أحدها » أنه يشعر صاحبه بكمال نفسه والشعور بالكمال لذيذ لأن الكمال من الصفات الالهية « والثانى » أنه يشعر بملك قلب المادح وقيام الجاه عنده وكونه مسخرا له .

« الثالث » أنه يشعر صاحبه بأن المادح يصغى الى مدحه فينتشر بسببه جاهه فكذلك اذا صدر المدح من بصير بصفات الكمال واسع الجاه والقدرة فى نفسه وكان على ملأ من الناس تضاعفت لذة المدح ، وتزول اللذة الأولى بأن يصدر عن غير أهل البصيرة فانه لا يشعر بالكمال ، وتزول الثانية بأن يصدر عن خسيس لا قدرة له لأن ملك قلبه لا يعتد به ، وتزول الثالثة بأن يمدح فى الخلوة لا فى الملأ الا من حيث يتوقع أنه أيضا ربما يمدح فى الملأ وأما الذم فانه مكروه لنقيض هذه الأسباب . وأكثر الخلق أهلكهم حب المدح وكراهية الذم ويحملهم ذلك على المرايات وفنون المعصية .

وعلاج ذلك أن يتفكر فى اللذة الأولى فان مدح بكثرة المال والجاه فيعلم أنه كمال وهمى وهو سبب فوات كمال حقيقى فهو جدير بأن يحزن لأجله لا أن يفرح به وان مدح بكمال العلم والورع ، فينبغى أن يكون فرحه بوجود تلك الصفات ويشكر الله تعالى عليها لا يشكر غيره هذا ان كان متصفا به وأما ان كان غير متصف به ففرحه به حماقة كفرح من يثنى عليه غيره ويقول ما أطيب العطر الذى فى أحشائك أو أمعائك وهو يعلم ما فيها من الاقذار والأنتان وهذا حال من يفرح من المدح بالورع والزهد والعلم وهو يعلم من باطن نفسه أنه خال عنه .

« وأما اللذة الثانية والثالثة » وهى لذة الجاه عند المادح وغيره ، فعلاجه ما ذكرناه فى حب الجاه .

الأصل السابع فى حب الدنيا

واعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وليس الدنيا عبارة عن المال والجاه فقط بل هما حظان من حظوظ الدنيا ، وشعبتان من شعبها وشعب الدنيا كثيرة ، ودنياك عبارة عن حالتك قبل الموت ، وآخرتك عبارة عن حالتك بعد الموت ، وكل مالك فيه حظ قبل الموت فهو من دنياك الا العلم والمعرفة والحرية ، وما يبقى معك بعد الموت فانها أيضا لذيذة عند أهل البصائر ، ولكنها ليست من الدنيا وان كانت فى الدنيا

ولهذه الحظوظ الدنيوية تعاون وتعلق بما فيه الحظ وتعلق بأعمالك المتعلقة باصلاحها فهى ترجع الى أعيان موجودة والى حظك فيها والى شغلك فى اصلاحها « أما الأعيان » فهى الأرض وما عليها قال الله تعالى « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها » الآية ومطلوب الآدمى من الأرض (أما عينها) فللمسكن والمحرث (وأما نباتها) فللتداوى والاقتات (وأما معادنها) فللنقود والأوانى والآلات (وأما حيواناتها) فللمركب والمأكل (وأما الآدميون) منها فللمنكح والاستحسان وقد جمع الله سبحانه ذلك فى قوله « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » الآية (وأما حظك منها) فقد عبر القرآن الكريم عنه بالهوى فقال الله تعالى « ونهى النفس عن الهوى » وقال تعالى تفصيلا له « انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » الآية وذلك يندرج فيه جميع المهلكات الباطنة من الغل والكبر والحسد والرياء والنفاق والتفاخر والتكاثر وحب الدنيا وحب الثناء ، وهى الدنيا الباطنة (وأما الأعيان) فهى الدنيا الظاهرة (وأما شغلك فى اصلاحها) فهى جملة الحرف والصناعات التى الخلق مشغولون بها ، وقد نسوا فيها أنفسهم ومبدأهم ومعادهم لاستغراقهم بأشغالهم بها ، وانما شاغلهم العلاقتان فان علاقة القلب بحب حظوظها ، وعلاقة البدن بشغل اصلاحها فهذه هى حقيقة الدنيا التى حبها رأس كل خطيئة ، وانما خلقت للتزود منها الى الآخرة ولكن كثرة أشغالها وفنون شهواتها أنست الحمقى سفرهم ومقصدهم فقصروا عليها همتهم فكانوا كالحاج فى البادية يشتغل بتعهد الناقة وعلفها وتسمينها فيتخلف عن الرفقة حتى يفوته الحج وتهلكه سباع البادية .

فصل

هذه الدنيا المذمومة المهلكة هى بعينها مزرعة الآخرة فى حق من عرفها اذ يعرف أنها منزل من منازل السائرين الى الله عز وجل وهى كرباط بنى على قارعة الطريق ، أعد فيها العلف والزاد وأسباب السفر ، فمن تزود منها لآخرته واقتصر منها على قدر الضرورة التى ذكرناها فى

المطعم والملبس والمنكح وسائر الضرورات فقد حرث وبذر ، وسيحصد في الآخرة ما زرع ، ومن عرج عليها واشتغل بلذاتها هلك . ومثل الخلق فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم الى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وخوفهم المقام واستعجال السفينة فتفرقوا فيها : فبادر بعضهم وقضى حاجته ورجع الى السفينة فوجد مكانا خاليا واسعا ، ووقف بعضهم فنظر في أزهار الجزيرة وأنوارها وظرائف أحجارها وعجائب غياضها ونغمات طيورها ، فرجع الى السفينة فلم يجد الا مكانا ضيقا حرجا وأكب بعضهم على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها فلم تسمح نفسه الا بأن يستصحب شيئا منها فلم يجد في السفينة الا مكانا ضيقا وزادته الحجارة ثقلا وضيقا فلم يقدر على رميها ولم يجد لها مكانا فحملها على عنقه وهو ينوء باعبائها ، وتولج بعضهم الغياض ونسى المركب واشتغل بالتفرج في تلك الأزهار والتناول من تلك الثمار وهو في تفرجه غير خال من خوف السباع والحذر من السقطات والنكبات ، فلما رجع الى السفينة فلم يصادفها فبقى على الساحل فافترسته السباع ومزقته الهوام فهذه صورة أهل الدنيا بالاضافة الى الدنيا والآخرة فتأملها واستخرج وجه الموازنة فيها ان كنت ذا بصيرة .

فصل

من عرف نفسه وعرف ربه وعرف زينة الدنيا وعرف الآخرة شاهد بنور البصيرة وجه عداوة الدنيا للآخرة اذ ينكشف له قطعا أن لا سعادة في الآخرة الا لمن قدم على الله سبحانه عارفا به محبا له فان المحبة لا تناله الا بدوام الطلب والفكر . ولا يتفرغ لها الا من أعرض عن أشغال الدنيا . ولا تستولى المعرفة والحب على القلب ما لم يفر من حب غير الله تعالى . ففراغ القلب عن غير الله ضرورة اشتغاله بحب الله تعالى ومعرفته . ولن يتصور ذلك الا لمعرض عن الدنيا قانع منها بقدر الزاد والضرورة . فان كنت من أهل البصيرة فقد صرت من أهل الذوق والمشاهدة . وان لم تكن كذلك فكن من أهل التقليد والايمان وانظر

الى تحذير الله سبحانه اياك . والكتاب والسنة . وقد قال عز وجل « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها » الآية وقال تعالى « ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة » الآية وقال عز اسمه «فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا» الآية ولعل ثلث القرآن فى ذم الدنيا وذم أهلها . وقد قال صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ماكان لله تعالى منها » وقال صلى الله عليه وسلم « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الآخرة وهو يسعى لدار الغرور » وقال عليه السلام « الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » وقال عليه السلام « ان الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وانه لم ينظر اليها منذ خلقها » وقال عليه السلام « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شىء وألزم قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبدا وشغلا لا يتفرغ عنه أبدا وفقرا لا يبلغ غناه أبدا وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا » .

وقال أبو هريرة قال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها » قلت نعم . فأخذ بيدى الى مزبلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام . فقال عليه السلام « يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل آمالكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم ستصير رمادا وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون (١) عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك » وقال صلى الله عليه وسلم « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار » قالوا يا رسول الله مصلين (٢) قال « نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة (٣) من الليل فاذا عرض لهم شىء من الدنيا وثبوا عليه » .

---

(١) أى يطلبون ويكتسبون ، وانتجع طلب الكلأ فى موضعه .
(٢) وفى النسخة الدمشقية أومصلين .
(٣) أى ساعة لطيفة .

وقال عيسى عليه السلام لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء واحد وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت » وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ارضوا بدنى الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا . وقال عيسى عليه السلام للحواريين لأكل خبز الشعير بالملح الجريش (١) ولبس المسوح (٢) والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة وروى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها فى صورة عجوز شوهاء عليها من كل زينة فقال لها كم نكحت فقالت انى لا أحصيهم . فقال يطلقونك أو ماتوا عنك فقالت بل قتلت كلهم فقال عيسى عليه السلام عجبا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين .

فصل

اعلم أن من ظن أن يلابس الدنيا ببدنه ويخلو عنها بقلبه فهو مغرور . قال النبى صلى الله عليه وسلم « مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى فى الماء هل يستطيع الذى يمشى فى الماء ألا يبتل قدماه » وكتب على رضوان الله عليه الى سلمان الفارسى رضى الله عنه : « مثل الدنيا مثل الحية يلين مسها ويقتل سمها . فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها . وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون بها أحذر ما تكون منها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنه مكروه » . وقال عيسى عليه السلام مثل الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله .

« واعلم » أن من اطمأن الى الدنيا وهو يتيقن أنه راحل عنها هو فى غاية الحماقة . بل مثل الدنيا مثل دار هيأها صاحبها وزينها لضيافة الواردين والصادرين . فدخل واحد داره فقدم اليه طبقا من ذهب عليه بخور وريحان ليشمها ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه فجهل رسمه فظن أنه

---

(١) الملح غير الطيب . (٢) الثوب الخلق الخشن المرقع .

وهب ذلك له فلما تعلق به قلبه استرجع منه فضجر وتوجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيبة قلبه وانشراح صدره فكذلك سنة الله فى الدنيا فانها دار ضيافة على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها ما ينتفعون به كما ينتفع بالعارية ثم يتركونها لمن يلحق بعدهم بطيبة نفس من غير تعلق القلب بها لا كمن يعلق القلب بها .

الأصل الثامن فى الكبر

قال الله سبحانه « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » وقال تعالى « فبئس مثوى المتكبرين » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى العظمة ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » وقال عليه السلام « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر يطؤهم الناس لهوانهم على الله عز وجل » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « ان فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله سبحانه أن يسكنه كل جبار فاياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه » وقال عليه السلام « اللهم انى أعوذ بك من نفخة الكبر » وقال عليه السلام « لا ينظر الله تعالى الى من جز ثوبه خيلاء » وقال عليه السلام « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان » وقال عليه السلام فى فضيلة التواضع « مازاد الله عبدا بعفو الا عزا ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله » وقال عليه السلام « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة » وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع النهار بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « اذا تواضع العبد لله رفعه الله الى السماء السابعة » وقال عليه السلام « ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا رحمكم الله » وقال عليه السلام « انه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » .

فصـــل

حقيقة الكبر أن يرى نفسه فوق غيره فى صفات الكمال فيحصل فيه نفخة وهزة من هذه الرذيلة والعقيدة — ولذلك قال صـلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من نفخة الكبر » ـ ولذلك استأذن بعضهم عمر رضى الله عنه ليعظ الناس بعد الصبح فقال لأخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا . ثم هـذه النفخة يصـدر منها أفعـال على الظاهر كالترفع فى المجالس والتقدم فى الطريق والنظر بعين التحقير والغضب اذا لم يبدأ بالسلام وقصر فى حوائجه وتعظيمه ويحمله على أن يأنف اذا وعظ ، ويعنف اذا وعظ وعلم ، ويجحد الحق اذا ناظر ، وينظر الى العـامة كأنه ينظر الى الحمير ، وانما عظم الكبر حتى لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة منه لأن تحته ثلاثة أنواع من الخبائث العظيمة .

« أولها » أنه منازعة لله تعالى فى خصوص صـفته اذ الكبرياء رداؤه كما قال الله فان العظمة لا تليق الا به ، ومن أين تليق العظمـة بالعبد الذليل الذى لايملك من أمر نفسه شيئا فضلا عن أمر غيره .

« الثانية » أن يحمله على جحد الحق وازدراء الخلق قال صلى الله عليه وسلم فى بيان الكبر « الكبر من سفه الحق وغمص الناس » والأنفة من الحق تغلق باب السعادة وكذا استحقار الخلق ، وقال بعضهم ان الله سبحانه خبأ ثلاثا فى ثلاث خبأ رضاءه فى طاعته فلا تحقرن شيئا منها لعل رضاء الله فيه وخبأ سخطه فى معصيته فلا تحقرن صغيرة فلعل سخط الله تعالى فيها وخبأ ولايته فى عباده فلا تحقرن أحدا منهم فلعله ولى الله تعالى .

« الثالثة » أنه يحول بينه وبين جميع الأخلاق المحمودة لأن المتكبر لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضـع وعلى ترك الأنفة والحسد والغضب ولا يقدر على كظم الغيظ وعلى اللطف فى النصـح وعلى ترك الرياء ، وبالجملة فلا يبقى خلق مذموم الا ويضطر المتكبر الى ارتكابه ، ولا خلق محمود الا ويضطر الى تركه .

فصـــل

العلاج الجملي لقمع رذيلة الكبر أن يعرف الانسان نفسه وأن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وهما فيما بين ذلك يحمل العذرة ، ويفهم قوله تعالى « قتل الانســان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره » فليعلم أنه خلق من كتم العــدم وأنه لم يك شيئا مذكورا فلا شىء أقل من العدم ثم خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ليس له سمع ولا بصر ولا حياة ولا قوة ، وخلق له ذلك كله وهو بعد غاية النقصان يســتولى عليه الأمراض والعلل ويتضاد فيه الطبائع فيهدم بعضها بعضا فيمرض كرها ويجوع كرها ويعطش كرها ويريد أن يعلم الشىء فيجهله ويريد أن ينسى الشىء فيذكره ويكره الشىء فينفعه ويشتهى الشىء فيضره لا يأمن فى لحظــة من أن يختلس روحــه أو عقــله أو صــحته أو عضــو من أعضــائه ، ثم آخــره المــوت والتعــرض للعقاب والحســاب فان كان من أهــل النــار فالخنزير خير منه فمن أين يليق به الكبر وهو عبد مملوك ذليل لا يقــدر على شىء ، قال الحسن البصرى رحمة الله عليه لبعض من يتبختر فى مشيته ما هذه المشية لمن فى بطنه خراء ، فكيف يليق الكبر بمن يغسل العذرة بيده مرتين فى كل يوم وهو حامل لها على الدوام .

فصـــل

عــلاج الكبر على التفصــيل بالنظر الى ما به التكبر وهو أربع خصال « الأولى » العلم قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء » وقال عليه الســلام « لا تكونوا من جبــابرة العلماء فــلا يفى علمكم بجهلكم » وقلما يخلو العــالم من آفة الكبر « فانه يرى نفســه فوق الناس بالعلم الذى هو أشرف فضيلة عند الله عز وجل فيتكبر تارة بالدين بأن يرى نفسه عند الله عز وجل أفضل من غيره ، وتارة فى الدنيا بأن يرى حقه واجبا على الناس ويتعجب منهم ان لم يتواضعوا له — وهذا

بأن يسمى جاهلا أولى لأن العلم الحقيقى ما يعرف به ربه ونفسه وخطر خاتمته وحجة الله عز وجل عليه ، ويلاحظ الخاتمة فلا يرى جاهلا الا ويقول انه عصى الله تعالى بجهل وأنا عصيته بعلم فحجة الله تعالى على آكد . قال أبو الدرداء رضى الله عنه من ازداد علما ازداد تواضعا قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وقال عليه السلام « يكون قوم يقرءون القرآن فلا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا » ثم التفت وقال « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار » ومن هذا اشتد حذر السلف حتى أنه صلى حذيفة مرة رحمه الله بقوم فلما سلم قال لتلتمسن اماما غيرى أو لتصلن وحدانا انى رأيت فى نفسى أنه ليس فى القوم أفضل منى .

وينبغى أن يتذكر الانسان أنه كم من مسلم نظر الى عمر رضى الله عنه قبل اسلامه واستحقره ثم كانت خاتمة عمر كما كانت وذلك المسلم لعله ارتد بعده فكان المتكبر من أهل النار والمتكبر عليه من أهل الجنة ، وما من عالم الا ويتصور أن يختم له بالسوء ويختم للجاهل بالسعادة . فكيف يكون الكبر مع معرفة ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه (١) فتدور به كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه » فأى عالم يسلم عن ذلك فلم لا يشغله خوفه عن التكبر وقد قال الله تعالى فى بلعم (٢) بن باعورا وهو من أكابر العلماء « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث » الآية لأنه أخلد الى الشهوات وقال فى علماء اليهود « كمثل الحمار يحمل أسفارا » فلينظر فى الأخبار التى وردت فى علماء السوء حتى يغلب خوفه كبره ، وانما يبقى الكبر مع هذا لمن اشتغل بعلوم غير نافعة فى الدين كالجدل واللغة وغيرهما أو لمن اشتغل بالعلم وهو خبيث الباطن فازداد خبثه بسببه .

---

(١) أى يخرج من بطنه أمعاؤه .
(٢) وفى النسخة النورية « بلعام » .

« السبب الثانى » الورع والعبادة ولا يخلو المتعبد فى باطنه عن كبر ، وقد تنتهى الحماقة ببعضهم الى أن يحمل مصائب الناس ومسراتهم على كرامته فمن آذاه ومات أو مرض يقول قد رأيتم ما فعل الله سبحانه به . وربما يقول عند الايذاء سترون ما يجرى عليه وليس يدرى الأحمق أن جماعة من الكفار ضربوا الأنبياء وآذوهم ثم متعوا فى الدنيا فلم ينتقم منهم بل ربما أسلم بعضهم فسعد فى الدنيا والآخرة فكأنه يرى نفسه أفضل من الأنبياء ومؤذيه أخس من الكفار . وحق العابد اذا نظر الى عالم أن يتواضع له لجهله وان نظر الى فاسق أن يقول لعل فيه خلقا باطنا يستر معاصيه الظاهرة ولعل فى باطنى حسدا أو رياء أو خبثا خفيا مقتنى الله سبحانه عليه فلا يقبل أعمالى الظاهرة وان الله سبحانه ينظر الى القلوب لا الى الصور . ومن الخبث الباطن الكبر اذ روى أن رجلا من بنى اسرائيل يقال له خليع بنى اسرائيل لكثرة فساده جلس الى عابد من بنى اسرائيل وقال لعل الله تعالى يرحمنى ببركته . فقال العابد فى نفسه كيف يجلس معى مثل هذا الفاسق ، وقال له قم عنى فأوحى الله سبحانه الى نبى زمانه مرهما ليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد . وروى أن رجلا وطىء رقبة عابد من بنى اسرائيل وهو ساجد ، فقال له ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله سبحانه اليه أيها المتألى على بل لا يغفر الله لك فالأكياس (١) يحذرون من ذلك ويقولون ما كان يقوله عطاء السلمى مع شدة ورعه كان اذا هبت ريح عاصف أو صاعقة يقول ما يصيب الناس ذلك الا بسببى ولو مات عطاء لتخلصوا وقال بعضهم فى عرفات أنا أرجو الرحمة لجميعهم لولا كونى فيهم فانظر كم بين من يخلص العمل والورع ثم يخاف على نفسه وبين من يتكلف أعمالا ظاهرة لعلها لا تخلو عن الرياء والآفات ثم يمن (١) على الله بعمله .

« السبب الثالث الكبر بالنسب » وعلاجه أن ينظر فى نسبه فان أباه نطفة مذرة وجده التراب ولا أقذر من النطفة ولا أذل من التراب ،

---

(١) جمع كيس وهو ضد الحمق ويقال الفلبة بالكياسة .

(١) وفى النسخة العراقية « ثم يتمنى » .

ثم المفتخر بالنسب يفتخر بخصال غيره ولو نطق آباؤه لقالوا من أنت فى نفسك ما أنت الا دودة من بول من له خصلة حسنة — ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوى نسب لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

كيف يتكبر بنسب ذوى الدنيا ولعلهم صاروا حممة فى النار يودون لو كانوا خنازير أو كلابا ليتخلصوا مما هم فيه ، وكيف يتكبر بنسب أهل الدين وهم فى أنفسهم ما كانوا يتكبرون وكان شرفهم بالدين . ومن الدين التواضع وكان أحدهم يقول ليتنى كنت تبنة وليتنى كنت طائرا . كلهم قد شغلهم خوف العاقبة عن الكبر مع عظم علمهم وعملهم ، فكيف يتكبر بنسبهم من هو عاطل عن خصالهم .

« السبب الرابع الكبر بالمال والجمال والأتباع » والكبر بهم جهل فانها أمور خارجة عن الذات أعنى المال والاتباع وكيف يتكبر بخصلة تمتد اليها يد السارق والغاصب وكيف يفتخر بالجمال وحمى شهر تفسده والجدرى يزيله ولو تفكر الجميل فى أقذار باطنه لأدهشه ذلك عن تزويق ظاهره ولو لم يتعهد الجميل بدنه أسبوعا بالغسل والتنظيف لصار أقذر من الجيفة من تغير النكهة والصنان ورائحة العذرة وكراهية الوسخ والمخاط والرمص ، فمن أين للمزبلة أن تفتخر بجمالها والانسان بالحقيقة مزبلة فانه منبع الأقذار والنجاسات .

الأصل التاسع فى العجب

قال الله تعالى « ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم » الآية وقال عز وجل « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » وقال « لا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وقال عليه السلام « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » وقال ابن مسعود رضى الله عنه « الهلاك فى اثنين القنوط والعجب » وانما جمع بينهما لأن القانط لا يطلب السعادة لقنوطه والمعجب لا يطلبها لظنه أنه قد ظفر بها ، وقال صلى الله عليه وسلم « لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أعظم من ذلك

العجب العجب » وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئا فقالت اذا ظن أنه محسن .

ونظر رجل الى بشر بن منصـــور وهو يطيل الصلاة ويحسن العبادة فلما فرغ قال لا يغرنك ما رأيت منى فان ابليس عبد الله تعالى وصلى آلاف السنين ثم صار الى ما صار اليه .

فصــــل

حقيقة العجب استعظام النفس وخصالها التى هى من النعم والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم والأمن من زوالها فان أضاف اليه أن رأى لنفسه عند الله حقا ومكانا سمى ذلك ادلالا ، وفى الخبر أن صلاة المدل لا ترتفع فوق رأسه وعلامة ادلاله أن يتعجب من رد دعائه ويتعجب من اســتقامة حال من يؤذيه ، والعجب هــو سبب الكبر ولكن الكبر يستدعى متكبرا عليه والعجب مقصور على الانفراد أما من رأى نعمة الله تعالى على نفسه بعمل أو علم أو غيره وهو خائف على زواله وفرح بنعم الله تعالى عليه من حيث أنها من الله فليس بمعجب . بل العجب أن يأمن وينسى الاضافة الى المنعم .

فصــــل

والعجب جهل محض فعلاجه العلم المحض فانه ان أعجب بقوة وجمال أو أمر مما ليس يتعلق باختياره فهو جهــل أيضـــا اذ ليس ذلك اليه فينبغى أن يعجب بمن أعطاه ذلك من غير اســتحقاق ، وينبغى أن يتفكر فى زوال ذلك المخوف على القرب بأدنى مرض وضعف وان أعجب بعلمه وعمله وما يدخل تحت اختياره فينبغى أن يتفكر فى تلك الأعمال بماذا تيسرت له وأنها لا تتيسر الا بعضــو وقدرة وارادة ومعرفة وأن جميع ذلك من خلق الله عز وجل ، واذا خلق الله العضو والقدرة وسلط الدواعى وصرف الصوارف كان حصول الفعل ضروريا ، وليس للمضطر أن يتعجب بما يحصل منه اضطرارا وهو مضطر الى اختياره فانه يفعل ان شاء ولكن

ان يشأ الله شاء أو لم يشأ مهما خلقت فيه المشيئة (١) . قال الله سبحانه وتعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله » فمفتاح العمل انجزام المشيئة وانصرف الدواعى الصارفة مع كمال القدرة والأعضاء ، وكل ذلك بيد الله تعالى أرأيت لو كان بيد ملك مفتاح خزانة فأعطاك اياه فأخذت منها أموالا أتعجب بجوده اذا أعطاك المفتاح بغير استحقاق أو بكمالك فى أخذه وأى كمال فى الأخذ بعد التمكن .

فصـــل

من العجائب أن يعجب العاقل بعلمه وعقله حتى يتعجب ان أفقره الله تعالى وأغنى بعض الجهال ويقول كيف وسـع النعمة على الجاهل وحرمنى . فيقال له كيف رزقك العلم والعقل وحرمهما الجـاهل فهذه عطية منه أفتجعلها سببا لاستحقاق عطية أخرى بل لو جمع لك بين العقـل والغنى وحرم الجـاهل عنهما جميعا كان ذلك أولى بالتعجب وما تعجب العاقل منه الا كتعجب من أعطاه الملك فرسا وأعطى غيره غلاما ويقـول كيف يعطى الغلام لفـلان ولا فرس له ويحرمنى وأنا صاحب الفرس وانما صار صاحب الفرس بعطائه فيجعل عطاءه سببا لاستحقاق عطاء آخر وهو عين الجهل بل العاقل يـكون ابدا تعجبه من فضل الله تعالى وجوده من حيث أعطاه العلم والعقل ووفقه للعبادة من غير تقدم استحقاق منه وحرم غيره ذلك وسلط عليه دواعى الفساد واضطره اليه بصرف دواعى الخير عنه وذلك بغير جريمة سابقة منه ، واذا شاهد ذلك تحقيقا غلب عليه الخوف اذ قد يقول قد أنعم الله على فى الدنيا من غير وسيلة وخصنى به دونغيرى ، ومن يفعل مثل هذا بغير سبب فيوشك أن يعذب ويسلب النعم أيضا بغير جناية وسبب فماذا أصنع ان كان ما أفاضه على من النعم مكرا أو استدراجا كما قال الله تعالى « فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » وكما قال تعالى « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

---

(١) كذا فى جميع الأصول ، وفى الجملة اضطراب .

الأصل العاشر فى الرياء

قال الله تعالى « فويل للمصلين الــذين هم عن صـــلاتهم ساهون الذين هم يراؤون » وقال تعالى « انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » وقال تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك » الآية أراد به الاخلاص . وقال صلى الله عليه وسلم « ان أخــوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قيل وما هو قال عليه السلام « الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة اذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء » وقال عليه الســـلام فى حديث طويل « يقال للغازى والعالم والمنفق اذا قال فعلت كيت وكيت يقال أردت أن يقال فلان عالم أو شجاع أو جواد أو قارىء فيــذهب به الى النار » وقال صلى الله عليه وسلم « استعيذوا بالله من جب الحزن » قيل وما هو قال عليه السلام « واد فى جهنم اعد للقراء المرائين » وقد قال تعالى « من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » وقال عليه السلام « لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من الرياء » وقال عليه السلام « ان أدنى الرياء الشرك » وقال عيسى عليه السلام (اذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لكيلا يرى الناس أنه صائم . واذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله . واذا صلى فليرخ ستر بابه فان الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق) ولهذا قال عمر رضى الله عنه لرجل طأطأ رقبته يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشـــوع فى الرقاب وانما الخشـــوع فى القلوب . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « ان المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يا مرائى يا غاوى يا فاجر يا خاسر . اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا » وقال قتادة رحمة الله عليه اذا راءى العبد يقول الله تعالى انظروا كيف يســتهزىء بى . وقال الحسن رحمة الله عليه صحبت أقواما ان كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها نفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها الا الشهرة .

فصـــل

حقيقة الرياء طلب المنزلة فى قلوب الناس بالعبادات وأعمال الخير وما يرايا به ستة أصناف :

« الأول » الرياء من جهة البدن وهو اظهار النحول والصفار ليظن به السهر والصـــيام . واظهار الحزن ليظن به أنه شـــديد الاهتمام بأمر الدين واظهار شعث الشـــعر ليظن به أنه لشدة اســـتغراقه بالدين ليس يتفرغ لنفسه واظهار ذبول (١) الشفتين ليستدل به على صومه . وخفض الصدت ليستدل به على ضعفه من شدة المجاهدة .

« الثانى » الرياء بالهيئة كحلق الشارب واطراق الرأس فى المشى والهدوء فى الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه ، وتغميض العينين ليظن به أنه فى الوجد والمكاشفة أو غائص فى الفكر .

« الثالث » الرياء فى الثياب كلبس الصـــوف والثـــوب الخشن وتقصـــيره الى قريب من الساق وتقصـــير الكمين وترك الثوب مخرقا ووسخا ليظن أنه مستغرق الوقت عن الفراغ له ، ولبس المرقعة والسجادة ليظن أنه من الصوفية مع افلاسه عن حقائق التصوف . ولبس الدراعة والطيلسان (٢) وتوسيع الأكمام ليظن أنه عالم ، والتقنع فوق العمامة بازار . ولبس الجوارب ليظن أنه متقشف (٣) لشـــدة ورعه من غبـــار الطريق ، ثم منهم من يطلب المنزلة فى قلوب أهل الصلاح فيلازم الثوب الخلق ولو لبس ثوبا جـــديدا لكان عنـــده كالذبح اذ يخاف أن يقول النـــاس قد بدا له من الزهد . ومنهم من يطلب المنـــزلة من الســـلاطين والتجار ، ولو لبس خلقان الثياب لازدروه ، ولو لبس فاخر الثياب لم يعتقدوا زهـــده ، فيطلب المرقعة المصبوغة والفوطة الرقيقة والأصواف

---

(١) ذبل الشيء ذبولا ذهبت ندوته والذبلاء الشفة اليابسة .

(٢) الدراعة القميص والطيلسان فارسى معرب لباس العجم .

(٣) القشـف محركة قذر الجلد ورثاثة الهيئة وسوء الحال والمتقشف من لا يبالى بما تلطخ بجسده ، انتهى ، مصححه : محيى الدين صبرى .

الرفيعة فيكون ثيابهم فى القيمة والنفاسة كثياب الأغنياء وفى اللون والهيئة كثياب الصلحاء ولو كلفوا أن يلبسوا الخلق لكان عندهم كالذبح خيفة عن السقوط عن أعين الأغنياء . ولو كلفوا لبس الخز والقصبى والديبقى وما يباح لبسه وقيمته دون قيمة ثيابهم لاشتد عليهم خوفا من سقوط منزلتهم عن قلوب الصلحاء . اذ يقولون بدله من الزهد .

« الرابع » الرياء بالقول كرياء أهل الوعظ والتذكير وتحسين الألفاظ وتشجيعها والنطق بالحكمة والأخبار وكلام السلف مع ترقيق الصوت واظهار الحزن مع الخلو عن حقيقة الصدق والاخلاص فى الباطن ليظن به ذلك وكادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والمبادرة الى الحديث انه صحيح أو سقيم ليظن به غزارة العلم كتحريك الشفتين بالذكر والأمر بالمعروف بمشهد الناس مع خلو القلب عن التفجع بالمعصية وكاظهار الغضب عن المنكرات والأسف عن المعاصى مع خلو القلب من التألم به .

« الخامس » الرياء بالعمل كتطويل القيام وتحسين الركوع والسجود واطراق الرأس وقلة الالتفات والتصدق والصوم والحج والاخبات فى المشى مع ارخاء الجفون ، مع أن الله تعالى عالم أن باطنه لو كان خاليا لما فعل شيئا من ذلك بل تساهل فى الصلاة وتسرع فى المشى . وقد يفعل ذلك فى المشى فاذا شعر باطلاع غيره عليه عاد الى السكينة كى يظن به الخشوع .

« السادس » الرياء بكثرة التلامذة والأصحاب وكثرة ذكر الشيوخ ليظن أنه اقى شيوخا كثيرة وكمن يحب أن يزوره العلماء والسلاطين ليقال انه ممن يتبرك به . فهذه مجامع ما يراءى به فى الدين وكل ذلك حرام بل هو من الكبائر . وأما طلب المنزلة فى قلوب الناس بأفعال ليست من العبادات وأعمال الدين فليست بحرام ما لم يكن فيه تلبيس كما ذكرناه فى طلب الجاه . فأهل الدنيا قد يطلبون الجاه بكثرة المال والغلمان وحسن الثياب الفاخرة وحفظ الاشعار وعلم الطب والحساب والنحو واللغة وغير ذلك من الأعمال والأحوال ولم يحرم ذلك ما لم ينته

الى الايذاء بالتكبر والى أخلاق أخرى مذمومة وانما استقصينا أقسام الرياء لأنه أغلب الأخلاق الذميمة على النفوس فمن لا يعرف الشر ومواقعه لا يمكنه أن يتقيه .

فصل

الرياء على درجات خبيثة « احداها » أن لا يكون بالأمور الدينية والعبادات كالذى يلبس عند الخروج ثيابا حسنة خلاف ما يلبسه فى الخلوة (١) وكالذى ينفق فى الضيافات وعلى الأغنياء أموالا ليعتقد أنه سخى لا ليعتقد أنه ورع صالح . فذلك ليس بحرام فان تملك القلوب كتملك الأموال . نعم القليل منه صالح نافع والكثير منه يلهى عن ذكر الله كالكثير من المال ومهما انصرفت الهمة الى سعة الجاه فيجر ذلك الى الغفلة والمعاصى فيكون محذورا لذلك لا لنفسه ، وأما اظهار الشمائل التى ذكرناها ليعتقد الناس فيه الدين والورع حرام لشيئين « أحدهما » أنه تلبيس اذا أراد أن يعتقد الناس أنه مخلص مطيع لله محب وهو بهذه النية فاسق ممقوت عند الله . ولو سلم الرجل دراهم الى جماعة يخيل اليهم أنه يجود عليهم بها ، وانما هى ديون لازمة ، عصى لتلبيسه وان لم يطلب به أن يعتقد صلاحه لأن ملك القلوب بالتلبيس حرام .

« الثانى » أنه اذا قصد بعبادة الله خلق الله فهو مستهزىء . ومن وقف بين يدى ملك فى معرض الخدمة وليس غرضه ذلك بل غرضه ملاحظة عبد من عبيد الملك أو جارية من جواريه فانظر ماذا يستحقه من النكال لاستهزائه بالملك فكأنه اذا قصد العباد بالعبادة فقد اعتقد أن عباد الله أقدر على نفعه وضره من الله تعالى اذ عظمة العبادة فى قلبه دعته الى أن يتجمل عندهم بعبادة الله ولهذا سمى الرياء الشرك الأصغر ثم يزداد الاثم بزيادة فساد القصد والنية ومن المرائين من لا يطلب الا مجرد الجاه ، ومنهم من يطلب أن يودع الوداع ويوقف عنده الأوقاف

---

(١) وفى النسخة العراقية منها ان يلبس فى الملأ غير ما يلبسه فى الخلوة .

ومال الأيتام ليختزل منها وذلك أخبث لا محالة . ومنهم من يرائى ليقصد اليه النساء والصبيان ليتمكن من الفجور أو ليكثر عنده المال ليصرفه الى الخمر والملاهى وهذا هو الأعظم اذ جعل عبادة الله تعالى وسيلة الى مخالفته والعياذ بالله .

فصل

كما يعظم الرياء ويتغلظ اثمه بسبب اختلاف الغرض الباعث عليه فيعظم أيضا بما به المراياة وبقوة قصد الرياء . أما ما به المراياة فهى على ثلاث درجات « أغلظها » أن يرائى بأصل الايمان كالمنافق يظهر أنه مسلم وليس بمسلم بقلبه ، كالملحد ومعتقد الاباحة يظهر أنه مستديم الايمان وقد انسل منه باطنه . « الثانية » الرياء بأصل العبادات كمن يصلى ويخرج الزكاة بين يدى الناس والله يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل ذلك « الثالثة » وهى أدناها أن لا يرائى بالفرائض بل النوافل كالذى يكثر النافلة ويحسن هيئة الفريضة ويخرج الزكاة من أجود ما له أو يتهجد أو يصوم يوم عرفة وعاشوراء والله يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل شيئا من ذلك ، وهذا أيضا حرام وان كان لا تنتهى شدة العقوبة فيه الى حد الرياء بالأصول .

وأما تغليظه بدرجات القصد فهو أنه قد يتجرد قصد الرياء حتى يصلى مثلا على غير طهارة لأجل الناس أو يصوم ولو خلا بنفسه لأفطر وقد يضاف اليه قصد العبادة أيضا وله ثلاث أحوال « أحداها » أن تكون نية العبادة باعثة مستقلة لو خلا بنفسه ولكن زاده رؤية غيره ومشاهدته نشاطا وخف عليه العمل بسببه فأرجو أن لا يحبط ذلك القدر عمله بل تصح عبادته ويثاب عليها ويعاقب على قصد الرياء أو ينقص من ثوابه « الثانية » أن يكون قصد العبادة ضعيفا بحيث لو انفرد عن الناس ما استقل بالحمل على العبادة فهذا لا تصح عبادته والقصد الضعيف لا ينفى عنه شدة المقت « الثالثة » أن يتساوى القصدان بحيث لا يستقل كل واحد بالحمل لو انفرد أولا ينبعث للفعل بأحدهما بل بمجموعهما ، فهذا قد أصلح شيئا وأفسد مثله فالغالب أنه لا يسلم

رأسا برأس ، ويحتمل أن يقال اذا تساوى القصـــدان فاحدهما كفارة للآخر ، وقـــوله تعالى « أنا أغنى الأغنيـــاء عن الشرك » يدل على أنه لا يقبله ولا يثيبه عليه . أما أنه يعاقبه عليه ففيه نظر فالأغلب عنـــدى والعلم عند الله أنه لا يخلو عن اثم وعقاب .

فصـــل

اعلم أن بعض الرياء جلى ، وبعضـــه أخفى من دبيب النمل (أما الجلى) فما يبعث على العمل حتى لولاه لم يرغب فى العمل (وأخفى منه) أن لا يستقل بالحمل عليه ، ولكن يخفف العمل ويزيد فى نشاطه كالذى يتهجد كل ليلة واذا كان عنده ضيف زاد نشاطه وأخفى منه أن لا يزيد نشاطه ولكن لو اطلع غيره على تهجده قبل فراغه أو بعده فرح به ووجد فى نفســه هزة ، وذلك يدل على أن الرياء كان مستكنا فى باطن القلب اســـتكنان النار تحت الرماد حتى ترشح منه السرور عند الاطلاع وقد كان غافلا عنه قبله (واخفى منه) أن لا يسر بالاطلاع لكن يتوقع أن يبدأ بالسلام ويوقر ويتعجب ممن يسىء اليه ولا يسامحه فى المعاملة ولا يحترمه وذلك يدل على أنه يمن على الناس بعمله فكأنه يتوقع احترامهم وتوقيرهم بعبادته مع اخفائه عنهم .

وأمثال هذه الخفايا لا يخلو عنها الصـــديقون ، وجميع ذلك اثم ويخاف منه احباط العمل . نعم لا بأس أن يفرح باطلاع غيره عليه اذا كان فرحه بالله تعالى من حيث أظهر منه الجميل وستر منه القبيح مع أنه قصد سترهما جميعا فيفرح بلطف صنع الله تعالى وكذلك يفـــرح لأنه يبشره بأنه حيث أحسن صنعه به فى الدنيا فكذلك يصنع به فى الآخرة ، أو يفرح ليقتدى به من يراه أو يطيع الله بحمده له عليه ، وعلامة هذا أن يفرح ايضا اذا طلع على غيره ممن يرتجى وقـــدوته ومن أجل خفاء أبواب الرياء وشـــدة استيلائه على الباطن احترز أولو الحزم فأخفـــوا عبادتهم وجاهدوا أنفسهم وقد قال على رضى الله عنـــه ان الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ألم يكن يرخص عليكم فى السعر . ألم تكونوا تبدأون بالسلام ، ألم تكن تقضى لكم الحوائج لا أجر لكم فقد استوفيتم

أجوركم . فاجتهد ان أردت الخلاص أن يكون الناس عندك كالبهائم والصبيان فلا تفرق في عبادتك بين وجودهم وعــدمهم وعلمهم بها أو غفلتهم عنها ، وتقنع بعلم الله تعالى وحده ، وتطلب الأجر منه فانه لا يقبل الا الخالص كي لا تحرم من فائدته في أحوج أوقاتك اليه .

فصــــل

لعلك تقول ما أقدر على انفكاك الرياء الخفي كما وصفته وان قدرت على الرياء الجلي فهل تنعقد عبادتي مع ذلك .

« فاعلم » أن وارد الرياء لا يخلو اما أن يرد مع أول العمل أو في دوامه أو بعد الفراغ منه أما ما يقارن الابتداء فيبطله ويمنع انعقاده أن صار باعثا مؤثرا في الحمل على العمل بل أول العقد يجب أن يكون خالصا وانما يبطل بالرياء الباعث على اصل العمل وأما اذا لم يحمل الا على المبادرة في أول الوقت مثلا فأظن — والعلم عند الله تعالى — ان أصل الصلاة يصح وانما تفوته فضيلة المبادرة ويعصى بقصد المراياة به ولكن يسقط الفرض عنه وأما ما يرد في دوام الصلاة ان أبطل باعث الصــلاة فتبطل الصلاة . مثاله أن يحضر في أثناء الصلاة أوطاره أو يتذكر نسيان شيء ولو خلا لقطع الصلاة لكنه أتم حياء من الناس . فهذا لا يسقط الفرض عنه لأن النيــة قد انقطعت وانقطع باعث العبــادة . وأما اذا لم تنقطع نيته لكن صار مغلوبا مغمورا كما لو حضر قوم فغلب على قلبه الفرح باطلاعهم وانغمر باعث العبادة فغالب الظن انه ان انقضى ركن ولم يعاوده الباعث الأصلي فسدت صلاته لانا نستصحب نية البداية بشرط ان لا يطرأ ما لو قارن ابتداءها لمنع وان لم ينغمر باعث العبادة ولكن حصل مجرد سرور ولم يؤثر في العمل بل تحسين الصلاة فقط فغالب الظن ان الصلاة لا تفسد ويتأدى الفرض . وأما ما يطرأ بعد الصلاة من ذكر وسرور ومراياة فــلا ينعطف على ما مضى ولكن يعصى به ويأثم ويكون عقابه بقدر قصده واظهاره ومهما ظهرت له داعية ذكر العبادة اما بالتصريح واما بالتعريض فذلك يدل على ان الرياء كان خفيا في باطنه .

فصـــل

اذا عرفت حقيقة الرياء وكثرة مداخلته فعليك بالتشمر فى معالجته . وعلاجه فى دفع الأسباب الباعثة عليه (وهى ثلاث) حب المدح وخوف الذم والطمع .

(أما حب المدح) كمن يهجم على صف القتال ليقال أنه شجاع ، أو يظهر العبادات ليقول أنه ورع ، وعلاجه ما تقـدم فى عـلاج حب الجاه وهـو أن تعلم أنه كمال وهمى لا حقيقة له ، وعلاجه فى الرياء خاصة أن يقرر على نفسه ما فيه من الضرر فان العسل وان كان لذيذا فاذا علم أن فيه سما سهل تركه فليقرر على نفسه أنه يقال له فى يوم فقره بسبب ريائه (يا فاجر يا غاوى) استهزأت بالله عز وجل وراقبت العباد وتحببت اليهم واشتريت حمدهم بذم الله تعالى وطلبت رضاءهم بسخطه ، أما كان أهون عليك من الله تعالى فلو لم يكن الا هذا الخزى والخجلة لكان كافيا فى المنع عنه كيف وقد انضم اليه العقوبة واحباط العبادة وأنه ربما يترجح به كفة السيئات بعد أن قارنت كفة الحسنات فيكون سبب هلاكه . وليقرر على نفسه ان رضى الناس غاية لا تدرك ومن طلب رضى الناس بسخط الله تعالى أسخطهم الله عليه فكيف يترك رضى الله بما لا يطمع فى حصوله « وأما الباعث الثانى » وهو الخوف من ذمهم فيقرر على نفسه أن ذمهم لن يضره ان كان محمودا عنـد الله عز وجل ولم يتعرض لذم الله ومقته خوفا من ذم الخلق ، ويكفيه أن الناس لو علموا ما فى باطنه من قصـد الرياء لمقتوه ويأبى الله الا أن يكشف سره حتى يعرف نفاقه فيمقته الناس أيضا بعد أن يمقته الله عز وجل ولو أخلص وأعرض بقلبه عنهم وجرد نظره الى الله تعالى لكشف لهم اخلاصه له وأحبوه .

« وأما باغث الطمع » فيدفعه بأن يعلم أن ذلك أمر موهوم وفوات رضى الله تعالى ناجز ويعلم أن الله تعالى هو المسـخر للقلوب وأن من

طمع فى الخلق لم يخل عن الذل والمهانة والمنة ، ومن أعرض عن الطمع فى الخلق كفاه الله تعالى وسخر له القلوب ، فاذا أحضر فى قلبه نعيم الآخرة والدرجات الرفيعة وعلم أن ذلك يفوت بالرياء اعرض قلبه عن الخلق واجتمع همه وفاضت عليه أنوار الاخلاص وأمده الله سبحانه بمعونته وتوفيقه .

فصل

لعلك تقول انى قررت هذا كله على نفسى ، ونفر (١) عن الرياء قلبى ولكن ربما هجم على وارد الرياء بغتة فى بعض العبادات عند اطلاع الخلق فما العلاج عند هجومه « فاعلم » أن اصل هذا العلاج أن تخفى عبادتك كما تخفى فواحشك ففيه السلامة .

روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال له أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا . واخفاء العبادة أنما يشق فى البداية فاذا صار عادة ألف الطبع لذة المناجاة فى الخلوة ، ومهما هجم وارد الرياء فعلاجه أن تجدد على قلبك ما رسخ فيه من قبل من المعرفة بالتعرض لمقت الله عز وجل مع عجز الناس عن منفعتك ومضرتك حتى تنبعث منه كراهية لداعية الرياء ، ثم الشهوة تدعو الى اجابة الرياء بتحسين العمل والفرح به ، والكراهية تدعو الى رده والاعراض عنه وتكون اليد للاقوى ، فان قويت الكراهية حتى منعتك من الركون اليه واستصحبت حالتك التى كنت عليها فلم تزد ولم تنقص ولم تتكلف أظهار الفعل وايثاره فقد اندفع عنك الاثم ولم تكلف اكثر من ذلك ، وأما دفع الخواطر ودفع الطبع عن الميل الى أقوال الناس فلا يدخل تحت التكليف وانما منتهى التكليف الكراهية والاباء عن اجابة الداعية .

(١) وفى نسخة ثانية بالخزانة النور « يفر » .

فصـــل

يجوز اظهار الطاعات لاجل اقتـداء النـاس وترغيبهم اذا صحت النية ولم يكن معه شهوة خفية ، وعلامته أن يقدر أن الناس لو اقتدوا بأحد أقرانه وكفى مؤنة الترغيب وأخبر بأن اجره فى الاسرار كأجره فى الاظهار فلا يرغب فى الاظهار ، فان كان ميله الى أن يكون هو المقتدى به أكثر ففيه داعية الرياء لانه ان كان يطلب سعادة الناس وخلاصهم فقد حصل ذلك بغيره ولم يفته الاظهار نفسه ـ وكذلك يجوز كتمان المعاصى والذنوب ولكن بشرط أن يكون غرضه أن لا يعتقد فيه الورع بل لا يعتقد فيه الفسق ولا بأس بفرحه باستتار معاصيه وحزنه بانكشافها اما فرحا بستر الله عليه واما فرحا بموافقة أمر الله تعـالى فانه تعـالى يحب كتمان المعاصى وينهى عن المجاهرة بها واما لانه يكره أن يذم فيتألم به إذ التألم بذم الناس ليس بحرام بل يوجبه الطبع ، وانما الحرام الفرح بمدح الناس اياه بالعبادة فان ذلك كأجر يأخذه على العبادة ، واما لانه يخاف أن يقصد بسوء اذا عرفت معصيته ، واما لانه يستحى من ظهورها والحياء غير الرياء ولكن قد يمتزج به ، وأما ترك الطاعة خوفا من الرياء فلا وجه له .

قال الفضيل الرياء ترك العمل خوفا من الرياء ، وأما العمل لاجل النـاس فهو شرك بل ينبغى أن يعمل ويخلص الا اذا كان العمـل فيما يتعلق بالخلق كالقضاء والامامة والوعظ ، فاذا علم من نفسه أنه بعد الخوض فيه لا يملك نفســه بل يميل الى دواعى الهوى فيجب عليه الاعراض والهرب كذلك فعل جماعة من السلف ، وأما الصلاة والصدقة فلا يتركهما الا اذا لم تحضره أصلانية العبادة بل لو تجرد نية الرياء (١) فلا يصـح عمله فليتركه ، أما من اعتاد فعله فحضر جماعة فيخاف على نفسه الرياء فلا ينبغى أن يتركه بل ينبغى أن يستمر على عبادته ويجتهد فى دفع باعث الرياء .

---

(١) وفى النسـخـة النورية « بل لو لم يجـرد الا نيـة الرياء فلا يصح الخ » .

خاتمة في مجامع الاخلاق ومواقع الغرور فيها

اعلم أن الأخلاق المذمومة كثيرة ولكن ترجع أصولها الى ما ذكرناه . ولا يكفيك تزكية النفس عن بعضها حتى تتزكى عن جميعها ولو تركت واحدا منها غالبا عليك فذلك يدعوك الى البقية لأن بعض هذه يرتبط بالبعض ويتقاضى بعض الأخلاق الذميمة بعضا ولا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم ، والسلامة المطلقة لا تنال بدفع بعض الأمراض بل انما تنال بالصحة المطلقة كما أن الحسن لا يحصل بحسن بعض الأعضاء ما لم يحسن جميع الأطراف والنجاة فى حسن الخلق . قال النبى صلى الله عليه وسلم « أثقل ما يوضع فى الميزان خلق حسن » وقد قال النبى عليه السلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقيل له ما الدين قال عليه السلام « الخلق الحسن » وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله تعالى » وقال عليه السلام « أفضل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا » .

وقد كثرت الأقاويل فى حقيقته وبيان حده . والأكثرون تعرضوا لبعض ثمراته ولم يحيطوا بجميع تفصيله والذى يطلعك على حقيقته أن تعلم أن الخلق والخلق عبارتان فيراد بالخلق الصورة الظاهرة وبالخلق الصورة الباطنة وذلك لأن الانسان مركب من جسد يدرك بالبصر . ومن روح ونفس يدرك بالبصيرة لا بالبصر . ولكل واحد منهما هيئة اما قبيحة واما حسنة . والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا ولذلك أضافه الله عز وجل الى نفسه وأضاف البدن الى الطين فقال « انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى » ووصف الروح بأنه أمر ربانى فقال « قل الروح من أمر ربى » وأعنى بالروح والنفس ها هنا معنى واحدا وهو الجوهر العارف المدرك من الانسان بالهام من الله تعالى كما قال « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

وكما أن للحسن الظاهر أركانا كالعين والأنف والفم والخد ولا يوصف الظاهر بالحسن ما لم يحسن جميعها . فكذلك الصورة الباطنة لها أركان لابد من حسن جميعها حتى يحسن الخلق وهى أربعة معان : قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث فاذا استوت هذه الأركان الأربعة واعتدلت وتناسقت حصل حسن الخلق .

« أما قوة العلم » فاعتدالها وحسنها أن تصير بحيث يدرك بها الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الأعمال . فاذا تحصلت هذه القوة كذلك حصلت منها ثمرة الحكمة وهى رأس الفضائل قال الله عز وجل « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب »

« وأما قوة الغضب » فاعتدالها أن يحصل انقباضها وانبساطها على موجب اشارة الحكمة والشرع — وكذلك قوة الشهوة .

« وأما قوة العدل » فهى فى ضبط قوة الغضب . وقوة الشهوة تحت اشارة الدين والعقل . فالعقل منزلته منزلة الناصح وقوة العدل هى القدرة ومنزلتها منزلة المنفذ الممضى لاشارة العقل والغضب والشهوة وهما اللذان تنفذ بهما الاشارة وهما كالكلب والفرس للصياد . فان حسن بعض هذه دون بعض كان كما لو حسن بعض أعضاء الوجه فلا يطلق اسم الحسن له الا اذا حسن الجميع واعتدل فاذا حسنت واعتدلت انشعب منه جميع الأخلاق . وأما قوة الغضب فيعبر عن اعتدالها بالشجاعة والله تعالى يحب الشجاعة وان مالت الى طرف الزيادة سميت تهورا وان مالت الى النقصان تسمى جبنا ويتشعب من اعتدالها خلق الكرم والنجدة والشهامة والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتؤدة (١) وأما افرادها فيحصل منه خلق التهور والصلف (٢) والبذخ والاستشاطة (٣) والكبر والعجب . وأما تفريطها

---

(١) والتؤدة — بفتح الهمزة وسكونها — الرزانة والتأنى .
(٢) التكلم بما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك .
(٣) واستشاط عليه : التهب غضبا .

فيحصل منه الجبن والمهانة والذلة والخساسة وعدم الغيرة وضعف الحمية على الأهل وصغر النفس . وأما الشهوة فيعبر عن اعتدالها بالعفة وعن افراطها بالشره وعن تفريطها وضعفها بالخمود فيصدر من العفة السخاء والحياء والصبر والسماحة والقناعة والورع والمساعدة والظرف وقلة الطمع ، ويصدر عن افراطها الحرص والشره والوقاحة والتبذير والتقتير (١) والرياء والهتكة والمجانة والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك .

« وأما قوة العقل » فيصدر من اعتدالها حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى واصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفس ، أما افراطها فيحصل منه الجربزة والدهاء والمكر والخداع ، ويحصل من تفريطها وضعفها البله والحمق والغمارة (٢) والبلادة والانخداع فهذه هي روابط الأخلاق ، وانما معنى حسن الخلق فى الجميع وسط بين الافراط والتفريط فخير الأمور أوساطها ، وكلا طرفى قصد الأمور ذميم ولذلك قال عز وجل « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » وقال تعالى « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » وقال تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ومهما مال واحد من هذه الجملة الى الافراط والتفريط فبعد لم يكمل حسن الخلق .

فصل

طريق اصلاح هذه الأخلاق كلها المجاهدة والرياضة : ومعنى المجاهدة أن يكلف الصفة المفرطة الغالبة خلاف مقتضاها فتعمل بنقيض موجبها . فان غلب البخل فلا تزال تتكلف البذل بالمجهود وتداوم عليه مرة بعد أخرى حتى يسهل عليك البذل فى محله فان غلب التبذير فلا تزال تتكلف الامساك حتى يصير عادة فيسهل عليك الامساك فى

---

(١) الوقاحة ـ بالفتح ـ قلة الحياء وقتر من باب قتل أى ضيق على عياله .

(٢) الغمر الحقد وزنا ومعنى ورجل غمر لم يجرب الأمور .

محله ، وكذلك فى خلق الكبر وسائر الأخلاق ، وقد ذكرناه فى كتاب « رياضة النفوس » على التفصيل ، وينبغى أن تعلم أن من يبذل تكلفا فليس بسخى ، وان من يتواضع تكلفا فهو ثقيل على نفسه وهو عاطل عن خلق التواضع بل الخلق عبارة عن هيئة للنفس يصدر عنها الفعل بسهولة من غير روية وتكلف لكن التكلف هو طريق تحصيل الخلق فانه لا يزال يتكلف أولا حتى يصير ذلك طبعا وعادة فيفهم من هذا أن البخيل قد يبذل وأن السخى قد يمسك فلا تنظر الى الفعل بل الى الهيئة الراسخة التى تصدر منها الأفعال بيسر من غير تكلف .

« واعلم » أن تفاوت الناس فى الحسن الباطن كتفاوتهم فى الحسن الظاهر ولن يسلم الحسن المطلق الا على الندور ، وانما سلم ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أثنى الله سبحانه عليه فقال « وانك لعلى خلق عظيم » وليست النجاة موقوفة على الكمال البالغ لكن على أن يكون الميل الى الحسن أكثر . فان القبيح المطلق فى الظاهر ممقوت ، والحسن المطلق معشوق وما بينها درجات فالقريب من الحسن المطلق أسعد فى الدنيا من القريب الى القبيح المطلق ، وكذلك تتفاوت سعادة الآخرة بحسب تفاوت حسن الصورة الباطنة .

فصل

اعلم أنك قد تظن بنفسك حسن الخلق وأنت عاطل عنه فاياك أن تغتر ، وينبغى أن تحكم فيه غيرك فتسأل عنه صديقا بصيرا لايداهنك ، وبالجملة اذا نسبك غيرك الى سوء الخلق أو شك أن تكون كذلك لأن أكثر الأخلاق يتعلق بالغير فينبغى أن تظهر لهم . ومن مواقع الغرور فيه مثلا أن تغضب فتظن أنك تغضب لله تعالى وتظهر العبادة وتظن أنك تظهر للاقتداء أو تكف عن الأكل أو عن طلب الدنيا أو تكظم الغيظ ، وانما يهون عليك ذلك أن تعرف به فيكون الرياء الباعث على الجميع ، وكذلك يكثر مواقع الغرور فيه على ما ذكرناه فى كتاب الغرور ، فان هذا الكتاب لا يحتمل استقصاء .

فصـــل

ينبغى أن تتفقد هذه الأخلاق من قلبك وتبدأ بالأهم فالأهم فتقبل على أغلب هذه الصفات فتكسرها على التدريج وأظن أن الأغلب عليك حب الدنيا ، وسائر المعاصى والأخلاق المذمومة تتبعها ، و لايمكنك الخلاص من حب الدنيا الا بأن تطلب خلوة خالية وتتفكر فى سبب اقبالك على الدنيا واعراضك عن الآخرة . فلا تجد له سببا الا محض الجهل والغفلة . فان أقصى عمرك فى الدنيا مائة سنة . فهب أن مملكة وجه الأرض تسلم لك من المشرق الى المغرب فى مائة سنة أليس تفوتك بها المملكة فى مدة لا آخر لها وهى مملكة الآخرة ، فان كان لايدخل فى خيالك طول الأبد ، فقدر الدنيا كلها مملوءة ذرة فقدر طائرا يأخذ فى كل ألف سنة حبة واحدة فتفنى الذرة ولم يقض من الأبد شيء لأن الباقى أيضا لا نهاية له كما كان قبل ذلك ، وأنت ترى نفسك ترضى بتعب الاسفار اما فى تجارة أو طلب رياسة ، وهذا التعب الناجز لأجل شيء موهوم ربما يدركك الموت قبله وربما لايصفو لك أن ظفرت به وانما ترضى بذلك لأنك تستحقر التعب سنة مثلا بالاضافة الى بقية العمر ، وجملة عمرك بالاضافة الى الأبد أقل من سنة بالاضافة الى عمرك بل لا اضافة بينهما . فتفكر فيه لينكشف لك جهلك على القرب ، ولعلك تقول انما أفعل ذلك على توقع العفو فان الله تعالى كريم رحيم . فأقول ولم لا تترك الحراثة والتجارة وطلب المال على توقع العثور على كنز فى خراب فان الله كريم لاينقص من ملكه شيء لو عرفك فى منامك كنزا من الكنوز حتى تأخذه .

« فان قلت » ذلك نادرا وان كان داخلا فى قدرة الله تعالى « فاعلم » أن توقع العفو مع خراب الأعمال والأخلاق كتوقع كنز فى خراب بل أبعد منه وأندر ، وقد نبهك الله تعالى عليه وقال « وأن ليس للانسان الا ما سعى » وقال الله تعالى « أم تجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض » الآية ورغبك عن طلب المال ، فقال الله تعالى

« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » فما بالك تكذب بكرمه فى الدنيا ولا تتكل عليه ، ثم تخدع نفسك بالكرم فى الآخرة وأنت تعلم أن رب الدنيا والآخرة واحد .

فصل

ولعلك تقول عواقب أمور الدنيا قد انكشفت لى بالعيان واطمأن قلبى اليها . وأما أمر الآخرة فلم أشاهده ولست أجد التصديق الحقيقى فى قلبى . فلذلك فترت رغبتى فى ترك الدنيا نقداً بما هو موعود نسبة ولست أثق به « فأقول » لو كنت من أرباب البصائر لانكشف لك أمر الآخرة صريحاً كما انكشف أمر الدنيا . واذا لم تكن من أهله فتفكر فى أقاويل أرباب البصائر فان الناس فى أمر الآخرة أربعة أصناف « صنف » أثبتوا الجنة والنار كما ورد به القرآن . وقد سمعت أنواع نعيمها وأنكال جحيمها « وصنف » لم يثبتوا اللذات والآلام الحسية بل أثبتوهما على سبيل التخيل كما فى المنام حتى يكون كل واحد فى جنة أو نار يراها وحده . وزعموا أن تأثير ذلك فيه كتأثير الحقيقة لأن تألم النائم كتألم اليقظان وانما يخلص عنه بالتنبه . وذلك فى الآخرة دائم لا انقطاع له « وصنف » ثالث أثبتوا آلاما عقلية ، ولذات الملك عقلية ، وزعموا أن ذلك أعظم من الحسية ، ومثلوا ذلك باستشعار لذة واستشعار زوالها . فان زوال الملك يؤثر آلاما كثيرة بدنية على ما يظفر به عدوه ويأخذ مملكته ويستسخره مع أن ظفر العدو لا يؤلم البدن . وهؤلاء هم أصناف النظار أعنى الأصناف الثلاثة ، وهم : الأنبياء والأولياء والحكماء ، وكلهم اتفقوا على اثبات سعادة مؤبدة وشقاوة مؤبدة . فان السعادة لا تنال الا بترك الدنيا والاقبال على الله عز وجل . ولو مرضت ولم تكن من أهل البصيرة فى طب ورأيت أفاضل الأطباء قد اتفقوا على شىء لم تتوقف فى اتباعهم « وصنف رابع » ليسوا من النظار فى الأمور الالهية بل من الأطباء والمنجمين اقتصر نظرهم على الطبائع الأربع ومزاجها . ورأوا قوام الروح موقوفاً عليها ولم يتفطنوا لحقيقة الروح الالهى الحقيقى الذى هو العارف بالله تعالى بل لم يدركوا

الا الروح الجسمانى الذى هو بخار أنضجته حرارة القلب ينتشر فى العروق الضوارب الى جميع البد فيقوم به الحس والحركة وهى الروح التى توجد للبهائم أيضا .

« فأما الروح الخاص الانسانى » المنسوب الى الله سبحانه حيث قال « ونفخت فيه من روحى » فلم يتفطنوا لها فظنوا أن الموت عدم . وأنه يرجع الى فساد المزاج وأنت فى حق هؤلاء بين أمرين : اما أن تجوز غلطهم أو تعلم قطعا صحة قولهم فان جوزت خطأهم لزمك الاعراض عن الدنيا بمجرد الاحتمال فانك لو كنت صادق الجوع وظفرت بطعام وهمست بأكله فأخبرك صبى أنفيه سما وأن حية ولغت فيه قاسيت الجوع وتركت الأكل لأنك تقول ان كان كاذبا فليس تفوتنى الا لذة الأكل . وان كان صادقا ففيه الهلاك . وبمثل هذا الاحتمال لا يمكن الهجوم عليه فليت شعرى مع احتمال الخلود فى النار كيف يستحقر العاقل الهجوم عليه فكيف لايكون كاليقين التام فى الحذر منه حتى تنبه الشاعر عليه مع ركاكة عقله فقال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما   لا تحشر الأموات اليكما

ان صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولى فالخسارة عليكما

فان قلت انى أعلم ضرورة صدق هؤلاء فان الموت عدم وأنه لا عقاب ولا ثواب فان الأنبياء والأولياء مغرورون أو ملبسون وانما الذى انكشف له حقيقة الحق هو هذا الطبيب الجاهل وزعمت انى أعلم ذلك كما أعلم أن الاثنين أكثر من الواحد حتى لايخالجنى فيه ريب . فيدل هذا على فساد المزاج وركاكة العقل والبعد عن قبول العلاج . ولكن مع هذا يقال لك ان كنت تطلب الراحة فى الدنيا فقد يتقاضاك عقلك أيضا مجاهدة الشهوات وكسرها . فان الراحة فى الحرية والخلاص عن كسر الشهوات لا فى اتباعها فانها اذا سلطت على النفس فهى آلام ناجزة تحمل النفس على احتمال كل ذل ومشقة وما المستريح فى الدنيا الا تاركها والزاهد فيها . وأما طالبها فلا يزال منها فى عناء . فالمعطل أيضا أن عقل قليلا ترك

الدنيا لكثرة عنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها . فان لم تكن فى أمر الآخرة على تخمين ولا من مشاهدة آفات الدنيا على يقين فما أنت الا من الحمقى المغرورين ولتعلمن نبأه بعد حين ولذلك قال الله تعالى « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .

القسم الرابع

فى الأخلاق المحمودة وهى أيضا عشرة أصول

الأصل الأول فى التوبة

فانها مبدأ طريق السالكين ومفتاح سعادة المريدين قال الله تعالى « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وقال الله تعالى « وتوبوا الى الله جميعا » وقال النبى عليه السلام « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » وقال عليه السلام « الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض فلاة دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فانفلت فطلبها حتى اشتد عليه الجوع والعطش أو ما شاء الله عز وجل وقال أرجع الى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده وعليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده » .

فصل

حقيقة التوبة الرجوع عن طريق البعد الى طريق القرب ولكن لها ركن ومبدأ وكمال .

أما مبدؤها فهو الايمان ومعناه سطوع نور المعرفة على القلب حتى يتضح فيه أن الذنوب سموم مهلكة فيشتعل منه نار الخوف والندم وينبعث من هذه النار صدق الرغبة فى التلافى والحذر . أما فى الحال فبترك الذنوب . وأما فى الاستقبال فبالعزم على الترك وأما فى الماضى فبالتلافى على حسب الامكان وبذلك يحصل الكمال .

فصـــــل

اذا عرفت حقيقة التوبة انكشف لك أنها واجبة على كل أحد وفى كل حال ولذلك قال الله تعالى « وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون » فخاطب الجميع مطلقا .

أما وجوبها فلأن معناها معرفة كون الذنوب سموما مهلكة والانبعاث لتركهـا وهو جزء عن الايمان أعنى هـذه المعرفة فكيف لاتجب : وأما وجوبها على كل واحد فهو أن الانسان مركب من صفات بهيمية وسبعية وشيطانية وربوبية حتى يصـدر من البهيمية الشهوة والشره والفجور . ومن السبعية الغضب والحسد والعداوة والبغضاء . ومن الشيطانية المكر والحيلة والخداع . ومن الربوبية الكبر والعز وحب المدح والاستيلاء . فاصول هذه الأخلاق الأربع عجنت فى طينة الانسان عجنا محكما لايكاد يتخلص منها . وانما ينجو من ظلماتها بنور الايمان المستفاد من العقل والشرع فأول ما يخلق فى الآدمى البهيمية فيغلب عليه الشره والشهوة فى الصبا . ثم يخلق فيه السبعية فيغلب عليه المعاداة والمنافسة . ثم يخلق فيه الشيطانية فيغلب عليه المكر والخداع اذ تدعوه السبعية والبهيمية الى أن يستعمل كياسته فى حيل قضاء الشهوة وتنفيذ الغضب . ثم يظهر فيه بعد ذلك صفات الربوبية وهى الكبر والاستيلاء وطلب العلو .

ثم بعد ذلك يخلق العقل الذى يظهر فيه نور الايمان وهو من حزب الله وجنود الملائكة وتلك الصفات من جنود الشيطان وجنود العقل يكمل عند الأربعين ويبدو أصله عند البلوغ . وأما سائر جنود الشيطان يكون قد سبق الى القلب قبل البلوغ واستولى عليه وألفته النفس واسترسلت فى الشهوات متـابعة لها الى أن يرد نور العقل فيقوم القتـال والتطارد بينهما فى معركة القلب . فان ضعف جند العقل ونور الايمان لم يقو على ازعاج جنود الشيطان فتبقى جنود الشيطان مستقرة آخراً كما سبق الى النزول أولا . وقد سلم للشيطان مملكة القلب وهذا القتال ضرورى فى فطرة الآدمى اذ لا يتسع له خلقة الولد لما لا يتسع له خلقة الأب . وانما

حكى لك حال آدم صلوات الله عليه لتتنبه به أن ذلك كان مكتوبا عليه وهو مكتوب على جميع أولاده فى القضاء الأزلى الذى لا يقبل التبديل فاذاً لايستغنى أحد عن التوبة .

فصـــــل

وأما وجوبها فى كل حال فلأن الانسان لا يخلو فى جميع أحواله عن ذنب فى جوارحه أو فى قلبه ولا يخلو عن خلق من الأخلاق الذميمة ممـا يجب تزكية القلب عنه فانه مبعد عن الله والاشتغال باماطتهتوبة لأنه رجوع عن طريق البعـد الى طريق القرب خلا عن جميع ذلك فلا يخلو عن غفلة عن الله وذلك أيضا طريق البعد ويلزمه الرجوع عنـه بالذكر ولذلك قال الله تعالى « واذكر ربك اذا نسيت » وان كان حاضراً على الدوام . وانى يتصور ذلك فلا يخلو عن ملازمة مقام نازل عن المقامات الرفيعة وراءه . وعليه أن يترقى منه الى ما فوقه ومهما ترقى منه أستغفر عن مقامه الذى خلفه لأنه تقصير بالاضافة الى ما أدركه وذلك لا نهاية له . فلذلك قال عليه السلام « وأنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم والليلة سبعين مرة » . وكل ذلك كان توبة منه الا أن توبة العوام عن الذنوب الظاهرة . وتوبة الصالحين عن الأخلاق الذميمة البـاطنة وتوبة المتقين عن مواقع الريبة . وتوبة المحبين عن الغفلة المنسية للذكر . وتوبة العارفين عن الوقوف على مقام يتصور أن يكون وراءه مقام . والمقامات فىالقرب من الله لا نهاية لها فتوبة العارف لانهاية لها أيضا .

فصـــــل

التوبة اذا اجتمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة . ولا يخفى عليك ذلك ان فهمت معنى القبول ، فمعنى القبول أن يحصل فى قلبك استعداد القبول لتجلى أنوار المعرفة فى القلب ، وانما قلبك كالمرآة يحجبـه عن التجلى كدورات الشهوة والرغبة فيها ويرتفع من كل ذنب ظلمة اليه ، ومن كل حسنة نور اليه . فالحسنات تصقل النفس ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « اتبع السيئة الحسنة تمحها » ونسبة التوبة الى القلب نسبة

الصابون الى الثوب ولابد أن يزول منه الوسخ اذا استعمل فيه على وجهه . ومن تاب فانما يشك فى قبول التوبة لأنه ليس يستيقن تمام شروطها كما أن من شرب المسهل لايستيقن حصول الاسهال به لأنه لايدرى وجود تمام الشرائط فى أدويتها ولو تصور أن يعلم ذلك لتصور أن يعلم القبول فى حق الشخص المعين ، ولكن هذا الشك فى الأعيان لا يشككنا فى أن التوبة فى نفسها بطريق القبول لا محالة .

فصل

علاج التوبة حل عقدة الاصرار فانه لا مانع منها سوى الاصرار ولا حامل عليه سوى الغفلة والشهوة ، وذلك مرض فى القلب ، وعلاجه كعلاج أمراض البدن لكن هذا المرض أكثر من مرض الأبدان لثلاثة أسباب « أحدها » أنه من مرض لايعرف صاحبه أنه مريض وهو كبرص على وجه لامرآة له فانه لا يعالجه لأنه لا يعرفه ولو أخبره غيره ربما لم يصدقه « الثانى » أن عاقبة هذا المرض لم يشاهدها الانسان ولم يجربها . فلذلك تراه يتكل على عفو الله ويجتهد فى علاج مرض البدن غاية الجهد « الثالث » وهو الداء العضال فقد الأطباء . فان الطبيب هو العالم العامل ، وقد مرض العلماء فى هذه الأعصار مرضا عسر عليهم علاج أنفسهم لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب ذلك على العلماء واضطروا الى الكف عن تحذير الخلق من الدنيا كيلا تنكشف فضيحتهم فافتضحوا لما اصطلحوا على الاقبال على الدنيا والتجاذب لها والتكالب عليها .

فلهذا السبب عم الداء ، وانقطع الدواء ، واشتغل الأطباء بفنون الاغواء فليتهم اذا لم يصلحوا لم يفسدوا (١) . وليتهم سكتوا وما نطقوا بل صار كل واحد كأنه صخرة فى فم الوادى لا هى تشرب ولا تترك الماء ليشربه غيرها . وجملة القول فى علاجه أن تنظر فى سبب الأصرار وهو يرجع الى خمسة أبواب .

---

(١) نعم ما قال بعض الشعراء فيما له مناسبة بهذا البحث :

يا معشر القراء يا ملح البلد   ما يصلح الملح اذا الملح فسد

« أولها » أن العقاب الموعود ليس بنقد والطبع يستهين بما لايوجد محققا في الحال ، وعلاجه أن تتفكر لتعلم أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت . وأن الموت أقرب الى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعله في آخر أيامه أو في آخر سنة من عمره ثم يتفكر أنه كيف يتعب في الأسفار فيركب الأخطار خوفا من الفقر في الاستقبال .

« الثاني » أن اللذات والشهوات أخذت بمخنقه في الحال فليس يقدر على قلعها ، وعلاجه أن يتفكر أنه لو ذكر له طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وهو ألذ الأشياء عنده كيف يتركه . فليعلم أن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أصدق من الطبيب النصراني ، والخلود في النار أشد من الموت بالمرض وليقرر على نفسه أنه اذا كان يشق عليه ترك اللذات أياما قلائل فكيف لايشق عليه ملابسة النار والحرمان عن الفردوس ونعيمه أبد الدهر .

« الثالث » أنه يسوف بالتوبة يوما فيوما وعلاجه أن يتفكر ويعلم أنه بناء خطير السعادة والشقاوة على ما ليس اليه جهل فمن أين يعلم أنه يبقى الى أن يتوب ، وان أكثر صياح أهل النار من التسويف لأنهم سوفوا حتى فاجأهم مرض ساقهم الى الموت كيف وانما يسوف لأنه يعجز عن قمع الشهوات في الحال فان كان ينتظر يوما يسهل فيه قمع الشهوات فهذا يوم لم يخلق أصلا . بل مثاله مثال امرىء يريد أن يقلع شجرة عجز عنها لضعفه وقوة رسوخ الشجرة فيؤخر الى السنة القابلة وهو يعلم أن الشجرة تزداد كل يوم رسوخا وقوته تزداد كل يوم قصورا ونقصانا وذلك غاية الجهل .

« الرابع » أن يعد نفسه بالكرم والعفو وذلك غاية الحمق أوردها الشيطان في معرض الدين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى » .

« الخامس » أن يكون والعياذ بالله شاكا في أمر الآخرة ، وقد ذكرنا علاجه في خاتمة الأخلاق الذميمة .

فصـــل

التوبة من الذنوب كلها مهمة واجبـة وعن الكبائر أهم والاصرار على الصغيرة أيضـا كبيرة فلا صـغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع رجوع واستغفار ، وتواتر الصغائر عظيم التأثير فى تسويد القلب وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر فانه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر ، وتعظم الصغيرة بأسباب « أحدها » أن يستصغرها العبد ويستهين بها فلا يغتم بسببها ، قال بعضهم الذنب الذى لا يغفر قول العبد ليت كل شيء عملته مثل هـذا « الثانى » السرور بها والتبجح بسببها واعتقـاد التمكن منها نعمة حتى أن المذنب ليفتخر فيقول ما رأيتنى كيف شتمتـه وكيف مزقت عرضه وكيف خدعته فى المعاملة وذلك عظيم التأثير فى تسويد القلب . « الثالث » أن يتهاون بستر الله عليه ويظن أن ذلك لكرامة عند الله تعالى ولا يدرى أنه ممقوت ، وقد أمهل ليزداد اثما فيكون فى الدرك الأسفل من النار « الرابع » أن يجـاهر بالذنب ويظهره أو يذكره بعـد فعله ، وفى الخبر كل الناس معافى الا المجاهرون « الخامس » أن تصدر الصغيرة عن عالم يقتدى به فذلك عظيم لأنه يبقى بعد موته . فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة .

وروى أن بعض علماء بنى اسرائيل تاب عن ذنوبه وبدعته فأوحى الله الى نبى زمانه أن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولـكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار . وعلى الجملة فلا باعث على التوبة الا الخوف الصادر عن البصيرة والمعرفة . فلنذكر فضيلة الخوف .

الأصل الثانى فى الخوف

وقد جمع الله تعالى للخائفين الهـدى والرحمة والعلم والرضوان وناهيك بذلك فضلا فقال تعالى « هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » وقال « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال الله تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » وقال صلى الله عليه وسلم «رأس الحكمة

مخافة الله » وقال عليه السلام « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله تعالى خوفه الله من كل شيء » وقال عليه السلام « قال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فاذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة . واذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة » .

فصل

« اعلم » ان حقيقة الخوف هى تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال . وقد يكون ذلك الخوف من جريان ذنوب . وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التى توجب الخوف لا محالة — وهذا أكمل وأتم لأن من عرف الله خافه بالضرورة . ولذلك قال الله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام « خفنى كما تخاف السبع الضارى » ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله تعالى » « واعلم » أن الواقع فى مخالب السبع انما لايخافه اذا لم يعرف السبع . فان من علم أن من صفة السبع أن يهلكه ولا يبالى فان تركه لم يكن لرقته عليه وشفقته فانه أحقر عنده من أن يشفق عليه فلا بد من أن يخاف ولله المثلى الأعلى وهو العزيز الحكيم . ولكن من عرف أنه لو أهلك الأولين والآخرين لم يبال ولم ينقص شيء من ملكه « قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا » وكم أهلك من عباده فى الدنيا وعرضهم لأنواع العذاب ولم تأخذه رقة ولا شفقة فان ذلك محال عليه فلا بد وأن يخاف . فمعرفة الجلال والعزة والاستغناء يورث الهيبة بالضرورة وهذا أكمل أنواع الخوف وأفضلها .

فصل

علاج الخوف وتحصيله على رتبتين « احداهما » معرفة الله تعالى فانها توجب الخوف بالضرورة ، فان الواقع فى مخالب السبع لا يحتاج الى علاج ليخاف ان كان يعرف السبع . ومن عرف جلال الله واستغناءه وأنه خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا ،

وأنه تمت كلمته بالسعادة والشقاوة فى حق كل أحد صدقا وعدلا ، وان ذلك لا يتصور تغييره ولا يصرفه عن تنفيذ قضائه الأزلى صارف ، وهو لا يدرى ما الذى سبق به القضاء فى حقه ، ولا يدرى ما الذى يختم له به واحتمل عنده أن يكون مقضيا له بشقاوة الأبد . فهذا لا يتصور أن لا يخاف .

وأما من عجز عن حقيقة المعرفة فعلاجه النظر الى الخائفين ومشاهدة أحوالهم أو سماع ذلك . فان أخوف خلق الله الأنبياء والأولياء والعلماء وأهل البصيرة وأعظم الخلق أمنا الغافلون الأغبياء الذين لا يمتد نظرهم لا الى السابقة ولا الى الخاتمة ولا الى معرفة جلال الله تعالى — وهذا كما أن الصبى لا يخاف الحية ما لم ينظر الى أبيه يخافها ويهرب منها وترتعد فرائصه اذا رآها فينظر اليه فيقلده ويستشعر خوفه وان لم يعرف بالحقيقة صفة الحية . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما جاءنى جبرائيل عليه السلام قط الا وهو ترتعد فرائصه فرقا (١) من النار » ، وقيل لما ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبرائيل وميكائيل يبكيان . فأوحى الله سبحانه اليهما مالكما تبكيان . قالا : يا رب ما نأمن مكرك . فقال الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكرى . ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . وقيل لما خلق الله تعالى النار طارت أفئدة الملائكة عن أماكنها فلما خلق بنى آدم عادت وكان أزيز (٢) قلب ابراهيم عليه السلام يسمع فى الصلاة من مسيرة ميل . وبقى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت الرعى (٣) من دموعه ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لطائر : ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق ، وقال أبو ذر رضى الله عنه : وددت لو أنى شجرة تعضد (٤) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : وددت لو أنى كنت نسيا منسيا . وقد حكينا أحوال الخائفين فى « كتاب

---

(١) فرق فرقا من باب تعب، خاف .

(٢) أزت القدر تئز وتؤز أزا وأزيزا وأزازا بالفتح وائتزت وتأزت اشتد غليانها أو هو غليان ليس بالشديد والنار أوقدها والأزز محركة امتلاء المجلس . (٣) الرعى بالكسر الكلأ جمعه أرعاء .

(٤) أى تقطع وعضده قطعه .

الخـــوف » فليتأمل القاصر عن ذروة المعرفة أحوال الأنبياء والأوليــاء والعارفين . ليعلم أنه أحق بالخوف منهم ، واذا تأمــل ذلك بالحقيقة غلبه خوفه .

فصــل

الخوف سوط يسوق العبد الى السعادة ولا ينبغى أن يفرط بحيث يورث القنوط فذلك مذموم (١) . بل اذا غلب ينبغى أن يمــزج الرجاء به . نعم ينبغى أن يغلب الخوف الرجاء مادام العبد مقارنا للذنوب ، فأما المطيع المتجرد لله تعالى فينبغى أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، مثل عمر رضى الله عنه حيث قال : لو نودى ليدخلن الجنة جميع الخلق الا رجل واحد لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودى ليدخلن النار جميع الخلق الا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، وأما اذا قرب الموت فالرجاء وحسن الظن بربه أولى به . قال صلى الله عليه وسلم « لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه » .

والرجاء يخالف التمنى فان من لا يتعاهد الأرض ولا يبث البذر ثم ينتظر الزرع فهو متمن مغــرور فليس براج . انما الراجى من تعهد الأرض وسقاها ، وبث البذر وحصل كل سبب يتعلق باختياره ثم بقى يرجو أن يدفع الله الصــواعق والقواطع وأن يمــكنه من الحصاد بعد الانبات ، ولذلك قال عز وجل «ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

وبالجملة فثمرة الرجاء الترغيب فى الطلب ، وثمرة الخوف الترغيب فى الهرب ، ومن رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا هــرب منه ، وأقل درجات الخوف ما يحمل على ترك الذنوب وعلى الاعراض عن الدنيا ، وما لا يحمل على ذلك فهو حديث نفس وخواطر لا وزن لها تشبه رقة النساء . ولا ثمرة لها . بل الخوف اذا تم أثمر الزهد فى الدنيا . فلنذكر الزهد ومعناه .

---

(١) يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت   ان الكبائر فى الغفران كاللمم

الأصل الثالث فى الزهد

قال الله تعالى « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى» ، وقال « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب » ، وقال الله تعالى فى حق قارون « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم » وقال « الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا » . فبين أن الزهد من ثمرات العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغبة » .

ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا » ، وعن معنى الشرح قال عليه السلام « ان النور اذا دخل القلب انشرح الصدر وانفسح » قيل وهل لذلك من علامة ، قال « نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله » وقال عليه السلام « استحيوا من الله حق الحياء » وقيل انا نستحى ، قال عليه السلام « تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون » ، وقال عليه السلام « من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه وأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما الى دار السلام » ، وقال عليه السلام « لا يستكمل العبد حقيقة الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشىء أحب اليه من كثرته » ، وقال عليه السلام « اذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه » ، وقال عليه السلام « ازهد

في الدنيا يحبك الله تعالى وازهد فيما في أيدى الناس يحبك الناس » ، وقال عليه السلام « من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا » .

فصل

للزهد في الدنيا حقيقة وأصل وثمرة (١) « أما حقيقته » فهو عزوف النفس (٢) عن الدنيا وانزواؤها (٣) عنها طوعا مع القدرة عليها ، وأصلها العلم والنور الذى يشرق في القلب حتى ينشرح به الصدر ، ويتضح به أن الآخرة خير وأبقى وأن نسبة الدنيا الى الآخرة أقل من نسبة خزفة الى جوهرة « وثمرتها » القناعة من الدنيا بقدر الضرورة وهو قدر زاد الراكب ، فالأصل نور المعرفة فيثمر حال الانزواء ، ويظهر على الجوارح بالكف الا عن قدر الضرورة في زاد الطريق « والضرورى » من زاد الطريق مسكن وملبس ومطعم وأثاث .

« أما المطعم » فله طول وعرض (أما طوله) فبالاضافة الى الزمان (وأقصر درجاته) الاقتصار على دفع الجوع في الحال ، فاذا دفعه غدوة لم يدخر شيئا لعشائه (وأوسطه) أن يدخر لشهر الى أربعين يوما فقط (وأدناه) أن يدخر لسنة . فان جاوز ذلك خرج عن جميع أبواب الزهد الا أن لا يكون له كسب ولا يأخذ من الأيدى كداود الطائى فانه ملك عشرين دينارا فامسكها وقنع بها عشرين سنة ، فذلك لا يبطل مقام الزهد ودرجته في الآخرة الا عند من يشرط التوكل في الزهد (وأما عرضه) فأقله نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد ، والزيادة عليه تبطل رتبة الزهد ، وأما الجنس فأقله ما يقوت ولو النخالة ، وأوسطه خبز الشعير ، وأعلاه خبز البر غير منخول فان نخل فهو تنعم لا زهد . فأما

---

(١) الزهد في اللغة ترك الميل الى الشيء ، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والاعراض عنها ، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة ، انتهى ، كتبه مصححه : محيى الدين صبرى الكردى .

(٢) عزفت نفسى عنه تعزف عزوفا زهدت فيه وانصرفت عنه .

(٣) والانزواء بالفارسى « كوشه نشستن وازخلق فارغ بودن .

الادام فأقله الخل والبقل والملح . وأوسطه الادهان وأعلاه اللحم . وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين . فاذا دام لم يكن صاحبه زاهدا . قالت عائشة رضى الله عنها كان يأتى أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ، وقيل ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر .

« وأما الملبس » فأقله ما يستر العورة ويدفع الحر والبرد . وأعلاه قميص وسراويل ومنديل من الجنس الخشن . ويكون بحيث لو غسل ثوبه لم يجد غيره . فان كان صاحب القميصين لم يكن زاهدا . قال أبو ذو (١) أخرجت عائشة رضى الله عنها كساء ملبدا وازارا غليظا . فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خميصة (٢) لها علم فلما سلم قال « شغلنى النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبى جهم » الحديث . وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد (٣) فلما سلم عن صلاته ، قال « أعيدوا الشراك الخلق فانى نظرت اليه فى الصلاة » . وكان عليه الصلاة والسلام قد احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا . فقال عليه السلام « أعجبنى حسنهما فتواضعت لربى خشية أن يمقتنى » ثم خرج بهما فدفعهما الى أول مسكين رآه . وقد عد على قميص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم . واشترى على رضوان الله عليه فى خلافته ثوبا بثلاثة دراهم وقطع كميه من الرسغين ، وقال الحمد لله الذى هذا من رياشه . وقال بعضهم قومت ثوب سفيان ونعله بدرهم ودانقين . وقال على رضوان الله عليه : ان الله عز وجل أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره .

وأما المسكن » فأدناه أن تقنع بزاوية فى مسجد أو رباط كأهل الصفة . وأعلاه أن يطلب لنفسه موضعا خاصا وهى حجرة اما بشراء أو

---

(١) وفى النسخة الكردية قال ابو برزة الخ .
(٢) الخميصة هى ثوب خز أو صوف معلم .
(٣) والسير بالفتح الذى يقد من الجلد .

اجارة بشرط أن لا يزيد سعته على قدر الحاجة ولا يرفع بناؤه ولا يهتم بتجصيصه . وفى الأثر أن من يرفع بناءه فوق ستة أذرع ناداه مناد الى أين يا أفسق الفاسقين . ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : مر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا (١) فقال « ان الأمر أعجل من ذلك » واتخذ نوح عليه السلام بيتا من خص . فقيل له لو شئت لاتخذته من الطين . فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال صلى الله عليه وسلم « من بنى فوق مايكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة » ، وقال عليه السلام « كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما أكن من حر وبرد » .

« وأما » أثاث البيت ففيه أيضا درجات . وأدناها حال عيسى بن مريم عليه السلام اذ لم يكن معه الا مشط وكوز . فرأى انسانا يمشط بأصبعه فرمى المشط . ورأى آخر يشرب بيده فرمى الكوز (وأوسطه) أن يستعمل الجنس الخشن واحدا فى كل غرض ويجتهد أن يستعمل واحدا فى أغراض .

وقال عمر رضى الله عنه لعمير بن سعيد وهو أمير حمص : ما معك من الدنيا . فقال : معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حية ان لقيتها ، ومعى جرابى أحمل فيه طعامى ، ومعى قصعتى آكل فيها وأغسل رأسى وثوبى ، ومعى مطهرتى أحمل فيها شرابى ووضوئى فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى ، فقال : صدقت ، وقال الحسن : أدركت سبعين من الاخيار ما لأحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا . وكان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف ، وعباءة خشنة . فهذه سيرة الزهاد فى الدنيا . فمن حرم هذه الرتبة فلا أقل من أن يتحسر على فواتها ويجتهد أن يكون قربه منهم أكثر من قربه من المتنعمين فى الدنيا .

---

(١) الخص بالضم البيت من القصب .

فصـــل

الزهد على درجات « احداها » أن يزهد ونفسه مائلة الى الدنيا ولكن يجاهدها ، وهذا متزهد وليس بزاهد ، ولكن بداية الزهد التزهد « الثانية » أن تنفر نفسه عن الدنيا ولا تميل اليها لعلمه بأن الجمع بينها وبين نعيم الآخرة غير ممكن فتسمح نفسه بتركها كما تسمح نفس من يبذل درهما ليشتري جوهرة وان كان الدرهم محبوبا عنده ، وهذا زهد « الثالثة » أن لا تميل نفسه الى الدنيا ولا تنفر عنها بل يكون وجودها وعدمها عنده بمثابة واحدة ويكون المال عنده كالماء وخزانة الله تعالى كالبحر فلا يلتفت قلبه اليه رغبة ونفــورا ، وهذا هو الأكمل لأن الذى يبغض شيئا فهو مشغول به كالذى يحبـه ، ولذلك ذم الدنيا قوم عند رابعة العدوية ، فقالت : لولا قذرها فى قلوبكم ماذممتموها ، وحمل الى عائشة رضى الله عنها مائة ألف درهم فلم تنفر عنها ، ولـــكن فرقتها فى يومها . فقالت خادمتها : لو اشتريت بدرهم لحما تفطرين عليه . فقالت : لو ذكرتنى لفعلت . فهذا هو الغنى وهو أكمل من الزهد ، ولكنه مطية غرور الحمقى اذ كل مغرور يستشعر فى نفسه أن لا عــلاقة لقلبه مع الدنيا ، وعلامة ذلك أن لا يدرك الفرق بين أن يسرق جميع ماله أو يسرق مال غيره . فما دام يدرك التفرقة فهو مشغول به .

فصـــل

كمال الزهد هو الزهد فى الزهد بأن لا يعتد به ولا يراه منصبا ، فان من ترك الدنيا ، وظن أنه ترك شيئا فقد عظم الدنيا اذ الدنيا عنــد ذوى البصائر لا شيء ، وصاحبها كمن منعه عن دار الملك كلب على بابه فألقى اليه لقمة خبز وشغله بها ودخل دار الملك وجلس على سرير الملك فان الشيطان كلب على باب الله تعالى ، والدنيا كلها أقل من لقمة بالاضافة الى الملك اذ اللقمة لها نسبة الى الملك اذ يفنى بأمثالها والآخرة لا يتصور أن تفنى بأمثال الدنيا لأنها لا نهاية لها .

فصـــل

الزهد باعتبار الباعث عليه على ثلاث درجات « احداها » أن يكون باعثه الخوف من النار وهذا زهد الخائفين «الثانية» وهى أعلى منه أن يكون باعثه الرغبة فى نعيم الآخـرة . وهذا زهد الراجين والعبادة على الرجاء أفضل منها على الخوف لأن الرجاء يقتضى المحبة « الثالثة » وهى أعلاها أن يكون الباعـث عليه الترفع عن الالتفات الى ما سوى الحق تنزيها للنفس عنه واستحقارا لما سوى الله . وهذا زهـد العارفين وهو الزهد المحقق وما قبله معاملة اذ ينزل صاحبها عن شىء عاجلا ليعتاض عنه أضعافه آجلا .

فصـــل

الزهد باعتبار ما فيه من الزهد على درجات « وكماله » الزهد فى كل ما سوى الله تعالى فى الدنيا والآخرة « ودونه » الزهد فى الدنيا خاصة دون الآخرة « ثم يدخل » فيه كل ما فيه حظ وتمتع فى الدنيا من مال وجاه وتنعم ، ودون ذلك أن يزهد فى المال دون الجاه أو فى بعض الأشياء دون البعض . وذلك ضعيف لأن الجاه ألذ وأشهى من المال ؛ فالزهد فيه أهم .

فصـــل

الزهد أن تنزوى عن الدنيا طوعا مع القدرة عليها . أما ان انزوت الدنيا عنك وأنت راغب فيها فذلك فقر وليس بزهد ، ولكن للفقر أيضا فضل على الغنى لأنه منع عن التمتع بالدنيا قهرا وهذا هو أفضل ممن مكن من الدنيا والتمتع بها حتى ألفها واطمأن اليها ، ولم يتجاف قلبه عنها فيعظم الألم والحسرة عند الموت ، وتكون الدنيا كأنها جنة الغنى . وتكون كأنها سجن الفقير اذ يشتهى الخلاص من آلامها ، والفقـر من أسباب السعادة . قال النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى يحمى عبده عن الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه عن الطعام والشراب»

وقال عليه السلام « يدخل فقراء أمتي الجنه قبل أغنيائها بخمسمائة عام» وقال عليه السلام « خير هذه الأمة فقراؤها » ، وقال عليه السلام « اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين . واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته » ، وقال موسى عليه السلام : يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك . فقال كل فقير .

« واعلم » أن الفقير ان كان قانعا بما أعطى غير شديد الحرص على الطلب فدرجته قريب من درجة الزاهد . قال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الفقراء الصبر هم جلساء الله تبارك وتعالى » ، وقال عليه السلام « أحب العباد الى الله تعالى الفقير القانع » . وأوحى الله تعالى الى اسماعيل صلوات الله عليه وسلامه « اطلبني عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ، قال : الفقراء الصادقون » . وعلى الجملة انما يعظم ثواب الفقير عند القناعة والصبر والرضى . والصبر على الفقر مبدأ الزهد . ولا تتم هذه المقامات الا بالصبر فلنذكره .

الأصل الرابع فى الصبر

قال الله تعالى « واصبروا ان الله مع الصابرين » ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم ، فقال عز من قائل « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ، وقال تعالى « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، وقال تعالى « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » ، وقال تعالى « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »، وذكر الله سبحانه في القرآن الصبر في نيف وسبعين موضعا . وقال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الايمان » ، وقال عليه السلام « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، وقال عليه السلام « الصبر كنز من كنوز الجنة » . سئل النبى عليه السلام مرة عن الايمان فقال « هو الصبر » ، وقال عيسى عليه السلام : انكم لا تدركون ما تحبون الا بصبركم على ما تكرهون .

فصـــل

حقيقة الصبر ثبات باعث الدين فى مقابلة باعــث الهوى وهو من خاصية الآدمى الذى هو كالمركب من شعب ملكية وبهيمية ، لأن البهيمية لم يسلط عليها الا دواعى الشهوة ، والملائكة لم يسلط عليهم الشهوة بل جردوا للشوق الى مطالعة جمال الحضرة الربوية والابتهاج بدرجة القرب منها فهم يسبحون الليل والنهــار لا يفترون فليس فيهــم داعية الشهوة ، فلم يتصــور الصبر للملك ولا بهيمة بل الانسان سلط عليه جندان يتطاردان « احدهما » من حــزب الله وملائكته ، وهو العقــل وبواعثه « والثانى » من جنود الشيطان ، وهى الشهــوات ودواعيها ، وبعد البلوغ تظهر بواعــث الدين والعقل ، اذ يحمل على النظــر الى العواقب وتبتدىء بقتال جند الشيطان فان ثبت باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى حتى غلبه حصل مقام الصبر اذ لا يتصــور الصبر الا عند تعارض الباعثين على التناقض ، وذلك كالصبر على شرب الدواء البشيع اذ يدعو اليه داعى العقل ويمنع منه داعى الشهوة . وكل من غلبته شهوته لم يعزم عليه ومن غلب عقله شهوته فصبر على مــرارته لينال الشفاء . وشطر الايمان انما يتم بالصبر ــ ولذلك قال النبى عليه السلام « الصبر نصف الايمان » لأن الايمان يطلق على المعارف والأعمال جميعا وسائر الأعمال فى طرفى الكف والاقدام ، والتزكية والتحلية لا يتم الا بالصبر لأن جملة أعمال الايمان على خلاف باعث الشهوة فلا يتم الا بثبات باعث الدين فى مقابلته ، ولذلك قال عليه السلام « الصوم نصف الصبر » لأن الصبر تارة فى مقابلة داعى الشهوة ، وتارة فى مقابلة داعى الغضب . الصوم هو كسر لداعية الشهوة .

فصـــل

الصبر له ثلاث درجات بحسب ضعفه وقوته « الدرجة العليا » أن تقمع داعية الهوى بالكلية حتى لا يبقى لها قوة للمنازعة ويتوصل اليها بدوام الصبر وطول المجاهدة وذلك من الذين قيل لهم « ان الذين قالوا

ربنا الله ثم استقاموا » واياهم ينادى المنادى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية » .

« الدرجة السفلى » أن تقوى داعية الهوى وتسقط منازعة باعث الدين ويغلب الهوى ويسلم القلب لجند الشيطان وذلك من الذين قيل فيهم « ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » وعلامته شيئان .

« أحدهما » أن يقول أنا أشتاق الى التوبة ولكن تعذرت على فلست أطمع فيها فهذا هو القانط وهو الهالك « الثانى » أن لا يبقى فيه شوق الى التوبة ولكن يقول الله كريم رحيم وهو مستغن عن توبتى فلا تضيق الجنة الواسعة والمغفرة الشاملة عنى ، وهذا المسكين قد صار عقله أسير شهوته ولا يستعمله الا فى استنباط حيل قضاء الشهوة فصار عقله كالمسلم الأسير بين الكفار يستسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها على العنق والظهر الى بيوتهم فانظر كيف يكون حال العبد اذا أخذ أعز أولاد الملك وسلمه الى أخس أعدائه حتى استرقه واستسخره وفى مثل هذه الحالة يكون قدوم هذا الغافل المنهمك على الله تعالى نعوذ بالله منه « الدرجة الوسطى » أن لا يفتر على المحاربة ولكن يكون الحرب بينهما سجالا تارة له اليد وتارة عليه اليد ، وهذا من المجاهدين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم .

وعلامة هذا أن يترك من الشهوات ما هو أضعف ويعجز عما هو أغلب ، وربما يغلبها فى بعض الأوقات دون بعض وهو فى جميع الأحوال متحسر على عجزه ، ومستمر المعاودة الى مجاهدته وقتاله ، وذلك هو الجهاد الأكبر ، ومهما اتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وبالجملة فقد قصر عن البهيمة انسى لم يقاوم بقوة عقله شهوته وقد أيد بالعقل وحرم عنه البهيمة ، ولذلك قال الله تعالى « أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

فصـــل

اعلم أن الحاجة الى الصبر عامة فى جميع الأحـوال لأن جميع ما يلقى العبد فى هذه الحياة لا يخلو عن نوعين . فانه اما أن يوافق هواه أو يخالفه .

فان وافق هواه كالصحة والسلامة والثرة والجاه وكثرة العشيرة فما أحوجه الى الصبر معها فانه ان لم يضبط نفسه طغى واسترسل فى التنعم واتباع الهوى ونسى المبتدى والمنتهى — ولذلك قالت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بلينا بفتنة الضراء فصبرنا . وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر — ولذلك قيل يصـبر على البـلاء كل مؤمن ولا يصبر على العافية الا صديق . ومعنى الصبر فيها أن لا يركن اليها ويعلـم أن كل ذلك وديعة عنده ويسترجع على القرب وأن لا ينهمك فى الغفلة والتنعم ويؤدى حق شكر النعمة وذلك مما يطول شرحه « النوع الثانى » ما يخالف الهوى وذلك أربعة أقسام :

« القسم الأول الطاعات » والنفس تنفر عن بعضها بمجرد الكسل كالصلاة . وعن بعضها بالبخل كالزكاة ، وعن بعضـها بهمـا جميعـا كالحج والجهاد والصبر على الطاعة من الشدائد ويحتـاج المطيـع الى الصبر فى ثلاثة أحوال « احداها » أول العبـادة بتصحيح الاخـلاص والصبر عن شوائب الرياء ومكائد الشـيطان ومكائد النفس وغرورها « الثانية » حالة العمل كيلا يتكاسل عن تحقيق أدائه بفروضه وسننه ، وتوقعه على شرط الأدب مع حضور القلب ونفى الوسواس « الثالثة » بعد الفراغ وهو أن يصبر عن ذكره وافشائه للتظاهر به رياء وسمعة ، وكل ذلك من الصبر الشديد على النفس .

« القسم الثانى المعاصى » وقد قال ﷺ « المجـاهد من جاهد هواه والمهاجر من هجر السوء » والصبر عن المعاصى أشد لا سيما عن معصية صارت عادة مألوفة اذ يتظاهر فيه على بواعث الدين جندان « جند

الهوى ، وجند العادة » فان انضم الى ذلك سهولة فعله وخفة المؤنة فيه لم يصبر عنها الا الصديق ــ وذلك كمعاصى اللسان فانها هينة سهلة ــ وذلك كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس ويحتاج فى دفع ذلك الى أشد أنواع الصبر .

« القسم الثالث » ما لا يرتبط باختيار العبد ولكن له اختيار فى دفعه وتداركه كالأذى الذى يناله من غيره بيد أو لسان . فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يجب وتارة يستحب . قال بعض الصحابة ماكنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الأذى . قال الله عز وجل « ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » وقال الله تعالى « ودع أذاهم وتوكل على الله » ، وقال تعالى « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » .

« القسم الرابع » ما لا يدخل أوله وآخره تحت الاختيار كالمصائب بموت الأعزة وهلاك الأموال والمرض . وذهاب بعض الأعضاء وسائر أنواع البلاء والصبر عليه من أعلى المقامات قال ابن عباس رضى الله عنه الصبر فى القرآن على ثلاث مقامات صبر على أداء الفرائض وله ثلثمائة درجة ، وصبر على محارم الله تعالى وله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة ، وقال ﷺ « قال الله تعالى اذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشنك الى عواده(١) ابدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه . فان أبرأته أبدلته لا ذنب له وان توفيته فالى رحمتى » وقال النبى عليه السلام « قال الله تعالى اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو فى ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا » وقال عليه السلام « انتظار الفرج بالصبر عبادة » وقال عليه السلام « من اجلال الله تعالى ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » فقد عرفت أنك لا تستغنى عن الصبر فى جميع أوقاتك وبه يظهر أنه شطر الايمان . وشطره الآخر فيما

(١) وفى النسخة الكردية : ولم يشكنى .

يتعلق بالأعمال وهو الشكر . فقد قال ﷺ « الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » وهذا باعتبار النظر الى الأعمال والتعبير بالايمان عنها .

الأصل الخامس في الشكر

وقد قال الله تعالى « وقليل من عبادى الشكور » وقال « لئن شكرتم لأزيدنكم » وقال « واشكروا لى ولا تكفرون » وقال « وسيجزى الله الشاكرين » وقال « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » وقال النبى ﷺ « للطاعم الشاكر منزلة الصائم الصابر عند الله » وكان رسول الله ﷺ يبكى فى تهجده فقالت عائشة رضى الله عنها وما يبكيك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال عليه السلام « أفلا أكون عبدا شكورا » وقال « ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة . فقيل ومن الحامدون قال الذين يشكرون الله على كل حال » وقال « الحمد رداء الرحمن » .

فصل

اعلم أن الشكر من المقامات العالية وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد وجميع المقامات التى سبق ذكرها لأنها ليست مقصودة فى أنفسها . وانما تراد لغيرها . فالصبر يراد منه قهر الهوى والخوف سوط يسوق الخائف الى المقامات المقصودة المحمودة . والزهد هرب من العلائق الشاغلة عن الله تعالى . وأما الشكر فمقصوده فى نفسه ولذلك لا ينقطع فى الجنة وليس فيها توبة ولا خوف ولا صبر ولا زهد والشكر دائم فى الجنة ــ ولذلك قال الله تعالى « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» وتعرف ذلك بأن تعرف حقيقة الشكر وأنه ينتظم من علم وحال وعمل . أما العلم فالعلم بالنعمة والمنعم وبأن النعم كلها من الله تعالى وهو المنفرد بجميعها . والوسائط كلهم مسخرون مقهورون . وهذه المعرفة وراء التقديس والتوحيد فانهما داخلان فيه بل الرتبة الأولى

فى معارف الايمان التقديس . ثم اذا عـرفت ذاتا مقدسة وعرفت أنه لا مقدس الا واحد فهو التوحيد . ثم اذا علمت أن كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد والكل نعمة منه خاصة فهو الحمد . والى هذا الترتيب الاشارة بقـوله ﷺ « من قال سـبحان الله فله عشر حسنات ، ومن قال لا اله الا الله فله عشرون حسنة ، ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة » وهذا لأن التقديس والتوحيد داخلان فى الحمد وزيادة . وهذه الدرجات بازاء هذه المعـارف . وأما حركة اللسـان ففضلها بحسب صدورها عن المعرفة أو تجديدها للاعتقاد فى القلب . فان الفم آلة لازالة الغفلة لينمحى أثرها .

« واعلم » أنك اذا اعتقدت أن لغير الله دخلا فى النعمـة الواصلة اليك لم يصح حمدك ولم تتم معرفتك وشكرك . وكنت كمن يخلع عليه الملك وهو يرى أن لعناية الوزير دخلا فى خلعة الملك أو فى ايصالها اليه أو فى تيسيرها . وكل ذلك اشتراك فى النعمة ويتـوزع فرحـك فى النعمة عليهما . نعم لو رأيت الخلعة الواصـلة اليك بتوقيع الملك بقلمه فذلك لا يقصر من شكرك لأنك تعلم أن القلم مسخر له لا دخل له فى النعمة بنفسه ــ ولذلك لا يلتفت قلبك الى الفرح بالقلم والشكر له ــ ولذلك قد لا يلتفت الى الخازن والوكيل اذ يعلـم أنهمـا مضطران الى العطاء بعد الأمر مسخران لا مدخل لهما بأنفسهما فى النعمة فكذلك من انفتحت بصيرته علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله تعالى كالقلم والكاغد والحبر فى التوقيع وان قلوب الخلق خزائن الله تعالى ومفاتيحها بيد الله عز وجل فيفتحها بأن يسلط عليها دواعى جازمة حتى يعتقد أن خيرها فى البذل مثلا . وعند ذلك لا يستطيع ترك البذل فيكون مضطرا الى الاختيار لما سلط عليه من دواعى الاختيار فانه لا يعطيك أحد شيئا الا لغرض نفسه ليستفيد به فى الآجل ثوابا أو فى العاجل ثناء وذكرا أو غير ذلك . وما لم يعلم أن منفعته فى منفعتك فلا يعطيك . فاذاً ليس هـو منعما عليك اذ يسعى لنفسه . انما المنعم عليك من سخره وسلط هذه الدواعى عليه . وقرر فى نفسه أن غرضه منوط بالأداء والانعام ، فان عرفت الأمور كذلك كنت موحدا وتصور منك

الشكر بل هذه المعرفة هى عين الشـــكر . قال موسى عليه الســـلام فى مناجاته الهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك . قال علم أن ذلك منى فكان معرفة ذلك شكرا . « الركن الثانى » الحال المستثمرة من المعرفة وهى الفرح بالمنعم مع هيئة الخضـــوع والاجـــلال . ومن يرسل اليه بعض الملـــوك فرسا فيتصـــور أن يفـــرح به من ثلاثة أوجه « أحدها » من حيث أنه ينتفع بالفرس أو من حيث يستدل به على عناية الملك بشأنه وانه سينعم عليه بما هو أعظم منه أو من حيث أن الفرس يكون مركبا له حتى يسافر الى حضرة الملك ويخدمه . والأول ليس من الشكر فى شيء فانه فرح بالنعمة لا بالمنعـــم « والثانى » داخل فى الشكر لكنه ضعيف بالاضافة الى الثالث . فكمال الشـــكر أن يكون الفرح بما يفتح الله تعالى من نعمة لا بالنعمة من حيث هى نعمة بل بها من حيث أنها وسيلة اليه اذ بنعمته تتم الصالحات . وعـــلامة هذا أن لا يفرح بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى بل يغتم بها ويفرح بما زوى الله تعالى عنه من شغل الدنياوفضولها . وهذا أكمل الشكر . فمن لم يستطع فعليه بالثانى « وأما الأول » ففرح بالنعمة لا بالمنعـــم وليس ذلك من الشكر فى شيء .

« الركن الثالث » العمل وذلك بأن يستعمل نعمه فى محابه لا فى معاصيه . وهذا لا يقوم به الا من يعرف حكمة الله تعالى فى جمع خلقه وأنه لماذا خلق كل شيء . وشرح ذلك يطول . وقد ذكرنا منه طرفا فى الاحياء . وجملته أن يعلم مثلا أن عينه نعمة منه فشكرها أن يستعملها فى مطالعة كتاب الله وكتب العلم ومطالعة السموات والأرض ليعتبر بها ويعظم خالقها وأن يستر كل عورة يراها من المسلمين ويستعمل أذنه فى ســـماع الذكر وما ينفعه فى الآخـــرة ويعرض عن الاصـــغاء الى الهجو والفضول . ويستعمل اللسان فى ذكر الله تعالى والحمـــد له فى اظهار الشكر منه دون الشكوى . ومن سئل عن حاله فشكى فهو عاص لأنه شكى ملك الملوك الى عبد ذليل لا يقـــدر على شيء فان شـــكر فهو

مطيع : وأما شكر القلب فاستعماله فى الفكر والذكر والمعرفة واضمار الخير للخلق وحسن النية . وكذلك فى اليد والرجل وسائر الأعضاء والأموال وغير ذلك مما لا ينحصر .

فصـــل

اعلم أنه انما يتمكن فى كمال الشكر من شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه يرى فى كل شىء حكمته وسره ومحبوب الله فيه ، ومن لم ينكشف له ذلك فعليه باتباع السنة وحدود الشرع فتحتها أسرار الشكر . وليعلم أنه لو نظر الى غير محرم مثلا فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس وكل نعمة لا يتم النظر اليها الا بها فان الأبصار انما يتم بالعين ونور الشمس والشمس انما تتم بالسموات فكأنه كفر أنعم الله تعالى فى السموات والأرض : وقس على هذا كل معصية فانها انما تتمكن بأسباب يستدعى وجود جميعها خلق السموات والأرض : ولهذا غور عميق أشرنا اليه فى كتاب الشكر من كتاب الاحياء ويكفيك ههنا مثال واحد وهو أن الله تعالى خلق الدراهم والدنانير لتكون حاكمة فى الأحوال كلها يقدر بها القيم ولولاها لتعذرت المعاملات اذ لا يدرى كيف يشترى الثياب بالزعفران والدواب بالأطعمة فانها لا مناسبة بينهما . وانما يشتركان فى روح المالية . ومعيار مقدار أرواحهما هو النقدان فمن كنزهما كان كمن حبس حاكما من حكام المسلمين حتى تعطلت الأحكام . ومن اتخذ منهما آنية كان كمن استعمل حاكما من حكام المسلمين فى الحياكة والفلاحة التى يقدر عليها كل أحد حتى يتعطل الحكم وذلك أشد من الحبس . ومن أربى فيهما وجعلهما مقصد تجارته بالمصارفة بين جيدهما ورديهما كان كمن شغل الحاكم عن الحكم فاتخذه سخرة لنفسه ليحتطب له ويكنس له ويكتسب له القوت .

وكل ذلك ظلم وتغيير لحكم الله عز وجل فى خلقه وعباده ومعاداة الله تعالى فى محابه . ومن لا ينكشف له بنور البصيرة هذه الأسرار عرف على لسان الشرع صورته دون معناه . وقيل له : « الذين يكنزون

الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » الى قوله تعالى يكنزون . وقيل من شرب فى اناء من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم . وقيل « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » الآية . فالصالحون يقفون على الحدود ولا يعرفون أسرارها والعارفون اذا اطلعـوا على الأسرار بأنفسهم وشاهدوا شـواهد الشرع ازدادوا نورا على نور . والعميان الجاهلون يحرمون الوقوف على الحدود والعثور على الأسرار جميعا فلا هم كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام . وهم الذين قال فيهم « ولكن حق القول منى » الآية . وقال تعالى « أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحـق كمن هو أعمى » الآية . وقال « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا » الى قوله « فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » وآيات الله وحكمته فى خلقه . وقد ألقيت الى الخلق على لسان الأنبياء صلوات الله عليهم كما فصلت فى جملة الشريعة من أولها الى آخرها . وما من حد من حدود الشرع الا وفيه سر وخاصية وحكمة يعرفها من يعرفهـا وينكرها من يجهلها . وشرح ذلك طويل فليطلب من كتاب الشكر ولا يتصور تمام الشكر الا ممن قام لله تعالى وحـده مخلصا لا رغبة فيه لغيره . فلنذكر الاخلاص والصدق .

الأصل السادس فى الاخلاص والصدق

اعلم أن للاخلاص حقيقة وأصـلا وكمـالا . فهذه ثلاثة أركان ، وأصله النية اذ فيها الاخلاص ، وحقيقة نفى الشوب عن النية وكماله الصدق .

« الركن الأول النية » وقد قال الله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » ومعنى النية ارادة وجهه ، وقال ﷺ « انما الأعمال بالنيات » الحديث وقال ان الملائكة ترفع صحيفة عمل العبد فيقول الله تعالى ألقوها فانه لم يرد بها وجهى ، واكتبوا له كذا وكذا . فيقول الملائكة انه لم يعمل منها شيئا فيقول الله عز وجل انه نواه انه نواه ، وقال ﷺ « الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا

فهو يعمل بعلمهفى ماله فيقول رجل لو آتانى الله ما أتاه لعملت كما يعمل فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثا أتاه لعملت كما يعمـــل فهما فى الوزر سواء » وقال عليه السلام « من غزا ولا ينــوى الا عقالا فله ما نوى » .

ويقال ان رجلا فى بنى اسرائيل مر بكثبان رمل فى أيام قحط . فقال فى نفسه لو كان لى هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى الى نبيهم : « قل له ان الله تعالى قد قبل صـــدقتك وشـــكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به » ، وقال عليه السلام « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » ، فقيل ما بال المقتول . فقال « أراد قتل صاحبه » ، وقال عليه السلام « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ومن أدان دينا وهو لا يرى قضاءه فهو سارق » .

فصـــل

حقيقة النية هى الارادة الباعثة للقدرة المنبعثة عن المعـــرفة وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم . والعلم يهيج الارادة. والارادة باعثة للقدرة . والقدرة خادمة الارادة بتحريك الأعضاء . مثاله انه خلق فيك شهوة الطعام الا أنها قد تـــكون فيك راكدة كأنها نائمة . واذا وقع بصرك على طعام حصلت المعرفة بالطعـــام فانتهضت الشـــهوة للطعام فامتدت اليه اليد وانما امتدت اليد بالقـــوة التى فيها المطيعـــة لاشارة الشهوة وانتهضت الشهوة بحصول المعرفة المستفادة من طليعة الحس وكما خلق فيك شهوة الىالأشياء الحاضرة خلق فيك أيضا ميلالى اللذات الآجلة ينتهض ذلك الميل باشارة المعـــرفة الحاصـــلة من العقل « والقدرة » أيضا تخدم هذا الميل بتحريك الأعضاء . فالنية عبارة عن الميل الجازم الباعث للقدرة والذى يغزو قد يكون الباعث له ميل الى

المال فذلك نيته ، وقد يكون الباعث ميل الى ثواب الآخرة فذلك نيته . فاذاً النية عبارة عن الارادة الباعثة . ومعنى اخلاصها تصفية الباعث عن الشوب .

فصل

اذا حصل العمل بباعث النية فالنية والعمل بهما تمام العبادة فالنية أحد جزأى العبادة لكنها خير الجزئين لأن الأعمال بالجوارح ليست مرادة الا لتأثيرها فى القلب ليميل الى الخير وينفر عن الشر فيتفرغ للفكر والذكر الموصلين له الى الأنس والمعرفة اللذين هما سبب سعادته فى الآخرة .

فليس المقصود من وضع الجبهة على الأرض وضع الجبهة على الأرض بل خضوع القلب ولكن القلب يتأثر بأعمال الجوارح ، وليس المقصود من الزكاة ازالة الملك بل ازالة رذيلة البخل وهو قطع علاقة القلب من المال . وليس المقصود من الضحية لحومها ولا دماؤها ولكن استشعار القلب للتقوى بتعظيم شعائر الله تعالى والنية عبارة عن نفس ميل القلب الى الخير فهو متمكن فى حدقة المقصود فهو خير من عمل الجوارح الذى انما يراد منه سراية أثره الى محل المقصود وهو القلب. ولذلك يورث جميع أعمال القلب دون الجوارح فيه أثرا ما . وعمل الجارحة دون حضور القلب هباء ولا أثر له . ومهما قصد معالجة المعدة بما يصل من الأدوية بالشرب اليها أنفع لا محالة مما يطلى به ظاهر المعدة ليسرى اليها أثره . وكذلك اذا لم يسر أثر الطلاء الى المعدة كان باطلا. وبهذا التحقيق يعرف سر قوله ﷺ « نية المؤمن خير من عمله » .

فصل

اذا عرفت فضل النية وأنها تحل حدقة المقصود فيؤثر فيها فاجتهد أن تستكثر من النية فى جميع أعمالك حتى تنوى بعمل واحد نيات كثيرة . ولو صدقت رغبتك هديت لطريقه ويكفيك مثال واحد وهو أن الدخول فى المسجد والقعود فيه عبادة . ويمكن أن تنوى فيه ثمانية

أمور « أولها » أن تعتقد أنه بيت الله عز وجل وأن داخله زائر الله تعالى فتنوى ذلك . قال عليه السلام « من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى . وحق على المزور اكرام زائره » « وثانيها » نية المرابطة لقول الله تعالى « وصابروا ورابطوا » وقيل معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة « ثالثها » الاعتكاف . ومعناه كف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات المعتادة فانه نوع صوم قال ﷺ « رهبانية أمتى القعود فى المساجد » . « رابعها » الخلوة ودفع الشواغل للزوم السر للفكر فى الآخرة وكيفية الاستعداد لها « وخامسها » التجرد للذكر وسماعه أو اسماعه لقوله ﷺ « من غدا الى المسجد يذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى » « وسادسها » أن يقصد افادة علم وتنبيه من يسىء الصلاة ونهيا عن منكر وأمرا بمعروف حتى يتيسر بسببه خيرات ويكون شريكا فيها « وسابعها » أن يترك الذنوب حياء من الله عز وجل بأن يحسن نيته فى نفسه وقوله وعمله حتى يستحى منه من رآه(١) أن يقارف ذنبا .

« وثامنها » أن تستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة لدار الآخرة ، والمسجد يعشش أهل الدين المحبين لله وفى الله ، وقس على هذا سائر الأعمال فباجتماع هذه النيات تزكو الأعمال وتلتحق بأعمال المقربين كما أنه بنقيضها يلتحق بأعمال الشياطين كمن يقصد من القعود فى المسجد التحدث بالباطل والتفكه بأعراض الناس ومجالسة أخدان اللهو واللعب وملاحظة من يجتاز به من النسوان والصبيان ومناظرة من ينازعه من الأقران على سبيل المباهاة والمراياة باقتناص قلوب المستمعين لكلامه وما يجرى مجراه ، وكذلك لا ينبغى أن يغفل فى المباحات عن حسن النية . ففى الخبر أن العبد يسئل يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه .

« ومثال النية فى المباحات » أن من يتطيب يوم الجمعة يمكنه أن يقصد التنعم بلذته والتفاخر باظهار ثروته أو التزويق للنساء وأخدان

(١) وفى النسخة النورية « حتى يستحى من زاره أن يقارف ذنبا »

الفساد ، ويتصور أن ينوى اتباع السنة وتعظيم بيت الله تعالى واحترام يوم الجمعة ودفع الأذى عن غيره بدفع الرائحة الكريهة وايصال الراحة اليهم بالرائحة الطيبة وحسم باب الغيبة اذا شموا منه رائحة كريهة ، والى الفريقين الاشارة بقوله ﷺ « من تطيب فى الله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » .

فصل

اعلم أن النية لا تدخل تحت الاختيار فلا ينبغى أن تغتر فتقول بلسانك وقلبك نويت من القعود فى المسجد كذا وكذا ، وتظن أنك قد نويت اذ عرفت من قبل أن النية هى الباعث المتحرك الذى لولاه لم يتصور وجود العمل ، والنية المتكلفة كقول القائل نويت أن أحب فلانا وأعشقه وأعظمه أو نويت أن أعطش أو أجوع أو أشبع فان لكل هذه دواعى وصوارف وتحققها أسبابها اذ لا يتصور حصولها دون أسبابها . وقول القائل نويتها قبل تحققها حديث نفس لا نية . فمن وطىء لغلبة شهوة الوقاع من أين ينفعه قوله نويت الوطء لحراثة الولد وتكثير عدد من به المباهاة بل لا تظفر بانبعاث هذه النيات من قلبك الا اذا قوى ايمانك وتمت معرفتك بحقارة الحظوظ العاجلة وعظم ثواب الآخرة حتى اذا غلب ذلك عليك انبعث منك الرغبة ضرورة فى كل ما هو وسيلة الى ثواب الآخرة وان لم ينبعث فلا نية لك ، ولمثل هذا توقف السلف فى جملة من الخيرات حتى روى أن محمد بن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى ، وقال ليس تحضرنى النية ، وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية ، وقال بعضهم أنا فى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لى نية بعد ، ومن عرف حقيقة النية وعلم أنها روح العمل فلا يتعب نفسه بعمل لا روح له ويحقق ذلك أن المباح قد يصير أفضل من العبادة اذا حضرت فيه نية فمن له نية فى الأكل والشرب ليقوى على العبادة وليس تنبعث له نية الصوم فى الحال فالأكل أولى له ، ومن مل من العبادة وعلم أنه لو نام لعاد نشاطه

فالنوم أفضل له . بل لو علم مثلا أن الترفه بدعابة وحديث مزاح في ساعة يرد نشاطه فذلك أفضل له من الصلاة مع الملال .

قال ﷺ « ان الله لا يمل حتى تملوا » وقال أبو الدرداء انى لأستجم نفسى بشىء من اللهو فيكون ذلك عونا لى على الحق ، وقال على رضى الله عنه روحوا النفوس فانها اذا أكرهت عميت ، وهذه دقائق يستثقلها الظاهريون من الفقهاء كما يستثقل الطبيب الضعيف من الأطباء معالجة المحرور باللحم ، والحاذق منهم قد يأمر به لتعود قوة المريض حتى يحتمل الدواء النافع بعده .

« الركن الثانى » فى اخلاص النية وقد قال الله تعالى « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » وقال الله تعالى « ألا لله الدين الخالص » وقال « الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » وقال النبى ﷺ : قال الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي . وقال عليه السلام لمعاذ « أخلص العمل يجزك القليل منه) وقال عليه السلام « ما من عبد يخلص العمل أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

فصــل

حقيقة الاخلاص تجرد الباعث الواحد ويضــاده الاشراك وهو أن يشترك الباعثان وهو كل ما يتصور أن يمازجه غيره فان صفا من كل شوب منه يسمى خالصا ، وقد عرفت أن النيــة هى البــاعث ، فمن لا يعمل الا للرياء فهو مخلص ، ومن لا يعمل الا لله فهو مخلص ولكن خصص الاسم بأحد الجانبين بالعادة كالالحاد فانه ميــل ولكن خصص بالميل الى الباطل وزوال الاخلاص بشوائب الرياء قد ذكرناه ولكن قد يزول أيضا باغراض أخر فان الصائم قد يقصد مع العبــادة أن ينتفع بالحمية الصالحة الحاصلة بالصوم ، وقد يقصد المعتق أن يتخلص بالعتق من مؤونة العبد وسوء خلقه ، والحــاج يحج ليصــح مزاجه بحركة السفر أو يهرب من مشقة تعهد العيال أو من أيذاء الأعـــداء أو من

التبرم(١) بالمقام مع الأهل ، والمتعلم يتعلم العلم ليسهل عليه طلب المعاش أو يكون محروسا بعز العلم عن الظلم أو يكتب مصحفا ليجود خطه أو يحج ماشيا ليخفف مؤونة الكراء أو يتوضأ ليتنظف أو يتبرد أو يغتسل لتطيب رائحته أو يعتكف ليخفف عليه كراء المسكن أو يصوم ليخفف عن نفسه تعب الطبخ وشراء الطعام أو يتصدق ليدفع عن نفسه ابرام السائل أو يعود مريضا ليعاد اذا مرض ، فهذه الأغراض قد تتجرد وقد تشوب قصد العبادة شوبا خفيا ، فاذا خطر شيء من هذه الأغرض فى الفعل فقد ذهب الاخلاص وذلك عسير جدا ، ولذلك قال بعضهم فى اخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن ذلك عزيز ، وقال أبو سليمان الدارانى طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها الا الله عز وجل . وكان معروف الكرخى يضرب نفسه ، ويقول يانفسى أخلصى تتخلصى .

فصل

اعلم أن امتزاج هذه الشوائب على مراتب فانها قد تغلب وقد تكون مغمورة ، وقد تكون مساوية لقصد العبادة ولا تمحو أصل الثواب فى المباحات ومهما بقى شوب من ارادة الله عز وجل فله ثواب بقدر ذلك الشوب والباقى لا ثواب عليه ، فأما اذا كان فى العبادة أمر بأن يخلصها لله تعالى فان كان الشوب غالبا بطلت العبادة وان كان مساويا أو مغلوبا بطل الاخلاص ولكن هل يتوقف انعقاد العبادة وحصول أصلها على انتفاء الشوائب كلها فيه نظر أشرنا اليه فى الرياء ، ويطلب استقصاؤه من كتاب الاحياء .

« الركن الثالث الصدق » وهو كمال الاخلاص قال الله تعالى « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » الآية ، وقال النبى عليه السلام « ان الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » وقال الله تعالى « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » ، ويكفى بفضيلة الصدق أن يدرك به فضيلة الصديقين .

---

(١) التبرم من برم مثل ضجر ضجرا وزنا ومعنى ويتعدى بالهمزة .

« واعلم » أن للصدق مراتب ستا من بلغ فى جميعها رتبة الكمال استحق اسم الصديق « أولها الصدق فى القول » فى جميع الأحوال ما يتعلق بالماضى والمستقبل والحال ، ولهذا الصدق كمالان « أحدهما » الحذر عن المعاريض أيضا فانه وان كان صدقا فى نفسه فيفهم خلاف الحق ، والمحذور من الكذب تفيهم خلاف الحق ، اذ يكتسب القلب صورة معوجة كاذبة بازاء كذب اللسان ، واذا مال وجه القلب من الصحة الى الاعوجاج لم يتجل الحق له على الصحة حتى لا يصدق رؤياه أيضا ، والمعاريض لا توقع فى هذا المحذور لأنه صدق فى نفسه لكن توقع فى المحذور الثانى وهو تجهيل المعنى فلا ينبغى أن يفعل ذلك الا لغرض صحيح « وكماله الثانى » أن يرعى الصدق فى أقاويله مع الله تعالى فاذا قال « وجهت وجهى » وفى قلبه فى تلك الحالة شىء سوى الله عز وجل فهو كاذب واذا قال « اياك نعبد » وهو مع ذلك عبد الدنيا أو لنفسه أو لغيره لم يمكنه تحقيق صدق هذه الكلمة فى القيامة ولذلك قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا ، وقال نبينا ﷺ « تعس عبد الدرهم والدينار » « الصدق الثانى » فى النية وهو أن يتمخض فيه داعية الخير فان كان فيه شوب فقد فات الصدق لله يقال هذا صادق الحموضة وصادق الحلاوة اذا كان محضا ، فيرجع هذا الى نفس الاخلاص « والصدق الثالث » فى العزم فان العبد قد يعزم على التصدق ان رزق مالا وعلى العدل ان رزق ولاية وعزمه تارة يكون مع ضعف وتردد وتارة يكون جزما قويا لا تردد فيه ، فالجزم القوى يسمى قويا صادقا كما وجده عمر من نفسه رضى الله عنه حيث قال لأن أقدم فيضرب عنقى أحب الى من أن اتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه ودرجات عزم الصديقين فى القوة قد تتفاوت وأقصاها أن ينتهى الى الرضاء بضرب الرقبة دون الحقيقة « والصدق الرابع » الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم أولا ولكن عند الوفاء ربما تتوانى عن كمال التحقيق لأن المؤنة فى العزم هين ، وانما الشدة فى التحقيق ولذلك قال تعالى « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » وقال « ومنهم من عاهد الله لئن

آتانا من فضله لنصدقن » الى قوله « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » .

« الصدق الخامس » فى الأعمال بأن يكون بحيث لا يدل على شىء من الباطن الا والباطن متصف به ، ومعناه استواء السريرة والعلانية فالماشى على هدو يدل بحكمه على أنه ذو وقار فى باطنه فان لم يكن كذلك فى الباطن والتفت قلبه الى أن يخيل الى الناس انه ذو وقار فى باطنه فذلك الرياء ، وان لم يلتفت الى الخلق قلبه ولكنه غافل فليس ذلك برياء ولكن يفوت به الصدق ــ ولذلك قال النبى ﷺ « اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل لى علانية صالحة » وقال عبد الواحد كان الحسن البصرى اذا أمر بشىء كان من أعمل الناس به واذا نهى عن شىء كان من أترك الناس له ولم أر قط أحدا أشبه سريرته بعلانيته منه .

« الصدق السادس » وهو على أبواب الصدق فى مقامات الدين كالخوف والرجاء والحب والرضاء والتوكل وغيرها فان لهذه المقامات أوائل ينطلق الاسم بها ولها حقائق وغايات اذ يقال هذا هو الخوف الصادق وهى الشهوة الصادقة ــ ولذلك قال الله تعالى « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » الى قوله « أولئك هم الصادقون » وقال تعالى « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر » الى قوله « أولئك الذين صدقوا » الآية . فهذه درجات الصدق فمن تحقق فى جميعها فهو صديق ومن لم يصب بعضها فمرتبته بقدر صدقه . ومن جملة الصدق تحقيق القلب بأن الله هو الرزاق والتوكل عليه فلنذكره .

الأصل السابع فى التوكل

قال الله تعالى « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » وقال الله تعالى « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » وقال « ان الله يحب المتوكلين » وقال « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال « أليس الله بكاف عبده » وقال « ان الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند

الله الرزق » وقال النبي ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا(١) » وقال « من انقطع الى الله كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب . ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها » وكان رسول الله اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي فقال « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » .

فصل

حقيقة التوكل عبارة عن حالة تصدر عن التوحيد . ويظهر أثرها على الأعمال فهى ثلاثة أركان . المعرفة والحال والعمل .

« الركن الأول المعرفة » وهى الأصل وأعنى بها التوحيد فانها انما يتوكل على الله من لا يرى فاعلا سوى الله . وكمال هذه المعرفة يترجمه قولك « لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » اذ فيه ايمان بالتوحيد وكمال القدرة والجود والحكمة التى يستحق بها الحمد فمن قال ذلك صادقا مخلصا فقد تم توحيده وثبت فى قلبه الأصل الذى منه ينبعث حال التوكل وأعنى بالصدق فيه أن يصير معنى القول وصفا لازما لذاته غالبا على قلبه لا يتسع لتقدير غيره .

فصل

هذا التوحيد له لبان وقشران وطبقاته أربع كاللوز له لب ثم الدهن لب لبه . والقشرة العليا قشر قشره « فالقشرة العليا » القول باللسان المجرد وهو ايمان المنافقين .

« الثانية » الاعتقاد بالقلب جزما وهو درجة عوام الخلق ودرجة المتكلمين اذ لا يتميزون عن العوام الا بمعرفة الحيلة فى دفع تشويش المبتدعة عن هذه الاعتقادات « الثالثة » وهى اللب أن تنكشف بنور الله

(١) والبطنة الامتلاء الشديد من الطعام والخميصة الجوع .

عز وجل حقيقة هذا التوحيد وسره بالحقيقة . وذلك بأن يرى الأشياء الكثيرة ويعلم أنها بجملتها صادرة عن فاعل واحد على الترتيب . وذلك بأن يعرف سلسلة الأسباب وكيفية تسلسلها وارتباط أول السلسلة بسبب الأسباب . وصاحب هذا المقام بعد فى تفرقه لأنه يرى الأفعال وكثرتها وارتباطها بالفاعل « الرابعة » وهو لب اللب أن لا يرى فى الوجود الا واحدا أو يعلم أن الموجود بالحقيقة واحد وانما الكثرة فيه فى حق من تفرق نظره كالذى يرى من الانسان مثلا رجله ثم يده ثم وجهه ثم رأسه فيغلب عليه كثرته فان رأى الانسان جملة واحدة لم يخطر بباله الآحاد بل كان كمدرك الشيء الواحد . فكذلك الموحد لا يفرق نظره بين السماء والأرض وسائر الموجودات بل يرى الكل فى حكم الشيء الواحد . وهذا له غور ويستدعى كشفه تطويلا فاطلبه من كتاب التوحيد والشكر من كتب الاحياء لتقف على تلويحات منه . والفناء فى التوحيد انما يقع فى هذا التوحيد وذلك بأن يصير مستغرقا بالواحد الحق حتى لا يلتفت قلبه الى غيره ولا الى نفسه فان نفسه من حيث هى نفسه غير الله وان لم يتحقق له معنى الغيرية بنظر آخر واعتبار على وجه آخر .

فصل

حقيقة التوكل انما يستدعى توحيد الفعل ولا يستدعى الفناء فى توحيد الذات بل المتوكل يجوز أن يرى الكثرة والأسباب والمسببات ولكن ينبغى أن يشاهد ارتباط السلسلة بمسببها وما عندى أن ذلك يخفى عليك فيما يدخل فيه اختيار الآدميين فانك ان رأيت المطر سببا فى النبات فتعلم أن المطر مسخر بواسطة الغيم ، والغيم مسخر بواسطة الريح وأبخرة الجبال ، وكذلك الجبال جمادات مسخرة الى أن ينتهى الى الأول لا محالة ، وان كنت لا تعرف عدد الوسائط فلا يضرك ذلك وانما الذى يخفى عليك أفعال الآدميين فانك تقول من أطعمنى طعاما فانما يطعمنى باختياره ان شاء أعطى وان شاء منع فكيف لا أراه فاعلا ، وانما مثلك فى الالتفات اليه مثل النملة ترى سواد الخط على البياض يحصل

من حركة القلم فتضيف ذلك الى القلم اذ حدقتها الصغيرة الضعيفة لا تمد الى الاصبع ، ومنها الى اليد ، ومنها الى القدرة المحركة لليد ، ومنها الى الارادة التى القدرة مسخرة لها ، ومنها الى المعرفة التي يتوقف انبعاث الارادة وانجزامها عليهــا . ومنها الى صــاحب القدرة والعلم والارادة فكذلك أنت تضيف أفعال العباد الى ارادتهم ومعرفتهم وقدرتهم اذ ليس يمتد نظرك الى القلم الذى ينسطر المعرفة به فى ألواح القلوب ، ومنه الى الأصابع التى تنتهى الى قلوب العباد ، ومنها الى اليــد التي بها خمرت طينة آدم . ومنها الى القدرة التى بها تتحرك اليد لتخمير الطينة ، ومنها الى القادر الذى منه يبــدو واليه يعــود ، وذلك لأنك لا تعرف معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق آدم على صورته » ولا معنى قوله تعالى خمرت طينة آدم بيدى ، ولا معنى قوله تعالى « علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم كلا ان الانسان ليطغى » فانك لا تعلم قلما الا من قصب ولا يدا ولا أصابع الا من لحــوم وعظام ولا صورة الا للألوان والأشكال . فان انكشف لك ذلك علمت أنك اذ رميت ما رميت ولكن الله رمى ، حيث سلط عليك دواعى جازمة ومعــرفة حاكمة على القطع بأن نجاتك فى الرمى مثلا حتى انبعثت القدرة التى انفرد بخلقها خادمة للارادة . والمعرفة خادمة بالتسخير والاضطرار علمت أنك مضطر الى عين الاختيار فتنفعل ان شئت ذلك وتشاء اذا شاء الله شئت أم أبيت . وهذا الآن فيه سر يحرك قاعدة الجبر والاختيار ويوهم تناقض التوحيد وتكليف الشرع ، وقــد شرحناه فى كتاب التوحيــد والتوكل والشكر من كتب الاحياء . فاطلبه منه ان كنت من أهله .

فصــل

لا يكفى الايمان بتوحيد الفعل والذات فى اثارة حالة التوكل حتى ينضاف اليه الايمان بالرحمة والجود والحكمة اذ به تحصل الثقة بالوكيل الحق وهو أن يعتقد جزما أو ينكشف لك بالبصيرة أن الله تعالى لو خلق الخلائق كلهم على عقل أعقلهم بل على أكمل ما يتصور أن يكون عليه حال العقل ، ثم زادهم أضعاف ذلك علما وحكمة ثم كشف لهم عواقب

الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت ولطائف الحكمة ودقائق الخير والشر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت لما دبروه بأحسن مما هو عليه ولم يسكنهم أن يزيدوا عليه أو ينقصوا منه جناح بعوضة ولم يستصوبوا ألبتة دفع مرض وعيب ونقص وفقر وضر وجهل وكفر ولا أن يغيروا قسمة الله تعالى من رزق وأجل وقدرة وعجز وطاعة ومعصية بل شاهدوا جميع ذلك عدلا محضا لا جور فيه ، وحقا صرفا لا نقص فيه ، واستقامة تامة لا قصور فيها ولا تفاوت بل كل ما يرون نقصا فيرتبط به كمال آخر أعظم منه وما ظنوه ضررا فتحته نفع أعظم منه لا يتوصل الى ذلك النفع الا به . وعلموا قطعا أن الله تعالى حكيم جواد رحيم لم يبخل على الخلق أصلا ولم يدخر فى اصلاحهم أمرا وهذا الآن بحر آخر فى المعرفة يحرك أمواجه سر القدر الذى منع من ذكره المكاشفون ، وتحير فيه الأكثرون ولا يعقله الا العالمون ولا يدرك تأويله الا الراسخون ، وأن حظ العوام أن يعتقدوا أن كل ما يصيبهم لم يكن ليخطئهم وما يخطئهم لم يكن يصيبهم وأن ذلك واجب الحصول بحكم المشيئة الأزلية وأنه لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » .

« الركن الثانى » حال التوكل ومعناه أن تكل أمرك الى الله عز وجل ويثق به قلبك وتطمئن بالتفويض اليه نفسك ولا تلتفت الى غير الله أصلا ، ويكون مثالك مثال من وكل فى خصومته القاضى من علم أنه أشفق الناس عليه وأقواهم فى كشف الباطل وأعرفهم به وأحرصهم عليه فانه يكون ساكنا فى بيته مطمئن القلب غير متفكر فى كل الخصومة غير مستعين بآحاد الناس لعلمه بأن وكيله حسبه وكافيه فى غرضه وأنه لا يقاومه غيره . فمن تحققت معرفته بأن الرزق والأجل والخلق والأمر بيد الله تعالى وهو منفرد به لا شريك له وأن وجوده وحكمته ورحمته لا نهاية لها ولا يوازيها رحمة غيره وجوده اتكل قلبه بالضرورة عليه وانقطع نظره عن غيره فان لم ينقطع فلا يكون ذلك الا لأحد أمرين .

« أحدهما » ضعف اليقين بما ذكرناه . وضعف اليقين انما يكون لتطرق شك اليه أو لعدم استيلائه على القلب . فان الموت يقين لا شك فيه ولكنه اذ لا يستولى على القلب فهو كشك لا يقين فيه .

« الأمر الثانى » أن يكون القلب فى الفطرة جبانا ضعيفا . فالجبن والجراءة فطرتان والجبن يوجب كون النفس مطيعة لأوهام لا شك فى بطلانها حتى قد يخاف الانسان أن يبيت مع الميت فى فراش أو فى بيت مع علمه بأن الله لا يحييه وأن قدرته عليه كقدرته على أن يقلب فى يده العصا حية وهو لا يخاف ذلك بل قد يشبه العسل بالعذرة فيتعذر عليه تناوله مع علمه بأنه تشبيه كاذب . وذلك لخور النفس وطاعة الأوهام . فكما لا يخلو الانسان عن شىء منه وان ضعف فكذلك لا يبعد أن يحصل اليقين بالتوحيد بحيث لا يخالجه ريب ومع ذلك فيفرغ القلب الى الأسباب .

فصل

اذا عرفت أن التوكل عبارة عن حالة القلب فى الثقة بالوكيل الحق وقطع الالتفات الى غيره « فاعلم » ان فيه ثلاث درجات . (احداها) ما ذكرناه وهو كالثقة بالوكيل فى الخصومة بعد اعتقاد كماله فى الهداية والقدرة والشفقة « الثانية » وهى أقوى منها تضاهى حالة الصبى فى ثقته بأمه وفزعه اليها فى كل ما يصيبه وذلك لثقته بشفقتها وكفالتها ولكنه فى توكله فان عن توكله فانه ليس يحصله بفكر وكسب وان كان لا يخلو توكله عن نوع ادراك . وأما التوكل على الوكيل بالخصومة فكالمكتسب بالفكر والنظر « والثالثة » وهى الأعلى أن يكون بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل لا كالصبى فانه يزعق بأمه ويتعلق بذيلها بل هذا كالصبى علم انه وان لم يزعق بأمه فانها تطلبه وان لم يتعلق بذيلها فهى تحمله وان لم يسألها اللبن فهى تبتدىء بارضاعه فيكون هذا الشخص فى حق الله عز وجل ساقط الاختيار لعلمه بأنه مجرى القدر فلا يبقى فيه متسع لغير الانتظار لما يجرى عليه . وهذا المقام يأبى الدعاء والسؤال ولا يمتنع الدعاء فى المقام الثانى والأول . ويمتنع التدبير

في المقام الأخير ويمتنع في الثاني أيضا الا في التعلق بالوكيل فقط . وفي الأول يمتنع التدبير بالتعلق بغيره ولا يمتنع بالطريق الذي رسمه الوكيل وسنه له وأمره به .

الركن الثالث في الاعمال

وقد يظن الجهال ان شرط التوكل ترك الكسب وترك التداوي والاستسلام للمهلكات — وذلك خطأ لأن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على التوكل وندب اليه فكيف ينال ذلك بمحظوره . وتحقيقه ان سعي العبد لا يعدو أربعة أوجه وهو جلب ما ليس بموجود من المنفعة أو حفظ الموجود أو دفع الضرر كيلا يحصل أو قطعه كي يزول (الأول) جلب النافع وأسبابه ثلاثة : اما مقطوع به واما مظنون ظنا غالبا ظاهرا يوثق به أو موهوم . أما المقطوع به فمثاله أن لا تمتد اليد الى الطعام وهو جائع ويقول هذا سعي وأنا متوكل أو يريد الولد ولا يواقع أهله أو يريد الزرع ولا يبث البذر — وهذا جهل لأن سنة الله تعالى لا تتغير . وقد عرفك أن ارتباط هذه المسببات بهذه الأسباب من السنة التي لا تجد لها تبديلا . وانما التوكل فيه بأمرين (أحدهما) أن تعلم أن اليد والطعام والبذر وقدرة التناول وجميع ذلك من قدرة الله تعالى (والثاني) أن لا يتكل عليها بقلبه بل على خالقها وكيف يتكل على اليد ، وربما يفلج في الحال أو يهلك الطعام ، وذلك تحقيق قولك لا حول ولا قوة الا بالله . فالحول هي الحركة . والقوة هي القدرة . فاذا كان هذا حالك فأنت متوكل وان سعيت . واما المظنون فكاستصحاب الزاد في البوادي والأسفار فليس تركه شرطا في التوكل بل هي سنة الأولين بل يكون الاعتماد على فضل الله بدفع السراق وابقاء الزاد والحياة والقدرة على التناول . وأما الموهومات فكالاستقصاء في حيل المعيشة واستنباط دقائق الأمور فيها . وذلك ثمرة الحرص . وقد يحمل على أخذ الشبهة فكل ذلك يناقض التوكل . والدليل عليه أن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتنون(١) ولا يسترقون ولم يصفهم بأنهم لا يسكنون الأمصار . ولا

(١) وفي النسخة النورية « لا يكتوون » .

يكتسبون فما نسبته الى السبب كنسبة الرقية والكى فتركها من شروط التوكل .

« الفن الثانى » من تدبير الأسباب الادخار ، فالمتوكل اذا ورث مالا وادخر لسنة فما فوقها أبطل توكله وان قنع بقوت يومه وفرق الباقى فهو تمام التوكل . وان ادخر لأربعين يوما قال سهل التسترى بطل توكله ولا ينال المقام المحمود الذى وعد المتوكلين . وقال الخواص لا يبطل . واتفقوا على أن الزيادة عليه تبطل التوكل الا اذا كان معيلا فله أن يدخر قوت عياله لسنة كذلك فعل رسول الله ﷺ فى حق عياله وفى حق نفسه كان لا يدخر من غدائه لعشائه ولا شك أن طول الأمل يناقض التوكل ، ومهما قلت مدة الادخار كانت الرتبة أعظم . ولكن سنة الله تعالى جارية بتكرر الأرزاق عند تكرار السنة . فالادخار لأكثر من سنة غاية الضعف وليس من التوكل فى شىء .

فأما ادخار الكوز وأثاث البيت فذلك جائز لأن سنة الله تعالى لم تجر بتكررها كتكرر الأرزاق ويحتاج اليها فى كل وقت وليس كثوب الشتاء فانه لا يحتاج اليه فى الصيف وادخاره على خلاف التوكل قال النبى ﷺ فى فقير دفن انه يحشر يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كان كالشمس الضاحية كان اذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه .

« الفن الثالث » فى مباشرة الأسباب الدافعة كالفرار من السبع ومن الجدار المائل ومجرى السيل ودفع الأمراض بالأدوية وذلك أيضا له درجات فاستنبطها بالقياس الى ما ذكرناه وقد فسرناه فى الاحياء .

فصل

اعلم أن ترك الادخار محمود لمن غلب يقينه وقوى قلبه وأما الضعيف الذى يضطرب قلبه لو لم يدخر لم يتفرغ للعبادة فالأفضل له أن يدع طريق المتوكلين ولا يحمل نفسه ما لا يطيقه اذ فساد ذلك فى حقه أكثر من صلاحه بل يعالج كل واحد على حسب حاله وقوته ، وقد

تنتهى القوة الى أن يجوز السفر فى البوادى من غير زاد وذلك لمن يصبر عن الطعام أسبوعا ويقنع بالحشيش فان ذلك لا يعوزه غالبا فى البادية فأما الضعيف اذا فعل ذلك فهو عاص ملق نفسه فى التهلكه ، والقوى ان حبس نفسه فى كهف جبل ليس فيه حشيش ولا يجتاز به انسان فذلك أيضا حرام لأنه خالف سنة الله تعالى فى خلقه وانما جاز له ذلك فى البوادى لأن سنة الله جارية بأنها لا تخلو عن الحشيش وقد يجتاز بها الآدميون فاذا قوى كان هلاكه نادرا فلم يكن بذلك عاصيا فله أن يسافر فى البادية متكلا على لطيف صنع الله تعالى وغير قاصر التفاته على الأسباب الجلية الواضحة .

الأصل الثامن فى المحبة

قال الله تعالى « يحبهم ويحبونه » وقال « ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله » الآية . وقال النبى ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » وقال عليه السلام « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبونى لحب الله عز وجل » وقال أبو بكر رضى الله عنه من ذاق خالص محبة الله عز وجل منعه ذلك من طلب الدنيا وأوحشه من جميع البشر ، وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه من عرف الله تعالى أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل واذا تفكر حزن .

فصل

« اعلم » أن أكثر المتكلمين أنكروا محبة الله تعالى وأولوها ، وقالوا لا معنى لها الا الامتثال لأوامره والا فما لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئا ولا يناسب طباعا فكيف نحبه وانما يتصور منا أن نحب من هو من جنسنا وهؤلاء محرومون بجهلهم لحقائق الأمور وقد كشف الغطاء عن هذا فى كتاب المحبة من كتب الاحياء فطالعها لتصادف منها أسرارا تخلو الكتب عنها ، فاقنع فى هذا المختصر بتلويحات واشارات .

فصـــل

اعلم أن كل لذيذ محبوب ومعنى كونه محبوبا ميل النفس اليه فان قوى الميل سمى عشقا ، ومعنى كونه مبغوضا نفرة النفس عنه لكونه مؤلما ، فان قوى البغض والنفرة سمى مقتا .

واعلم أن الأشياء التى تدركها بحواسك وجميع مشاعرك اما أن تكون موافقة لك ملائمة وهو اللذيذ أو تكون منافية مخالفة وهو المؤلم أو لا موافقة ولا مخالفة وهو الذى لا ألم فيها ولا لذة . وكل لذيذ محبوب أى للنفس الملتذة به ميل لا محالة اليه .

واعلم أن اللذة تتبع الادراك والادراك ادراكان ظاهر وباطن أما الظاهر فبالحواس الخمس فلا جرم لذة العين فى الصور الجميلة . ولذة الأذن فى النغمات الموزونة الطيبة . ولذة الذوق والشم فى الطعوم والروائح الملائمة الموافقة . ولذة جملة البدن فى ملابسة الناعم اللين . وجملة ذلك محبوبة للنفس أى للنفس ميل اليها . وأما الادراك الباطن فهو اللطيفة التى محلها القلب تارة يعبر عنها بالعقل وتارة بالنور وتارة بالحس السادس . ولا تنظر الى العبارات فتغلط بل قال النبى ﷺ « حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة » فتعلم أن الطيب والنساء فيهما حظ الشم واللمس والبصر . والصلاة لا حظ فيها للحواس الخمس بل للادراك السادس الذى محله القلب ولا يدركها من لا قلب له وان الله يحول بين المرء وقلبه . ومن اقتصر من لذته على الحواس الخمس فهو بهيمة لأن البهيمية تشاركه فيها . وانما خاصية الانسان التمييز بالبصيرة الباطنة . ولذة البصر الظاهر فى الصور الجميلة الظاهرة ولذة البصيرة الباطنة فى الصور الجميلة الباطنة .

فصـــل

اعلمك تقول ما معنى الصور الجميلة الباطنة « فأقول » ما عندى أنك لا تحس من نفسك حب الأنبياء والعلماء والصحابة ولا تدرك من نفسك تفرقة بين الملك العادل العالم الشجاع الكريم العطوف على الخلق

وبين الظالم الجاهل البخيل الفظ الغليظ وما عندى أنك اذا حكى لك صدق أبى بكر وسياسة عمر وسخاوة عثمان وشجاعة على رضوان الله عليهم لا تجد فى نفسك هزة وارتياحا وميلا الى هؤلاء والى كل موصوف بخلاف الكمال من نبى وصديق وعالم . وكيف تنكر هذا وفى الناس من يفتدى بنفسه أرباب المذاهب ويحمله حبه لهم على البذل بالمال والنفس فى الذب عنهم وتجاوز ذلك حد العشق وأنت تعلم أن حبك لهؤلاء ليس لصورهم الظاهرة فانك لم تشاهدها ولو شاهدتها ربما لم تستحسنها وان استحسنت . فلو تشوهت صورهم الظاهرة وبقيت صفاتهم المعنوية الباطنة لبقى حبهم واذا فتشت عن محبوبك منهم رجع بعد التفصيل الطويل الذى لا يحتمله هذا الكتاب الى ثلاث صفات « العلم والقدرة والنزاهة عن العيوب » .

أما العلم فكعلمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وعجائب ملكوته ودقائق شريعة أنبيائه .

وأما القدرة فكقدرتهم على أنفسهم بكسر شهوتها وحملها على الصراط المستقيم وقدرتهم على العبادة بسياستهم وارشادهم الى الحق.

وأما النزاهة فكسلامة باطنهم من عيب الجهل والبخل والحسد وخبائث الأخلاق واجتماع كمال العلم والقدرة مع حسن الأخلاق وهو حسن الباطن وهى الصورة الباطنة التى لا تدركها البهيمة ومن فى مثل حالها بالبصر الظاهر . ثم اذا أحببت هؤلاء بهذه الصفات وعلمت أن النبى ﷺ كان أجمع منهم لهذه الخصال كان حبك له أشد بالضرورة فارتفع نظرك الآن من النبى الى مرسل النبى وخالقه والمتفضل على الخلق ببعثه لتعلم أن بعثة الأنبياء حسنة من حسناته . ثم انسب قدرة الأنبياء وعلمهم وطهارتهم الى علم الله سبحانه وقدرته وقدسه لتعلم أنه لا قدوس سوى الواحد الحق وأن غيره لا يخلو من عيب ونقص بل العبودية أعظم أنواع النقص فأى كمال بمن لا قوام له بنفسه ولا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا رزقا ولا أجلا ، وأى علم لمن يشكل عليه صفات باطنه فى مرضه وصحته بل لا يعلم جميع جوارحه الباطنة

وتفصيلها وحكمها بالتحقيق فضلا عن ملـكوت السـموات والأرض . وانسب هذا الى العـلم الأزلى المحيط بجميع الموجـودات ومعلومات لا نهاية لها الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض والى قدرة خالق السموات والأرض الذى لا يخرج موجود عن قبضة قدرته فى وجوده وبقائه وعدمه . وانسب نزاهته من العيوب الى قدسه لتعلم أنه لا قدس ولا قدرة ولا علم الا للواحـد الحق . وانما لغيره القدرة التى أعطاها « ولا يحيطون بشىء من علمه الا . أوتيتم من العلم الا قليلا » .

فانظر الآن هل يمكنك أن تنكر أن هذه الصفات والمحامد محبوبة أو تنكر أن الموصوف بكمال الجلال هو الله تعالى وانظر كيف تنكر حبه بعد ذلك .

فصـــل

ان قصرت بصيرتك عن ادراك الجلال والكمال والميل الى مطالعته والفرح به والعشق له . فلا تقصر عن الميل الى المنعم المحسن اليك ، ولا تكونن أقل من الكلب فانه يحب صاحبه الذى يحسن اليه . وتأمل هذا فى العالم هل لأحد احسان اليك سوى الله تعالى وهل لك حظ ولذة وتنعم فى شىء وحرص على نعمة الا والله سبحانه خالقها ومبديها ومبقيها وخالق الشهوة اليها والتلذذ بها . وتفكر فى أعضائك ولطف صنع الله تعالى بك فيها لتحبه باحسانه اليك فتكون من عوام الخلق ان لم تقدر أن تحبه لجماله وجلاله وكماله كما تحبه الملائكة لذلك وامتثـال قوله عليه السلام « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله » وعند هذا تكون كالعبد السوء يحب ويعمل للاجرة والنفقة فلا جرم يزيد حبك وينقص بزيادة الاحسان ونقصانه ـ وذلك ضعيف جدا بل الكامل من يحب الله لجلاله وجماله ومحامد صفاته التى لا يتصور أن يشارك فيها ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ان أود الأوداء الى من عبدونى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها . وفى الزبور من أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار لو لم أكن أخلق جنـة ولا نارا ألم أكن أهـلا أن

أطاع وأعبد . ومر عيسى عليه السلام بطائفة من العباد وقد تخلوا للعبادة . وقالوا نخاف النار ونرجو الجنة . فقال « مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم » ومر بقوم أخر كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله . فقال أنتم أولياء الله حقا ومعكم أمرت أن أقيم .

فصل

العارف لا يحب الا الله تعالى فان أحب غيره فبحبه لله عز وجل اذ قد يحب المحب عبد المحبوب وأقاربه وبلده وثيابه وضيعته وتصنيفه وكل ما هو منه واليه نسبته . وكل ما في الوجود صنع الله عز وجل وتصنيفه . وكل الخلق عباد الله تعالى فان أحب الرسول أحبه لأنه رسول محبوبه وحبيبه وان أحب الصحابة فلأنهم محبو رسوله محبوبه ولأنهم محبوه وعبيده المواظبون على طاعته . وان أحب طعاما فلأنه يقوى مركبه الذي به يصل الى محبوبه أعني البدن . وان أحب الدنيا فلأنها زاده الى محبوبه وان أحب النظر الى الازهار والأنهار والأنوار والصور الجميلة فلأنها صنعة محبوبه وهي دلالات على جماله وجلاله ومذكرات لصفات المحامد التي هي المحبوبة في ذاتها وان أحب المحسن اليه والمعلم اياه علوم الدين فيحبه لأنه واسطة بينه وبين محبوبه في ايصال علمه وحكمه اليه ويعلم أنه الذي فيضه لتعليمه وارشاده والانفاق عليه من ماله وأنه لولا تسليط الدواعي اليه واضطراره بسلسلة البواعث والأغراض الى ارشاده والانفاق عليه لما فعله . وأعظم الخلق احسانا علينا رسول الله ﷺ ولله المنة والفضل بخلقه وبعثه كما قال « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » فما الرسول الا عبد مسخر مبعوث محمول على تبليغ الرسالة بالاضطرار . ولذلك قال الله تعالى « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » وتأمل سورة الفتح وقوله تعالى « ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » فقد أنزله منزلة النظارة وقال اذا رأيت عباد الله يدخلون في دين الله فقل بحمد الله لا بحمدي وهو معنى التسبيح بحمد ربه . فان التفت قلبك الى نفسك وسعيك فاستغفره ليتوب عليك .

« واعلم » أنه ليس لك من الأمر شيء .. ومن ههنا نظر عمر رضى الله عنه حيث وصل كتاب خالد بعد فتح فتحه(١) من خالد سيف الله المسلول على المشركين الى أبى بكر أمير المؤمنين . فقال ان نصر الله المسلمين نظر خالد الى تلقيب نفسه وتسميتها سيفا مسلولا على المشركين. ولو لاحظ الحق كما هو لعلم أن ذلك ليس بسيفه ولكن لله تعالى سر فى ارادته بنصرة الاسلام فينصره بخطرة واحدة وهو خاطر رعب يلقيه فى قلب كافر فينهزم ، وينظر اليه غيره فينهزم وتعم الهزيمة فينظر خالد ومن هو فى مثل حاله أنه أعلى كلمة الاسلام بصرامته وحدة سيفه . ويطلع عمر رضى الله عنه ومن هو فى مثل حاله من الصديقين والأولياء على حقيقة الحال ويعلم حاجة خالد الى الاستغفار وأن يسبح بحمد ربه اذا رأى ذلك كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا لا موجب للمحبة الا أمران « أحدهما » الاحسان « والآخر » غاية الجلال والجمال بكمال الجود والحكمة والعلو والقدرة والتقديس من العيب والنقص ولا احسان الا منه ولا جلال ولا جمال ولا قدس الا له . فكل ما فى العالم من حسن واحسان فهو حسنة من حسنات جوده . يسوقها الى عباده بخطرة واحدة يخلقها فى قلب المحسن وكل ما فى العالم من صورة مليحة وهيئة جميلة تدرك بعين أو سمع أو شم فأثر من آثار قدرته التى هى بعض معانى جماله وجلاله . فليت شعرى لمن عرف بالمشاهدة المحققة والبرهان القاطع جميع هذا كيف يتصور أن يلتفت الى غير الله تعالى أو يحب غير الله عز وجل .

فصل

اعلم ان لذة كل عين النظر ولذة العارف فى الدنيا من مطالعة جمال الحضرة الربوبية اذ هى أعظم من كل لذة يتصور أن يكون فى الدنيا سواها وذلك لأن اللذة على قدر الشهوة . وقوة الشهوة على قدر الملاءمة والموافقة مع المشتهى . وكما أن أوفق الأشياء للأبدان

---

(١) وفى نسخة « بعد فتح مكة » وفى هامش النسخة النورية « بعد فتح اليمامة » .

الأغذية فأوفق الأشياء للقلوب المعرفة . فالمعرفة غـذاء القلب وأعنى بالقلب الروح الربانى الذى قال الله تعالى فيه « قل الروح من أمر ربى » وقال تعالى « ونفخت فيه من روحى » فأضافه الى نفسه ، وهذا الروح لا يكون للبهائم ولمن هو فى مثل حالها من الانس بل يختص به الأنبياء والأولياء ــ ولذلك قال تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا » فالمعرفة أوفق الأشياء لهذه الروح لأن الأوفق لكل شىء خاصيته فالصوت الطيب لا يوافق البصر لأنه ليس من خاصيته . وخاصية روح الانسان معرفة الحقـائق وكلما كان المعلوم أشرف كان العلم به ألذ ، ولا أشرف من الله تعالى ولا أجل منه . فمعرفته ومعرفة صفاته وذاته وعجائب ملكه وملكوته ألذ الأشياء عند القلب لأن شهوة ذلك أشد الشهوات ــ ولذلك تخلق آخرا بعد سائر الشهوات ، وكل شهوة تأخرت فهى أقوى مما قبلها . فأول ما يخلق شهوة الطعام . ثم يخلق له شهوة الوقاع فيترك شهوة الطعام لأجله ويستحقر فيه . ثم يخلق له شهرة الرياسة والجاه والغلبة ، ويستحقر فيها شهوة المنكح والمطعم ثم يخلق له شهوة المعرفة التى هى استيلاء على كل الموجودات فيستحقر فيها الجاه والرياسة وهى آخر شهوات الدنيـا وأقواها . وكما أن الصبى ينكر شهوة الوقاع ويتعجب ممن يتحمل مؤنة النكاح لأجلها ، فاذا بلغ شهوة الوقاع أكب عليها وأنكر شهوة الجاه والرياسة ولم يبال بهواتها فى قضاء شهوة الفرج — فكذلك المشـغوف بشـهوة الجاه والرياسة ينكر لذة المعرفة اذ لم يخلق فيه بعد شهوتها . وقد تنتهى شهوة شرهه على الجاه الى مرض قلبه حتى لا يقبل شـهوة معرفة الله عز وجل أصلا كما يفسـد مزاج المريض فتسقط شـهوته للغذاء حتى يموت . وقد ينعكس طبعه فيشتهى الطين والأشياء المضرة المهلكة وهى مقدمات الموت ــ فكذلك مرض القلب قد ينتهى الى حد ينكر المعرفة ويبغضها ويبغض أهلها والمقبلين عليها ولا يدرك الا لذة الرياسة أو المطعم والمنكح . وذلك هو الميت الذى لا يقبـل العـلاج وفى مثلـه قيل « انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى

الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا » وفيهم قيل « أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » .

فصـــل

هذه المعرفة وان عظمت لذتها فلا نسبة لها الى لذة النظر الى وجه الله الكريم فى الدار الآخرة — وذلك لا يتصور فى الدنيا لسر لا يمكن الآن كشفه ولا ينبغى أن تفهم من النظر ما يفهمه العـوام والمتكلمون فيحتاج فى تقديره الى جهة ومقابلة — فذلك من نظر من أقعده القصور فى بحبوحة عالم الشهادة حتى لم يجاوز المحسوسات التى هى مدركات البهائم لكن ينبغى أن تفهم أن الحضرة الربوبية تنطبع صورتها وترتيبها العجيب على ما هو عليه من البهاء والعظمة والجـلال والمجد فى قلب العارف كما ينطبع مثلا صورة العالم المحسوس فى حـواسك فكأنك تنظر اليه وان غمضت عينيك . فان فتحت العين ووجـدت الصـورة المبصرة مثل الصورة المتخيلة قبل فتح العين لا تخالفها فى شىء الا أن الابصار فى غاية الوضوح بالنسبة الى التخيل — وكذلك ينبغى أن تعلم أن فى ادراك ما لا يدخـل فى الخيـال والحس أيضا فى درجتين متفاوتتين فى الوضوح غاية التفاوت ، ونسبة الثانية الى الأولى كنسبة الابصار الى التخيل فتكون الثانية غاية الكشف فيسمى لذلك مشاهدة ورؤية ، الرؤية لم تسم رؤية لانها فى العين اذ لو خلقت فى الجبهة لكانت رؤية بل لأنها غاية الكشف وكما أن تغميض الأجفان حجاب من غاية الكشف فى المبصرات فكدورة الشهوات وشواغل هذا القالب المظلم حجاب عن غاية المشاهدة . ولذلك قال الله تعالى « لن ترانى » وقال تعالى « لا تدركه الأبصار » فاذا ارتفع هذا الحجـاب بعد الموت انقلبت المعـرفة بعينها مشاهدة . ويكون مشاهدة كل واحد على قدر معرفته — ولذلك تزيد لذة أوليـاء الله سـبحانه فى النظر على لذة غيرهم ويتجلى الله تعالى لأبى بكر رضى الله عنه خاصة ويتجلى للناس عامة ، وكذلك لا يراه الا العارفون لأن المعرفة بدء النظر بل هى التى تنقلب مشاهدة كما ينقلب التخيل ابصارا . فلذلك لا يقتضى مقابلة وجهة . وسر هذا طويل فاطلبه من كتاب المحبة فى الاحياء .

فصل

لو كان معشوقك وأنت تراه من وراء ستر رقيق فى وقت الاسفار وفى حالة ضعف الضوء وفى حالة اجتمع عليك تحت ثوبك عقارب وزنابير تلدغك وتشغلك فلا يخفى أن لذتك من مشاهدة معشوقك تضعف فلو أشرقت الشمس دفعة فارتفع الستر الرقيق وانصرفت عنك العقارب والزنابير وهجم عليك العشق المفرط البليغ فلا نسبة لهذه اللذة العظيمة التى تحصل الآن الى ما كان قبل ذلك ــ وكذلك فافهم أنه لا نسبة للذة النظر الى لذة المعرفة بل هى أعظم منها كثيرا ، والستر الرقيق قالبك ، والعقارب شواغل الدنيا وغمومها وشهواتها ، وهجوم العشق شدة الشهوة لانقطاع المضعفات والمنغصات عنها . واشراق الشمس هو استعداد حدقة القلب لاحتمال تمام التجلى فانها فى هذه الحياة لا يحتمل بصر الخفاش نور الشمس .

فصل

انما ضعفت شهوة معرفة الله تعالى لزحمة سائر الشهوات وانما خفيت معرفة الله تعالى مع جلائها لشدة ظهورها ، ومثاله أنك تعلم أن أظهر الأشياء المحسوسات ، ومنها المبصرات . ومنها النور الذى به يظهر لك الأشياء ثم لو كانت الشمس دائمة لا تغيب ولا يقع لها ظل لكنت لا تعرف وجود النور وكنت تنظر الى الألوان فلا ترى الا الحمرة والسواد والبياض . فأما النور فلا تدركه الا بأن تغيب الشمس أو يقع لها حجاب بما له ظل فتدرك باختلاف الأحوال بين الظلمة والضياء أن النور شيء آخر يعرض للألوان فتصير مبصرة ولو تصور لله سبحانه غيبة أو لأنوار قدرته حجاب عن بعض الأشياء لأدركت من التفاوت ما يضطر معه الى المعرفة ولكن الموجودات كلها لما تساوت فى الشهادة لخالقها بالوحدانية من غير تفاوت خفى الأمر لشدة جلائه . ولو تصور انقطاع أنوار قدرته عن السموات والأرض لانهدمت وانمحقت وأدرك

فى الحال من التفاوت ما يضطر الى المعرفة بالقدرة والقادر . وهذا مثال ما ذكرناه وتحته اسرار ، وفيه مواقع غلط . فاجتهد لعلك تقف على اسراره ولا ترتبك فى مواقع غلطه . فمنه غلط من قال انه فى كل مكان وكل من نسبه الى مكان أو جهة فقد زل فضل ورجع غاية نظره الى التصرف فى محسوسات البهائم ولم يجاوز الأجسام وعلائقها ، وأول درجات الايمان مجاوزتها فبه يصير الانسان انسانا فضلا عن أن يصير مؤمنا .

فصـــل

اعلم أن للمحبة علامات كثيرة يطول احصاؤها ومن علاماتها تقديم أوامر الله تعالى على هوى النفس والتوقى بالورع ورعاية حدود الشرع. ومن علاماتها الشوق الى لقاء الله والخلو عن كراهية الموت الا من حيث يتشوق الى زيادة المعرفة فان لذة المشاهدة بقدر كمال المعرفة فانها بدء المشاهدة فتختلف لا محالة باختلافها . ومن علاماتها الرضـــاء بالقضاء بمواقع قدر الله عز وجل فلنذكر معنى الرضاء حتى لا يغتر الانسان بما يصادف فى نفسه من خطرات تخطر فيظن أنها حقيقة الحب لله تعالى فان ذلك عزيز جدا .

الاصل التاسع فى الرضاء بالقضاء

قال الله تعالى « رضى الله عنهـم ورضـــوا عنه » وقال ﷺ « اذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه وان رضى اصطفاه » وقال عليه السلام « اعبد الله تعالى بالرضاء فان لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير » وقال عليه السلام لطائفة « ما أنتم » فقالوا مؤمنون فقال « وما علامة ايمانكم » فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء . فقال « مؤمنون ورب الكعبة » وفى رواية أنه قال « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » ومما أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ما لأوليائى والهم بالدنيـــا ان الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم ان محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين

لا يغتمون . وقال ﷺ « قال الله تعالى أنا الله لا اله الا أنا فمن لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليطلب ربا سواى » ، وقال عليه السلام « قال الله تعالى خلقت الخير وخلقت له أهلا . وخلقت الشر وخلقت له أهلا فطوبى لمن خلقته للخير ويسرته على يديه . وويل لمن خلقته للشر ويسرت الشر على يديه . وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف » وأوحى الله سبحانه الى داود عليه السلام يا داود تريد وأريد وانما يكون ما أريد فان سلمت لما أريد كفيتك ما تريد وان لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون الا ما أريد .

فصل

قد أنكر الرضا جماعة . وقالوا لا يتصور الرضاء بما يخالف الهوى وانما يتصور الصبر فقط وانما أوتوا من انكار المحبة ونحن نحققها وعلامتها الرضاء بالبلاء وبما يخالف الطبع والهوى وذلك يتصور من ثلاثة أوجه :

« أحدها » أن يدهشه مشاهدة الحب وافراطها عن الاحساس بالألم وذلك مشاهد فى حب المخلوقين وفى غلبة الشهوة والغضب حتى أن الغضبان تصيبه الجراحة فلا يحس بها فى الوقت وحتى أن الحريص تصيبه شوكة فى رجله فلا يحس بها . ثم اذا سكن غضبه وظفر بمراده عظم ألمه . واذا تصور أن ينغمر ألم يسير بحب يسير تصور أن ينغمر ألم كثير بحب قوى بالغ فان كل واحد من الحب والألم يقبل الزيادة والشدة ومهما تصور مثل هذا فى عشق يرجع الى الميل الى صورة مركبة من لحم ودم مشحونة بالأقذار والخبائث . وانما يدرك بعين ظاهرة يغلب الغلط عليها حتى ترى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فكيف لا يتصور بالادراك جمال الحضرة الربوبية والجلال الأزلى الأبدى الذى لا يتصور انقطاعه ونقصانه المدرك بالبصيرة الباطنة التى هى أصدق وأوضح عند أهلها من البصر الظاهر . ومن هذا الأصل قال الجنيد رحمه الله قلت لسرى السقطى رحمه الله هل يجد المحب ألم البلاء قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال لا وان ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة .

وقال بعضهم أحببت كل شيء لحبه حتى لو أحب النار أحببت الدخول في النار . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما بقى لى فرح الا فى موقع قدر الله تعالى . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضى عليه فيما قضى أشد على من ذهاب ولدى .

« الوجه الثانى » من الرضا أن يحس بالألم ويكرهه بالطبع ولكن يرضى به بعقله وايمانه لمعرفته بجزالة الثواب على البلاء كما يرضى المريض بألم الفصد وشرب الدواء لعلمه بأنه سبب الشفاء حتى أنه ليفرح بمن يهدى اليه الدواء وان كان بشعا ، وكذلك يرضى التاجر بمشقة السفر وهو خلاف طبعه ، وهذا أيضا يشاهد مثله فى الأغراض الدنيوية فكيف ينكر فى السعادة الأخروية .

وروى أن امرأة فتح الموصلى الأنصارى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين ألم الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه فاذاً من أيقن أن ثواب البلاء أعظم مما يقاسيه لم يبعد أن يرضى به .

« الوجه الثالث » أن تعتقد أن الله تعالى تحت كل أعجوبة لطيفة بل لطائف . وذلك يخرج عن قلبه الاعتراض بلم وكيف حتى لا يتعجب مما يجرى على العالم مما يظنه الجاهل تشويشا واضطرابا وميلا عن الاستقامة ويعلم أن تعجبه كتعجب موسى من الخضر عليه السلام لما خرق سفينة الأيتام وقتل الغلام وأعاد بناء الجدار كما فى سورة الكهف ، فلما كشف الخضر عن السر الذى اطلع عليه سقط تعجبه وكان تعجبه بناء على ما أخفى عنه من تلك الأسرار وكذلك أفعال الله تعالى مثاله ما حكى عن رجل من الراضين أنه كان يقول فى كل ما يصيبه « الخيرة فيما قدره الله تعالى » وكان فى بادية ومعه أهله وليس له الا حمار يحمل عليه خباءه وكلب يحرسهم وديك يوقظهم ، فجاء ثعلب وأخذ الديك فحزن أهله فقال خيرة وجاء ذئب وقتل الحمار فحزن أهله فقال خيرة ، ثم أصيب الكلب فمات فقال خيرة فتعجب أهله من ذلك حتى أصبحوا وقد سبى من حولهم واسترق أولادهم وكان قد عرف مكانهم بصوت

الديك ومكان بعضهم بنبح الكلب ومكان بعضهم بنهيق الحمار ، فقال قد رأيتم أن الخيرة فيما قدره الله سبحانه فلو لم يهلكهم الله عز وجل لهلكتم وهلكنا .

وروى أن نبيا كان يتعبد فى جبل وكان بالقرب منه عين فاجتاز بها فارس وشرب ونسى عندها صرة فيها ألف دينـار وجاء آخر فأخذ الصرة ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمة حطب فشرب واستلقى ليستريح فرجع الفارس فى طلب الصرة فلم يرها فأخذ الفقير فطالبه وعذبه فلم يجد عنده فقتله . فقال النبى الهى ما هذا ؟ الذى أخذ الصرة ظالم آخر وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتـله فأوحى الله تعـالى اليه اشتغل بعبادتك فليس معرفة أسرار الملك من شأنك ان هذا الفقير كان قد قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص ، وان أبا الفارس كان قد أخذ ألف دينار من مال آخذ الصرة فرددته اليه من تركته .

فمن أيقن بأفعال هذه الأسرار لم يتعجب من أفعال الله تعالى وتعجب من جهل نفسه ولم يقل لم وكيف فرضى بما دبره الله فى ملكوته . وههنا وجوه أربع تتشعب عن محض المعرفة بكمال الجـود والحـكمة وبكيفية ترتيب الأسباب المتوجهة الى المسببات ومعرفة القضاء الأول الذى هو كلمح البصر ومعرفة القدر الذى هو سبب ظهور تفاصيل القضاء . وانها رتبت على أكمل الوجوه وأحسنها . وليس فى الامـكان أحسـن منها وأكمل ولو كان وادخر لكان بخلا لا جودا أو عجزا ينـاقض القـدرة وينطوى تحت ذلك معرفة سر القدر ــ وكما أن من أيقن ذلك لم ينطو ضميره الا على الرضا بكل ما يجرى من الله . وشرح ذلك يطول ولا رخصة فيه أيضا فلنتجاوزه .

فصـــل

لعلك تقول كيف أجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى وبين بغض أهل الكفر والعصيان وقد تعبدت به شرعا وذلك مراد الله تعالى فيهم .

فاعلم أن طائفة من الضعفاء ظنوا أن ترك الأمر بالمعروف من جملة الرضا بالقضاء وسموه حسن الخلق وهو جهل محض بل عليك أن ترضى

وأن تكره جميعا والرضا والكراهية يتضادان اذا تواردا على شيء واحد من وجه واحد ولا يتناقض أن يقتل عدوك الذى هو عدو عدوك أيضا فترضاه من حيث أنه عدوك وتكرهه من حيث أنه عدو عدوك . فكذلك للمعصية وجهان وجه الى الله تعالى من حيث أنها بقضائه ومشيئته فهو من هذا الوجه مرضى به . ووجه الى العاصى من حيث أنه صفته وكسبه ، وعلامة كونه ممقوتا من الله تعالى فهو من هذا الوجه مكروه، وقد تعبدك الله تعالى ببغض من يبغضه من المخالفين لأمره فعليك بما تعبدك به والامتثال له ، ولو قال لك محبوبك انى أريد أن أمتحن حبك بأن أضرب عبدى وأرهقه الى أن يشتمنى فمن أبغضه فهو محبى ومن أحبه فهو عدوى فيمكنك أن تبغض عبده اذا شتمه مع أنك انه الذى اضطره الى الشتم وكان ذلك مرادا منه ، فيقول أما فعله فى الشتم فانى أرضى به من حيث أنه تدبيرك فى عبدك ومرادك ممن أردت ابعاده ، وأما شتمه من حيث هو صفته وعلامة عداوته فانى أبغضه لأنى أحبك فابغض لا محالة من عليه علامة عداوتك وهذه دقيقة زل فيها الضعفاء فلذلك يتهافتون فيها .

فصـــل

كذلك ينبغى أن لا تظن أن معنى الرضا بالقضاء ترك الدعاء ولا ترك التداوى ولا ترك السهم الذى أرسل اليك حتى يصيبك مع قدرتك على دفعه بالترس ، بل تعبدك الله عز وجل بالدعاء ليستخرج به من قلبك صفاء الذكر وخشوع القلب ورقته لتستعد به لقبول الالطاف والأنوار فمن جملة الرضا بقضائه أن يتوصل الى محبوباته بمباشرة ما جعله سببا له بل ترك الأسباب مخالفة لمحبوبه ومناقضة لرضاه فليس من الرضاء المعطشان أن لا يمد اليد الى الماء البارد زاعما أنه رضى بالعطش الذى هو من قضاء الله تعالى بل من قضاء الله تعالى ومحبته أن يزال العطش بالماء فليس فى الرضا بالقضاء ما يوجب الخروج عن حدود الشرع ورعاية سنة الله تعالى أصلا بل معناه ترك الاعتراض على الله عز وجل اظهارا واضمارا مع بذل الجهد فى التوصل الى محاب الله تعالى من عباده ، وذلك بحفظ الأوامر وترك النواهى .

الاصل العاشر فى ذكر الموت وحقيقته واصناف العقوبات الروحانية

« اعلم » أن المقامات التسع التى ذكرناها ليست هى على رتبة واحدة بل بعضها مقصودة لذاتها كالمحبة والرضا فانهما أعلى المقامات وبعضها مطلوبة لغيرها كالتوبة والزهد والخوف والصبر اذ التوبة رجوع عن طريق البعد للاقبال على طريق القرب ، والزهد ترك الشواغل عن القرب والخوف سوط يسوق الى ترك الشواغل ، والصبر جهاد مع الشهوات القاطعة لطريق القرب ، وكل ذلك غير مطلوب لذاته بل المطلوب القرب (١) وذلك بالمعرفة والمحبة فانها مطلوبة لذاتها لا لغيرها ولكن لا يتم ذلك الا بقطع حب غير الله تعالى عن القلب فاحتيج الى الخوف والصبر والزهد لذلك . ومن الأمور العظيمة النفع فيه ذكر الموت فلذلك أوردناه ولذلك عظم الشرع ثواب ذكره اذ به يتنغص حب الدنيا وتنقطع علاقة القلب عنها قال الله تعالى « قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هادم اللذات » وقال عليه السلام « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال « نعم من

---

(١) نعم ما قال قدوة العرفاء والأدباء الشيخ سعدى الشيرازى فى كتابه « بند نامه » :

خوش آندل كه شيداست برروى دوست
خوش آندل كه شد منزلش كوى دوست

ونعم ما قال صاحب المثنوى حضرة مولانا جلال الدين البلخى :

أى لقاى توجواب هر سؤال   مشكل ازتوحل شودبى قيل وقال

وهذه ترجمة البيتين :

طوبى لذلك القلب الذى عشق وجه الحبيب ، وطوبى لذاك القلب الذى عند الحبيب منزله .

يامن لقاءك جواب كل سؤال ، بك ينحل كل مشكل من دون قيل وقال .

يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس وقد استعلاه الضحك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات » قيل وما هو قال عليه السلام « الموت » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم لما أكلتم منها لحما سمينا » وقال عليه السلام « كفى بالموت واعظا » وقال عليه السلام « تركت فيكم واعظين صامتا وناطقا فالصامت الموت والناطق القرآن » وذكر رجل عند النبى عليه السلام وأحسن الثناء عليه فقال عليه السلام « كيف كان ذكر صاحبكم للموت » قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال « ان صاحبكم ليس هناك » وقال رجل من الأنصار يا رسول الله من أكيس الناس وأكرم الناس . فقال « أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا أولئك هم الأكياس ذهبوا براحة الدنيا وكرامة الآخرة » (١) .

فصـــل

اعلم أن الموت عظيم هائل وما بعده أعظم منه وفى ذكره منفعة عظيمة فانه ينغص الدنيا ويبغضها الى القلب وبغضها رأس كل حسنة كما ان حبها رأس كل خطيئة وللعارف فى ذكره فائدتان « احداهما » النفرة من الدنيا « والأخرى » الشوق الى الآخرة فان المحب لا محالة مشتاق ومعنى الشـوق فى المحسوسات استكمال الخيال بالترقى الا المشاهدة فان المشتاق اليه مدرك لا محالة بالخيال وغائب عن الأبصار وأحوال الآخرة ونعيمها وجمال الحضرة الربوبية مدرك كل ذلك للعارف يعرفه (١) كأنه نظر من وراء ستر رقيق فى وقت الاسفار وضعف النور فهو مشتاق الى استكمال ذلك بالتجلى والمشاهدة ويعلم أن ذلك لا يكون الا بالموت . فلذلك لا يكره الموت لأنه لا يكره لقاء الله تعالى ولا سبب لاقبال الخلق على الدنيا الا قلة التفكر فى الموت . وطريق الفكر فيه أن يفرغ الانسان

---

(١) وفى النسخة العراقية بشرف الدنيا الخ .

(٢) وفى النسخة الكردية للعارف معرفة كأنها الخ .

قلبه عن فكر سواه . ويجلس فى خلوة (١) ويباشر ذكر الموت بصميم قلبه ويتفكر أولا فى أخدانه وأشكاله (٢) الذين مضوا فيتذكرهم واحدا واحدا ويتذكر حرصهم وأملهم وركونهم الى الجاه والمال . ثم يتذكر مصارعهم عند الموت وتحسرهم على فوات العمر وتضييعه ، ثم يتفكر فى أجسادهم كيف تمزقت فى التراب وصارت جيفة تأكلها الديدان ، ثم يرجع الى نفسه ويعلم أنه كواحد منهم أمله كأملهم ومصرعه كمصرعهم . ثم ينظر فى أعضائه وينظر كيف تتفتت ، والى حدقته كيف يأكلها الدود والى لسانه كيف يتهرى ويصير جيفة فى فيه . فاذا فعلت ذلك تتنغص عليك الدنيا وكنت سعيدا اذ السعيد من وعظ بغيره . فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الأموات سفر عن قريب الينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة » .

فصـــل

أصل الغفلة عن الموت طول الأمل وذلك عين الجهل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما « اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فانك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غدا » وقال صلى الله عليه وسلم « ان أخوف ما أخاف على أمتى خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل » واشترى أسامة وليدة الى شهرين بساية فقال عليه السلام « ألا تعجبون من أسامة المشترى الى شهرين ان أسامة لطويل الأمل والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى الا ظننت أن شفرى

---

(١) الخلوة محادثة السر مع الحق، ونعم ما قال حضرة مولانا جلال الدين البلخى فى كتابه المسمى بمثنوى :

كرشبى نور أسـنانه خم شوى ‌ ‌ وارهى أز اختران محرم شوى
جون شوى محرم كشايم باتولب ‌ ‌ تا ببينى آفتـابى نيم شب

وهذه ترجمة البيتين : لو انحنيت بالاستقامة والحق ليلا لسبقت الكواكب وكنت محرما ، وحينما تكون محرما أفتح معك شفتى حتى ترى الشمس فى منتصف الليل .

(٢) وفى النسخة الكردية وأقرانه .

لا يلتقيان حتى يقبض الله عز وجل روحى ، ولا رفعت طرفى وظننت أنى واضعها حتى أقبض ، ولا لتست لقمه الا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت » ثم قال « يا بنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » وقال ﷺ « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » وقال عليه السلام « أكلكم يحب أن يدخل الجنة » قالوا نعم قال عليه السلام « قصروا آمالكم واجعلوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء » .

فصـــل

اعلم أن العارف الكامل المستهتر بذكر الله تعالى مستغن عن ذكر الموت بل حاله الفناء فى التوحيد لا التفات له الى ماض ولا الى مستقبل ولا الى حال من حيث أنه حال بل هو ابن وقته يعنى أنه كالمتحد بمذكوره لست أقول (١) متحد بالذات فلا تغفل فغلط وتسىء الظن . وكذلك يفارقه الخوف والرجاء لأنهما سوطان يسوقان العبد الى هذه الحالة التى هو ملابسها بالذوق وكيف يذكر الموت وانما يراد ذكر الموت لتنقطع علاقة قلبه عما يفارقه بالموت . والعارف قد مات مرة فى حق الدنيا وفى حق كل ما يفارقه بالموت فانه قد ترفع وتنزه عن الالتفات الى الآخرة أيضا فضلا عن الدنيا وقد تنغص عليه ما سوى الله تعالى ولم يبق له من الموت الا كشف الغطاء ليزداد به وضوحا لا ليزداد يقينا وهو معنى قول على رضى الله عنه « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » فان النـاظر الى غيره من وراء ستر لا يزداد برفع الستر يقينا بل وضوحا فقط . فاذا ذكر الموت يحتاج اليه من لقلبه التفات الى الدنيا ليعلم أنه سيفارقها فلا يعتكف بهمته عليها ولذلك قال عليه السلام « ان روح القدس نفث فى روعى أحبب ما أحببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزى » .

(١) وفى النسخة الكردية كالمتحد لمذكور لست اقول .

فصـــل

لعلك تشتهي أن تعرف حقيقة الموت وماهيته ولن تعرف ذلك ما لم تعرف حقيقة الحياة ولن تعرف حقيقة الحياة ما لم تعرف حقيقة الروح وهى نفسك وحقيقتك وهى أخفى الأشياء عنك ولا تطمع فى أن تعرف ربك قبل أن تعرف نفسك وأعنى بنفسك روحك التى هى خاصية الأمر المضافة الى الله تعالى فى قوله « قل الروح من أمر ربى » وفى قوله « ونفخت فيه من روحى » دون الروح الجسمانى اللطيف الذى هو حامل قوة الحس والحركة التى تنبعث من القلب وتنتشر فى جملة البدن فى تجاويف العروق الضوارب فيفيض منها نور حس البصر على العين ونور السمع على الأذن — وكذا سائر القوى والحواس كما يفيض من السراج نور على حيطان البيت اذا أدير فى جوانبه فان هذه الروح تشارك البهائم فيها وتنمحق بالموت لأنه بخار اعتدل نضجه عند اعتدال مزاج الاخلاط فاذا انحل المزاج بطل كما يبطل النور الفائض من السراج عند انطفاء السراج بانقطاع الدهن عنه أو بالنفخ فيه وبانقطاع الغذاء عن الحيوان تفسد هذه الروح لأن الغذاء له كالدهن للسراج والقتل له كالنفخ فى السراج وهذه هى الروح التى يتصرف فى تعديلها وتقويتها علم الطب . ولا تحمل هذه الروح المعرفة والأمانة بل الحمال للأمانة الروح الخاصة للانسان . ونعنى بالأمانة تقلد عهدة التكليف بأن يتعرض لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية . وهذه الروح لا تموت ولا تفنى بل تبقى بعد الموت اما فى نعيم وسعادة أو جحيم وشقاوة فانه محل المعرفة والتراب لا يأكل محـــل الايمان والمعرفة أصلا كما نطقت به الأخبار وشهدت له شواهد الاستبصار ولم يأذن الشرع فى ذكر تحقيق صفته اذ لا يحتمله الا الراســخون فى العلم وكيف يذكر وله من عجائب الأوصـــاف ما لم يحتمله أكثر عقول الخلق فى حق الله تعالى فلا تطمع فى ذكر حقيقته . وانتظر تلويحا يسيرا فى ذكر صفته بعد الموت .

فصــــل

هذه الروح لا تفنى ألبتة ولا تموت بل تتبدل بالموت حالها فقط ويتبدل منزلها فترقى من منزل الى منزل والقبر فى حقهــا اما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران اذ لم يكن لها مع البدن علاقة سوى استعمالها البدن واقتناصها أوائل المعرفة به بواسطة شبكة الحواس. فالبدن آلتها ومركبها وشبكتها . وبطلان الآلة والمركب والشبـكة لا توجب بطلان الصائد . نعم ان بطلت الشبكة بعد الفراغ من الصـيد فبطلانه غنيمة اذ يتخلص من ثقله وحمله . ولذلك قال عليه السلام « الموت تحفة المؤمن » وان بطلت الشبكه قبل الصيد عظمت فيه الحسرة والندامة والألم . فلذلك يقول المقصر . رب ارجعونى لعلى أعمل صالحا فيما تركت . بل ان كان ألف الشبكة وأحبها وتعلق قلبه بها وحسن صورتها وصنعتها وما يتعلق بها كان له من العذاب ضعفان « أحدهما » حسرة فوات الصيد الذى لا يقتنص الا بشبكة البدن « والثانى » زوال الشبكة مع تعلق القلب بها والفه لها وهذا مبدأ من مبادىء معرفة عذاب القبر ان استقصيته تحققته قطعا .

فصــــل

لعلك تشتهى الاستقصاء المفضى الى التحقيق « فاعلم » أن هذا الكتاب لا يحتمله فاقنع منع بانموذج يسير . وافهم أن معنى الموت زمانة البدن وأنت تعرف أن زمانة البدن خروجها عن طاعتك مع وجود شخصها ببطلان القوة التى بواسطتها تستعمل البدن . فافهم أن الموت زمانة مطلقة فى جميع الأعضاء ببطلان قواها فيسلب الموت منك يدك ورجلك وعينك وسائر حواسك وأنت باق أعنى حقيقتك التى أنت بها أنت (١) فانك الآن الانسان الذى كنت فى الصبى ولعله لم يبق فيك من تلك الأجسام شىء بل انحل كلها وحصل بالغذاء بدنها وأنت أنت وجسدك غير ذلك الجسد .

(١) وفى النسخة الكردية حقيقتك التى بها أنت وفى النسخة النورية حقيقتك التى أنت بها اله .

فان كان لك معشوق تفتقر فيه الى حواسك عظم عذابك بفراق معشوقك ، وجميع ملاذ الدنيا معشوق ولا تنال الا بالحواس ولا فرق فى عـذاب العاشق بين أن يحجب عنه معشوقه وبين أن تفقأ عينه أو يسلب هو عنه بأن يحمل الى موضع حتى لا يراه فان ألمه من عدم الرؤية . ومن أحب أهله وماله وعقاره وفرسه وجاريته وثيابه يألم بفراقها سواء سلبت هذه الأشياء عنه أو سلب هو عنها بأن حمل الى موضع آخر وحيل بينه وبينها . فالموت يسلبك هذه الأشياء ويحول بينك وبينها فيكون عذابك بقـدر عشقك لهـا . والموت يخلى بينـك وبين الله تعـالى ويقطع عنك هذه الحواس الشـاغلة المشـوشة فتـكون لذتك فى القـدوم على الله تعـالى بقدر حبـك له وأنسـك بذكره . ولأجـل هذا نبهك ، وقال الله تعـالى « أنا بدك اللازم فالزم بدك » وأجمـع العبارات عن نعيم الجنـة أن لهم فيهـا ما يشـتهون ، وأجمـع العبـارات لعذاب الآخرة قوله « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » ، ولا ملذ الا الشهوة ولكن عند مصادمة المشتهى ولا مؤلم الا الشهوة ولكن عند مفارقة المشتهى ، ولا ينبغى أن تغتر الآن وتقول ان كان هذا سبب عذاب القبر فأنا فى أمان منه اذ لا علاقة بين قلبى وبين متاع الدنيا فان هذا لا تدركه بالحقيقة مالم تطرح الدنيا وتخرج عنها بالكلية ، فكم من رجل باع جارية على ظن أنه لا علاقة بينه وبينها ، فلما أخذها المشترى اشتعل قلبه بنيران الفراق واحترق بها احتراقا ربما ألقى نفسه فى الماء والنار ليقتل نفسه ويتخلص منها . فكذلك يكون حالك فى القبر فى كل ما يتعلق به قلبك من الدنيا . ولذلك قال المصطفى عليه السلام « أحبب ما أحببت فانك مفـارق » ووراء هذا عذاب أعظم منه وهو حسرة الحرمان عن القرب من الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم ، وينكشف بالموت عظم قدر ما فات منه وان كان لا يعظم قدره عندك قبل الموت لأن الموت سبب الانكشاف ما لم تكن المكاشفة قبله كما أن النوم سبب انكشاف الغيب بمثال أو غير مثال والنوم أخو الموت ولكنه دونه بكثير فهذان عذابان يتضاعفان على كل ميت كان غير الله تعالى أحب اليه من الله تعالى ، وكان أنسه بغير الله تعالى أكثر

من أنسه بالله وهما ضروريان تعرفهما ان عرفت الحقيقة الروح وبقاءه بعد الموت وعلائقه وما يضاده بالطبع وما يوافقه بالطبع .

فصـــل

لعلك تقول المشهور عند أهل العلم أن الانسان يعدم بالموت ثم يعاد وان عذاب القبر يكون بنيران وعقارب وحيات وما ذكرته يخالف ذلك .

فاعلم أن من قال ان الموت معناه العدم فهو محجوب عن حضيض التقليد ويفاع الاستبصار جميعا . أما حرمانه عن ذروة الاستبصـــار فلا تدركه ما لم تستبصر — وأما حرمانه عن التقليد فتعرفه بتلاوة الآيات والأخبار . قال الله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين » الآية هذا فى السعداء . وأما فى الأشقياء فقد ناداهم رســول الله ﷺ يوم بدر لما قتلوا فكان يقول « يا فلان يا فلان » يذكر واحدا واحدا من صناديدهم « فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ما وعد بكم حقا » فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ، فقال عليه السلام « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لكلامى منهم لكنهم لا يقدرون على الجواب » . وقال عليه السلام « الموت هو القيامة ومن مات فقد قامت قيامته » وأراد بهذه القيـــامة الصغرى والقيامة الكبرى تكون بعدها ، وشرح قيامة الصغرى ان أردته فاطلبه من كتاب الصبر من كتب الأحياء ، والأخبار فى الدلالة على بقاء أرواح الموتى وشعورهم بما يجرى فى هذا العالم أيضا كثيرة .

فصـــل

أما قولك أن المشهور من عذاب القبـــر التألم بالنيران والعقـــارب والحيات فهذا صحيح وهو كذلك ولكنى أراك عاجزا عن فهمه ودرك سره وحقيقته الا أنى أنبهك على انموذج منه تشويقا لك الى معرفة الحقائق والتشمر للاستعداد لأمر الآخرة فانه نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . فقد قال عليه السلام « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء قد فرج له قبره سبعين ذراعا ويضىء وجهه حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا

أنزلت فان له معيشة ضنكا » قالوا الله ورسوله اعلم « قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رؤوس ينهشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون (١) » .

فانظر الى هذا الحديث واعلم أن هذا حق على الوجه الذى شاهده أرباب البصائر ببصيرة أوضح من البصر الظاهر ، والجاهل ينكره اذ يقول انى انظر فى قبره فلا أرى ذلك أصلا . فليعلم الجاهل أن هذا التنين ليس خارجاً عن ذات الميت أعنى ذات روحه لا ذات جسده فان الروح هى التى تتألم وتتنعم بل كان معه قبل موته متمكنا من باطنه لكنه لم يكن يحس بلدغه لخدر كان فيه لغلبة الشهوات فأحس بلدغه بعد الموت ، وليتحقق أن هذا التنين مركب من صفاته وعدد رؤوسه بقدر عدد أخلاقه الذميمة وشهواته لمتاع الدنيا وأصل هذا التنين حب الدنيا . وتتشعب عنه رؤوس بعدد ما يتشعب عن حب الدنيا من الحسد والحقد والرياء والكبر والثروة والمكر والخداع وحب الجاه والمال والعداوة والبغضاء . وأصل ذلك معلوم بالبصيرة . وكذلك كثرة رؤوسه اللداغة أما انحصار عددها فى تسعة وتسعين انما يوقف عليه بنور النبوة فقط . فهذا التنين متمكن فى صميم فؤاد الكافر لا بمجرد جهله بالكفر بل لما يدعو اليه الكفر كما قال الله تعالى « ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة » وقال الله تعالى « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » الآية .

وهذا التنين لو كان كما تظنه خارجا من ذات الميت لكان أهون اذ ربما يتصور أن ينحرف عنه التنين أو ينحرف هو عنه لا بل هو متمكن من صميم فؤاده يلدغه التنين لدغا أعظم مما تفهمه من لدغ التنين وهو بعينه صفاته التى كانت معه فى حياته كما أن التنين الذى يلدغ قلب العاشق اذا باع جاريته هو بعينه العشق الذى كان مستكنا فى قلبه استكنان النار فى الحجر وهو غافل عنه فقد انقلب ما كان سبب لذته سبب ألمه . وهذا سر قوله عليه السلام « انما هى أعمالكم ترد عليكم » وقوله

(١) وفى النسخة العراقية ينحشونه وينفخون فى جسمه .

تعالى « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » بل سر قوله تعالى « كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » أى أن الجحيم فى باطنكم فاطلبوها بعلم اليقين لترونها قبل أن تدركوها بعين اليقين بل هو سر قوله تعالى « ويستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين » ولم يقل انها ستحيط بل قال هى محيطة . وقوله تعالى « انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » ولم يقل يحيط بهم وهو معنى قول من قال أن الجنة والنار مخلوقتان . وقد أنطق الله لسانه بالحق ولعله لا يطلع على سر ما يقوله : فان لم تفهم بعض معانى القرآن كذلك فليس لك نصيب من القرآن الا فى قشوره كما ليس للبهيمة نصيب من البر الا فى قشوره الذى هو التبن. والقرآن غذاء الخلق كلهم على اختلاف أصنافهم ولكن اغتذاؤهم به على قدر درجاتهم ، وفى كل غذاء مخ ونخالة وتبن ؛ وحرص الحمار على التبن أشد منه من الخبز المتخذ من اللب وأنت شديد الحرص على ألا تفارق درجة البهيمة ولا تترقى الى رتبة الانسانية بل الى الملكية فدونك والانسراح فى رياض القرآن ففيه متاع لكم ولأنعامكم .

فصل

« فان قلت » فهل يتمثل هذا التنين تمثلا تشاهده مشاهدة تضاهى ادراك البصر أم هو تألم محض فى ذاته كألم العاشق اذا حيل بينه وبين معشوقه « فأقول » لا بل يتمثل لك حتى تشاهده ولكن تمثلا روحانيا لا على وجه يدركه من هو بعد فى عالم الشهادة اذا نظر فى قبره فان ذلك من عالم الملكوت . نعم العاشق أيضا قد ينام فيتمثل له حاله فى المنام فربما يرى حية تلدغ صميم فؤاده لأنه بعد بالنوم من عالم الشهادة قليلا فيتمثل له حقائق الأشياء تمثلا محاكيا الحقيقة منكشفا له من عالم الملكوت والموت أبلغ فى الكشف من النوم لأنه أقمع لنوازع الحس والخيال وأبلغ فى تجريد الروح عن غشاوة هذا العالم فلذلك يكون ذلك التمثل تاما متحققا دائما لا يزول فانه نوم لا ينتبه منه الا يوم القيامة ويقال له « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

واعلم أن المتيقظ يجنب النائم ان كان لا يشاهد الحية التى تلدغ النائم فذلك غير مانع من وجود الحية فى حقه وحصول الألم به . فكذلك حال الميت فى القبر .

فصـــل

لعلك تقول قد أبدعت قولا مخالفا للمشهور منكرا عند الجمهور اذ زعمت أن أنواع عذاب الآخرة تدرك بنور البصيرة والمشاهدة ادراكا مجاوزا حد تقليد الشرائع فهل يمكنك ان كان كذلك حصر أصناف العذاب وتفاصيله .

فاعلم أن مخالفتى للجمهور لا تنكر وكيف تنكر مخالفـة المسافر الجمهور فان الجمهور يستقرون فى البلد الذى هو مسقط رؤوسهم ومحل ولادتهم وهو المنزل الأول من منازل وجودهم ، وانما يسافر منهم الآحاد .

واعلم أن البلد منزل البدن والقالب ، وانما منازل الروح الانسانى عوالم الادراكات ، والمحسوسات منزله الأول والمتخيلات منزله الثانى ، والموهومات منزله الثالث ، وما دام الانسان فى المنزل الأول فهو دود وفراش . فان فراش النار ليس له الا الاحساس ولو كان له تخيل وحفظ المتخيل بعد الاحساس لما تهافت على النار مرة بعد أخرى ، وقد تأذى بها أولا فان الطير وسائر الحيوان اذا تأذى فى موضع بالضرب يفر منه ولم يعاوده لأنه بلغ المنزل الثانى وهو حفظ المتخيلات بعد غيبوبتها عن الحس . وما دام الانسان فى المنزل الثانى بعد فهو بهيمة ناقصة انما حده أن يحترز عن شىء تأذى به مرة وما لم يتأذ بشىء فلا يدرى أنه يحذر منه وما دام فى المنزل الثالث وهو الموهومات فهو بهيمة كالفرس مثلا فانه قد يحذر من الأسد اذا رآه أولا وان لم يتأذ به قط فلا يكون حذره موقوفا على أن يتأذى به مرة بل الشاة ترى الذئب أولا فتحذره وترى الجمل والبقر وهما أعظم منه شكلا وأهول منه صورة ولا تحذرهما اذ

ليس من طبعهما ايذاؤها . وهؤلاء الى الآن تشاركهم البهائم(١) فبعد هذا يترقى الانسان الى عالم الانسانيه فيدرك أشياء لا تدخل فى حس ولا تخيل ولا توهم ويحذر به الأمور المستقبلة ولا يقتصر حذره على العاجلة اقتصار حذر الشاة على ما تشاهده فى الحال من الذئب ومن ههنا يصير الى حقيقة الانسانية والحقيقة هى الروح المنسوبة الى الله تعالى فى قوله « ونفخت فيه من روحى » وفى هذا العالم يفتح له باب الملكوت فيشاهد الأرواح المجردة عن كسوة التلبيس وغشاوة الأشكال وهذا العالم لا نهاية له .

أما عوالم المحسوسات والمتخيلات والموهومات فمتناهية لأنها مجاورة الأجسام وملتصقة بها والأجسام لا يتصور أن تكون غير متناهية والسير فى هذا العالم مثاله المشى الى الخيال على الماء (٢) ثم يترقى منه الى المشى فى الهواء ولذلك لما قيل لرسول الله ﷺ أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه مشى على الماء فقال عليه السلام (نعم ولو ازداد يقينا لمشى فى الهواء) .

وأما التردد على المحسوسات فهو كالمشى على الأرض وبينها وبين الماء عالم يجرى مجرى السفينة وفيها تتولد درجات الشياطين حتى يجاوز الانسان عوالم البهائم فينتهى الى عالم الشياطين ، ومنه يسافر الى عالم الملائكة وقد ينزل فيه ويستقر ـ وشرح ذلك يطول وهذه العوالم كلها منازل الهدى ولكن الهدى المنسوب الى الله تعالى يوجد فى هذا العالم الرابع وهو عالم الأرواح وهو قوله تعالى « قل ان الهدى هدى الله » ومقام كل انسان ومحله ومنزله فى العلو والسفل (٣) بقدر ادراكه وهو معنى قول على رضى الله عنه (الناس أبناء ما يحسنون) فالانسان بين أن يكون دودا أو حمارا أو فرسا أو شيطانا ثم يجاوز ذلك فيصير ملكا . وللملائكة درجات فمنهم الأرضية ومنهم السماوية ومنهم المقربون

(١) وفى النسخة الدمشقية تشاركه البهائم .

(٢) وفى النسخة النورية « والسير فى هذا العالم أعنى عالم الخيال والوهم مثاله المشى على الماء » .

(٣) وفى النسخة الكردية « والتسفل » .

المترفعون عن الالتفات الى السماء والأرض القاصرون نظرهم على جمال الحضرة الربوبية وملاحظة الوجه خاصة وهم أبدا فى دار البقاء اذ ملحوظهم هو الوجه الباقى وما عدا ذلك فالى الفناء مصيره أعنى السماء والأرض وما يتعلق بهما من المحسوسات والمتخيلات والموهومات وهو معنى قوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام » .

وهذه العوالم منال سفر الانسان ليترقى من حضيض درجة البهائم الى يفاع رتبة الملائكة ، ثم يترقى من رتبتهم الى رتبة العشاق منهم وهم العاكفون على ملاحظة جمال الوجه . يسبحون للوجه ويقدسونه بالليل والنهار لا يفترون . فانظر الآن الى خسة الانسان وشرفه والى بعد مراقيه فى معارجه . والى انحطاط درجاته فى تسفله وكل الآدميين مردودون الى أسفل السافلين . ثم الذين آمنوا وعملوا الصالحات يترقون منها فلهم أجر غير ممنون وهو جمال الوجه — وبهذا يفهم معنى قوله تعالى « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » الآية لأن معنى الأمانة التعرض للعهدة والخطر ولا خطر على سكان الأرض وهم البهائم اذ ليس لهم امكان الترقى من المنزل الثالث ولا خطر على الملائكة اذ ليس لهم خوف الانحطاط الى حضيض عالم البهائم . وانظر الى الانسان وعجائب عوالمه كيف يعرج الى سماء العلو رقيا ويهوى الى أرض الحقارة هويا متقلدا هذا الخطر العظيم الذى لم يتقلده فى الوجود غيره فيا مسكين كيف تهددنى بالعاقبة وتخوفنى مجاوزة الجمهور ومخالفة المشهور وبذلك فرحى وسرورى . ان الذين يكرهون منى ذلك الذى يشتهيه قلبى فاطو طومار الهذيان ولا تقعقع لى بعد هذا بالشنان(١) .

---

(١) فى القاموس وما يقعقع له بالشنان بفتح القافين يضرب لمن لا يتضح لحوادث الدهر ولا يروعه ما لا حقيقة له ، القعاقع تتابع أصوات الرعد والشنان كسحاب لغة فى الشنان وكغراب الماء البارد وككتاب واد بالشام ، انتهى .

فصـــل

وأما مطالبتك اياى بتفصيل عذاب الآخرة وذكر أصنافه فلا تطمع بالتفصيل فذلك داعية الى الملال والتطويل . واقنع بذكر الأصناف فقد ظهر لى بالمشاهدة ظهورا أوضح من العيان أن عذاب الآخرة ثلاثة أعنى الروحانى منها حرقة المشتهيات وخزى خجلة المفضحات ، وحسرة فوات المحبوبات . فهذه ثلاثة أنواع من النيران الروحانية تتعاقب على روح من آثر الحياة الدنيا الى أن ينتهى الى مقاساة النار الجسمانية فان ذلك يكون فى آخر الأمر فخذ الآن شرح هذه الأصناف (١) .

« الصنف الأول » حرقة فرقة المشتهيات فصـــورته المستعارة من عالم الحس والتخيل التنين الذى وصفه الشرع ، وعدد رؤوسه وهى بعدد الشهوات ، ورذائل الصفات تلدغ صـــميم الفؤاد لدغا مؤلما وان كان البدن بمعزل عنه . فقدر فى عالمك هذا ملكا مستوليا على جميع الأرض متمكنا من جميع الملاذ متمتعا بها مستهترا بالوجوه الحســـان متهالكا عليها مشـــغوفا بالامارة واســـتعباد الخلق بالطاعة مطاعا فيهم غافصه عدوه (٢) واسترقه واستعمله على ملأ من رعيته فى تعهد الكلاب وصار يتمتع بنعمه ويتمتع بأهله وجواريه بين يديه ويتصرف فى خزائنه وذخائر أمواله فيفرقها على أعـــدائه ومعانديه ، وانظر الآن هل ترى على قلبه تنينا ذا رؤوس كثيرة تلدغ صميم فؤاده وبدنه بمعزل عنه وهو يريد لو أن يبتلى بدنه بأمراض وآلام ليتخلص منه فتوهم هـــذا فربما تشـــم به قليلا من رائحة الحطمة التى فيها نار الله الموقدة التى لا تطلع الا على الأفئدة أعدت لمن جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده .

« واعلم » أن عذاب كل ميت بقدر رؤوس هـــذا التنين وعدد الرؤوس بقدر المشتهيات فلهذا من كان أفقر وتمتعه بالدنيا أقل كان

---

(١) وفى النسخة النورية « الأصناف » .

(٢) قوله غافصه أى فاجأه وأخذه على غرة .

العـذاب عليه أخف ومن لا عـلاقة له مع الدنيا أصلا فلا عقاب عليه أصلا .

« الصنف الثانى » خزى خجلة المفضحات . فقـدر رجلا خسيسا رذيلا فقيرا عاجزا قربه ملك من الملوك ورفعه وقواه وخلع عليه وسلم اليه نيابة ملكه ومكنه من دخـول حريمه وجملة خزائنه اعتمـادا على أماناته فلما عظمت عليه النعمة طغى وبغى وصار يخون فى خزانته ويفجر بأهل الملك وبناته وسرياته وهو فى جميع ذلك يظهر الأمانة للملك ويعتقد أنه غير مطلع على خيانته فبينما هو فى غمرة فجوره وخيانته اذ لاحظ روزنة فرأى فيها الملك مطلعا عليه منها ، وعلم أن الملك كان يطلع عليه كل يوم وليلة ولكنه كان يغض عنه ويسهله حتى يزداد خبثا وفجـورا ويزداد استحقاقا للنكال ليصب عليه فى الآخرة أنواع العذاب صبا . فانظر الآن الى قلبه كيف يحترق بنار الخزى والخجلة وبدنه بمعزل عنه ، كيف يود أن يعذب بدنه بكل عذاب وينكتم خزية فكذلك أنت تتعاطى فى الدنيا أعمالا هى مشتهياتك ، ولتلك الأعمال أرواح وحقائق خبيثة قبيحة وأنت جاهل بها معتقد حسنها . فينكشف لك فى الآخرة حقائقها فى صورها القبيحة فتخنزى وتخجل خجلة تؤثر عليها آلاما بدنية . فان قلت كيف ينكشف الى أرواحها وحقائها .

فاعلم أن ذلك لا تفهمه الا بمثال فمن جملته مثلا أن يؤذن المؤذن فى رمضان قبل الصبح فيرى فى المنام أن بيده خاتما يختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فيقول له ابن سيرين هذا رأيته لأذانك قبل الصبح . فتأمل الآن أنه لما بعد بالنوم قليلا عن عالم الحس الجسمانى انكشف له روح عمله لكن لما كان بعد فى عالم التخيل لأن النائم لا يزول تخيله بالنوم غشاه الخيال بمثال متخيل وهو الخاتم والختم ولكنه مثال أدل على روح العمل من نفس الأذان لأن عالم المنام أقرب الى عالم الآخرة . فالتلبيس فيه أضعف قليلا وليس يخلو عن تلبيس ولأجله يحتاج الى التعبير ، ولو قال قائل لهذا المؤذن أما تستحى أن تختم أفواه الرجال وفروج النساء لقال معاذ الله أن أفعل هذا فلأن أقدم ويضرب عنقى أحب

الى من أن أفعل ذلك فهو ينكره لأنه يجهله مع أنه فعله لأن روحه قاصرة عن ادراك أرواح الأشياء وحقائقها ، وكذلك لو أكلت لحما طيبا على اعتقاد أنه لحم طير . فقال قائل أما تستحى أن تأكل لحم أخيك الميت فلان القاتل معاذ الله أن أفعل ذلك ولأن أموت جوعا أهون على من ذلك فنظرت فاذا هو لحم أخيك الميت قد طبخ وقدم اليك وليس عليك فانظر كيف تختزى وتفتضح به وبدنك فى معزل عن ألمه فكذلك يرى المغتاب نفسه فى الآخرة ولأن روح الغيبة تمزيق أعراض الاخوان والتفكه بها . وفى عالم الآخرة تنكشف أرواح الأشياء وحقائقها — وكذلك لو كنت ترمى حجارة الى حائط فقال لك قائل أما تستحى أن تفعل ذلك والحجارة ترتد من الحائط . وتقع فى دارك وتصيب حدقة أولادك فقد عميت أحداقهم كلهم قلت معاذ الله أن أفعل ذلك . فقال ادخل دارك فدخلت فاذا هو كذلك . فانظر كيف تفتضح ويحترق قلبك تحسرا على عملك الذى ظننته هينا وهو عند الله عظيم ، وهذا روح حسدك لأخيك فانك تحسده ولا تضره وتنعكس عليك ويهلك دينك وتنقل حسناتك الى ديوانه وهى قرة عينك لأنها سبب سعادة الأبد فهى أعز من حدقة الولد . فاذا انكشف لك هذا الروح . فانظر كيف تحترق بنيران الفضيحة وبدنك بمعزل عنه فالقرآن كثيرا ما يعبر عن الأرواح ولذلك قال تعالى فى الغيبة « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » وقال الله تعالى فى الحسد « يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم » فيكفيك من الأمثلة مثال الأذان والغيبة والحسد فقس عليه كل فعل نهاك الشرع عنه فذلك لقبح روح الفعل وحقيقته وحسن ظاهره أى ظاهره حسن للبصر الظاهر ، وباطنه قبيح للبصيرة الناظرة من مشكاة نور الله تعالى ، وعن هذا عبر الشرع حيث قال تعرض الدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شوهاء زرقاء صفتها كيت وكيت لا يراها أحد الا ويقول أعوذ بالله منها فيقال هذه دنياكم التى كنتم تتهالكون عليها فيصادفون فى نفوسهم من الخزى والفضيحة ما يؤثرون النار عليه . وان أردت أن تفهم كيفية هذه الخجلة ، فاسمع حكاية رجل من أبناء الملوك زوج بأجمل امرأة من بنات الملوك . فشرب تلك الليلة فسكر وأخطأ باب الحجرة

فخرج من الدار وضل فرأى ضوء سراج فقصده على ظن أنها حجرته . فدخل الموضع فرأى جماعة نياما فصاح بهم فلم يجيبوه فظن أنهم نيام فطلب العروس فرأى واحدة نائمة فى ثياب جديدة فظن أنها العروس فضاجعها وأخذ يقبلها ويغشاها ويجعل لسانه فى فيها ويمتص ريقها متلذذا بذلك فى سكره غاية التلذذ ويتمسح بالرطوبات التى تصيبه من جميع بدنها على ظن أن ذلك عطر ادخرته له فلما أصبح أفاق فاذا هو فى ناووس المجوس ، واذا النيام موتى . وهذه عجوز شوهاء (١) قريبة العهد بالموت عليها الحنوط وكفنها الجديد فصادف فى فمه وأنفه من رطوبات ريقها ومخاطها وعلى بدنه من قاذورات أسافلها . فاذا هو من قرنه الى قدمه ممتلىء فى قاذوراتها (٢) ثم تفكر فى غشيانه اياها وابتلاعه ريقها فهجم على قلبه من الخزى ما تمنى أن يخسف الله به الأرض حتى ينسى ما جرى عليه ولا يزال يعاود ذكره ولا ينساه أصلا بل « تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » وبدنه بمعزل من هذه المخازى والآلام وهو فى عذاب دائم من الغثيان والقىء وتذكر تلك المخازى ويحذر أن يطلع عليه أحد فيتضاعف حزنه فاذا هو بأبيه وجميع حشمه قد جاءوا فى طلبه واطلعوا على جميع مخازيه فهذه حال من تمتع بالدنيا ينكشف له كذلك فى الآخرة روحه وحقيقته وهى معنى قوله تعالى « وحصل ما فى الصدور » أى يعرض عليها حاصلها أى روحها وحقيقتها وهى معنى قوله تعالى « يوم تبلى السرائر » أى يكشف عن أسرار الأعمال وارواحها القبيحة أو الحسنة وكما أن ألذ الأطعمة رجيعه أقذر وأتتن فألذتنعمات الدنيا وحاصلها وسرها فى الآخرة أقبح وأفضح ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا بالطعام وعاقبتها بالرجيع .

« الصنف الثالث حسرة فوات المحبوبات » فقدر نفسك مع جماعة من أقرانك دخلتم فى ظلمة فكان فيها حجارة لا يرى ألوانها فقال اقرانك

---

(١) وفى النسخة النورية : والمرأة التى كان يجامعها عجوز شوهاء .
(٢) وفى النسخة النورية : متلطخ من قاذوراتها .

تحمل من هذا ما تطيق فلعله يكون فيها ما ينتفع به اذا خرجنا من الظلمة فقلت فماذا أصنع بها أتحمل فى الحال ثقلها وأكد بنفسى فيها وأنا لا أدرى عاقبتها ما هذا الا جهل عظيم فان العاقل لا يترك الراحة نقدا بما يتوقعه نسيئة ولا يستيقنه فأخذ كل واحد من اقرانك ما أطاق أخذه وأعرضت عن ذلك تستحمقهم وتسخر بهم لأنهم ينوءون تحت أعبائه وثقله وأنت مرفه فى الطريق تعدو وتضحك منهم فلما جاوزوا الظلمة نظروا فاذا هى جواهر ويواقيت يساوى كل واحد ألف دينار فأقبلوا على بيعها وتوصلوا بها الى الجاه والنعمة وأصبحوا ملوك الأرض فأخذوك فاستسخروك لتعهد دوابهم لينفقوا عليك فى كل يوم قدرا يسيرا من فضلات الطعام فكيف ترى اشتعال نيران الحسرة فى قلبك وبدنك بمعزل منه وكم تقول « يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله » « ويا ليتنا نرد ونعمل غير الذى كنا نعمل » فتقول لهم أفيضوا علينا من الماء مما أفيض عليكم . فيقولون لك هذا حرام عليك ألم تكن تسخر منا وتضحك علينا فلا بد وأن نسخر اليوم منك كما سخرت منا فلا يزال ينقطع نياط قلبك من التحسر ولا ينفعك التحسر ولكن تتسلى وتقول الموت يخلصنى من هذا .

فاعلم أن حال تارك الطاعات فى الآخرة كذلك ينكشف له ولكن لا مطمع فى الموت المخلص بل هى حسرة أبدية دائمة والألم يتضاعف كل يوم وان كان البدن بمعزل عنه ، وعنه العبارة بقوله تعالى « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين » وكذلك يفيض على أهل المعرفة والطاعة من أنوار جمال الوجه ما يحصل به من اللذة مبلغ لا يوازيه نعيم الدنيا بل يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات كما ورد به الخبر لا بمعنى تضاعف المقدار بالمساحة بل بتضاعف الأرواح كما أن الجوهر يكون عشرة أمثال الفرس لا بالوزن والمقدار بل بروح المالية اذ قيمته عشرة أمثاله .

واعلم أن تحريم تلك اللذات وافاضتها عليهم ليس من جنس تحريم الرجل نعمه على عبده بغضب أو باختيار حتى يتصور تغييره بل

هو كتحريم الله تعالى على الأبيض أن يكون أسـود فى حالة الحرارة وذلك لا يتصور فيه التبديل بل مثال ذلك أن يقول للعالم الكامل رجل شيخ هرم من الجهال الذى كان بليدا فى أصل الفطرة ولم يمارس قط علما ولم يتعلم لغة . افض على قلبى من دقائق علومك فيقـول ان الله حرمه على الجاهلين معناه أن الاستعداد لقبوله انما يكتسب بذكاء فطرى وممارسة طويلة للعلم بعد تعلم اللغة العربية وأمور أخر كثيرة واذا بطل الاستعداد ثبت استحالة الافاضة كما يسـتحيل افاضة الحـرارة على البرودة مع بقاء البرودة فلا تظنن أن الله تعالى يغضب عليك فيعاقبك انتقاما ثم تخدع نفسك برجاء العفو فتقول لم يعذبنى ولم يضره معصيتى بل يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم .

واعلم أن هذه الحسرة دائمة لأن منشأها تضاد صفتين لا يزول تضادهما أبدا . مثاله أن الذى يعلق بحبل فى عنقه أو رجله انما يتألم لتضاد الصفتين لا لصورة الحبل والتعلق لكن صـفته الطبيعية تطلب الهوى الى أسفل والمنع القهرى بالحبل يمانع الصفة الطبيعية فيتولد الألم فيه من تمانعهما فكذلك الروح الانسـانى من الروح الروحانى الالهى بأصل فطرته فله بحكم الطبع حنين وشوق الى عالم العلو عالم الأرواح والى مرافقة الملأ الأعلى ولكن أغـلال الشـهوات وسلاسلها تجذبه الى أسفل السافلين وهى شهوات الدنيا وهى صفة عارضة قهرت الصفة الطبيعية ومنعتها عن نيل مقتضاها والألم يتولد من بينهما والنار أيضا انما تؤلم للمضادة فان الملائم للتركيب بقاء الاتصال والنار تضاد الاتصال بالتفريق بين الأجزاء ولو لم تكن قد رأيت النار وسمعت بأن شيئا لطيفا لينا يماس بدنك فيؤلمك لاستنكرته وقلت شىء لا صلابة فيه كيف يؤلم باللمس .

واعلم أن التضاد مؤلم سواء كان بسبب خارج أو داخل فان سم العقرب فى العضو يؤلم لفرط برودته المضادة لحرارة البدن فلا تظنن ان الآلام كلها تدخل من خارج « فان قلت » ان العقـرب انما لدغتم من الخـارج « فاعلم » أن ألم السن وألم العين لا يقصر عنه وانما سـببه

انصباب خلط داخل مضاد لمزاج العين والسن وليس ذلك بأهون من لدغ العقرب والحية .

واعلم أن تضاد الصفات فى القلب يؤلم القلب ايلاما لا ينقص عما يؤلم السن والعين ومثاله فى أضعف الصفات أن البخيل المرائى اذا طلب منه عطية على ملأ من الناس عند من يريد أن يعرفوه بالسخاء يتألم قلبه لتضاد صفتين اذ البخل يتقاضاه أن لا يعطى وحب الجاه يتقاضاه أن يعطى وقلبه بين هاتين الصفتين كشخص ينشر بمنشار نصفين فهذا مثال حسرة الفوت وعظمها بقدر ما ينكشف من جلالة قدر الفائت ولا تعلمه بالحقيقة فى هذا العالم بل فى عالم الكشف وهو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون .

واعلم أن هذه الأصناف الثلاثة لها ترتيب « فالصنف الأول » الذى يبقاه الميت المعذب هو حرقة فرقة المشتهيات وذلك تنين حب الدنيا ـ ولذلك أضيف ذلك الى القبر وانما سبق هذا لأن أغلب الأشياء على قلب الميت فى الحال فراق ما يفوته فى الدنيا من جاه ومال ومنصب ونعمة ـ ثم بعد ذلك ينكشف له أرواح الأعمال وحقائقها القبيحة وذلك عند الانصار التام فى الموت وبعد العهد بغشاوة صفات الدنيا ، وكلما كان اعقابه فى الموت أشد(١) فهو للكشف أقبل فيفيض عند ذلك عليه الخزى والفضيحة ، ولذلك أضيف هذا الى القيامة لأنه وسط بين منزل القبر وبين دار القرار ولذلك قال الله تعالى « يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه » « وأما حسرة فوت المحبوبات » فيستولى عليه آخرا عند دار القرار فى النار ، ففيها يقول أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله وذلك أن بعد العهد عن الدنيا ربما يخفف عنه عذاب النزوع اليها ، وطول العهد بالكشف يوجب خروجه عن خزى الافتضاح فان سورة عذاب الخزى تكون عند هجوم الافتضاح ، ثم يألف الفضيحة والخزى الفا ما ، ثم عند فتورهما قليلا تنبعث حسرة الفوت اذ تظهر

---

(١) وفى النسخة النورية : وكلما كان امعانه فى الموت أشد .

جلالة الفوائت ثم تبقى حسرة الفوات آخرا (١) ويشبه أن يكون ذلك لا آخر له ، وهذا كله تعرفه قطعا اذا عرفت نفسك وعرفت أنك لا تموت لكى تعمى عينك وتصم أذنك وتفلج أعضاؤك فأما الحقيقة التى أنت بها أنت فلا تفنى بالموت أصلا بل يتغير حالك فقط فيبقى معك جميع معارفك وادراكاتك الباطنة وشهواتك وانما نعذبك بفراق ما أحببت . وافتضاحك بظهور ما ينكشف في تلك الحال وتحسرك على فوات ما تعرف عظم قدره بعد الموت لا قبله وهذا كله مقدمات العذاب الحسى البدنى — وذلك أيضا حق وله ميعاد معلوم كما ورد به الآى والأخبار . فاقنع الآن بهذا القدر فان هذا الكلام يكاد يجاوز حد مثل هذا الكتاب ولا بد وأن يحرك سلسلة الحمقى والجاهلين ولكنهم أخس من أن يلتفت اليهم . قال الله تعالى « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .

فلنقتصر على هذا ولنختم به « الأصول الأربعين » لنختم به كتاب « جواهر القرآن ودرره » ومن طلب مزيدا على هذا فليطلبه من كتاب ذكر الموت من كتب الاحياء ، فالغرض الأظهر من هذا الكتاب التلويحات مع التشويق الى الاستقصاء المذكور فى ذلك الكتاب ففيه تنكشف أسرار علوم الدين ولا يفتر عن طلبه الا مشغوف بالدنيا لا يطلب من العلوم الا ما يتخذه شبكة للحطام وآلة لكسب الحرام فلا يناسبه علوم ذلك الكتاب ولا يناسبها أصلا ألبتة حسبى الله وكفى .

---

(١) وفى النسخة النورية : اذ تظهر جلالة الفائت . نعم تبقى حسرة الفوت آخرا ويشبه أن يكون ذلك لا اخر له ، وهذا كله يعرفك قطعا عذاب الآخرة اذن الخ .

خاتمة فى مناظرة النفس

« اعلم » أنا قد نبهناك وشوقناك فان أعرضت عن اصغاء أو أصغيت بظاهر قلبك كما تصغى الى الكلام الرسمى فقد خبت وخسرت وما ظلمت الا نفسك « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذاً أبداً » وان أصغيت اصغاء ذى فطنة وبصر حديد وتفكرت تفكر من له قلب عتيد ، وقد ألقى السمع وهو شهيد . فأخرج عن جميع ما يصدك عن سلوك الصراط المستقيم ، وما يصدك عنها الا حب الدنيا والغفلة عن الله تعالى واليوم الآخر ، واجتهد أن تفرغ قلبك كل يوم ساعة عقيب صلاة الصبح وذلك عند صفاء الذهن . فتفكر فى شأنك وتنظر فى مبدئك ومعادك ، وتحاسب نفسك ، وتقول لها انى مسافر وتاجر ، وربحى سعادة الأبد ولقاء الله تعالى ، وخسرانى شقاوة الأبد والحجاب عن الله تعالى ، ورأس مالى عمرى وكل نفس من الأنفاس كنز من الكنوز وجوهرة من الجواهر اذ تجارته به سعادة الأبد ، وأى كنز أعظم من هذا ، واذا فنى العمر انقطعت التجارة وحصل اليأس ، وهذا اليوم يوم جديد قد أمهلنى الله تعالى فيه ولو توفانى لكنت أشتهى أن يرجعنى الى الدنيا لأعمل صالحا فاحسبى يا نفسى أنك توفيت ورجعت الى الدنيا يوماً واحدا ، واجتهدى فى هذا اليوم الواحد ، وانظرى لنفسك فان لم تمهلى للغد فقد استوفيت ربح هذا اليوم ولم تتحسرى ، وان أمهلت فاستأنفى للغد مثل ذلك ولا تخدعى نفسك بتمنى العفو فان ذلك ظن قد يكذب ولا ينفع التحسر ثم هب أنه قد عفى عنك أليس قد فاتك ثواب المحسنين وناهيك به حسرة وندامة(١) . فاذا قالت لك نفسك ماذا أعمل وكيف اجتهد . فتقول اتركى ما يفارقك بالموت والزمى بدك اللازم وهو الله تعالى واطلبى الأنس بذكره . فاذا قالت فكيف أترك الدنيا فقد استحكمت

---

(١) وفى النسخة النورية وتأتيك حسرة وندامة .

علائقتها فى قلبى . فنقول اقبلى على قطع علائقها من باطن القلب كما علمناك فى الأصـــول العشرة من المهلـــكات ففتشى عن أغلب علاقة من علائقها من حب مال أو جاه أو حسب أو عداوة أو شهوة بطن أو فرج أو غير ذلك من المهلكات . فليس الا أن تتفكر فى عظم آفاتها واهلاكها اياك . فتنبعث لمجاهدتها ومخالفة مقتضاها فقد تخلصت منهـــا وأيدك الله بتوفيقه ومعونته . ثم تقول فقدرى أنك مريضة العمر مدة الحيـــاة وقد أنبأك طبيب تظنين صـــدقه أن ملاذ الأطعمـــة تضرك وأن الآدوية البشعة تنفعك ألست تصبرين بقوله على مرارة الدواء طمعا فى الشفاء. ألست تصبرين على الكد والتعب فى السفر الطويل طمعا فى الاستراحة فى المنزل وأنت مسافرة ومنزلك الآخرة ، والمسافر لا يستريح ويتحمل التعب والكد فان استراح انقطع فى الطريق وهلك ، وتقول يا نفس ما الذى تطلبين من الدنيا ان طلبت المـــال ووجدته وهيهـــات فتكون فى اليهود جماعة أغنى منك ، وان طلبت الجاه ونلت وهيهات فيكون فى أجلاف الأتراك وحمقى الأكراد من يستولى عليك ويكون جاهه أعظم من جاهك . فان كنت لا تدركين آفة الدنيا وشدةعذابهـــا فى الآخرة وبلائها أفلا ترفعين عنها لخسة شركائها أما تعلمين أنك لو أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة كنت واحدة الدهر وفريدة العصر لا يوجد فى الأقاليم نظيرك ، وان طلبت الدنيا كان فى اليهـــود والحمقى من سبقك بها . فأف لدنيا سبقك بها حمير . فتفكرى يانفس وانظرى لنفسك فلا ينظر لك أحد غيرك . وكذلك لا تزال تناظر نفسك حتى تطاوعك على سلوك الصراط المستقيم الى الله تعالى . فهذه المناظرة أهم لك ان كنت عاقلا من مناظرة الحنفية والشفعوية والمعتزلة وغيرهم فلم تعـــاديهم وتجادلهم ولا يضرك خطؤهم ولا خطأ غيرهم ولا هم يقبلون منك ولا أنت تقبل منهم الصواب وان صار أظهر من الشـــمس وتترك أعدى عدوك بين

جنبيك لا تنازعه ولا تناظره بل تساعده على ما يطالبك به من شهواته الباطلة الباطنة . فتستنبط بالفكر الدقيق الحيل لقضاء الشهوة هل هذا الا عين الانعكاس والانتكاس على قمة الراس فهل رأيت قط رجلا يشاهد تحت ثوبه حيات وعقارب أقبلت عليه لتهلكه فأخذ المروحة ليدفع الذباب عن وجه غيره فهل يستحق من يفعل ذلك الا الخزى .

فاعلم أن هذا حالك فى اشتغالك بمناظرة غيرك واعراضك عن مناظرة نفسك ، وفى هذا المعرض ينكشف لك روح عملك يوم تبلى السرائر كما نبهتك على كيفية مكاشفات الآخرة بأسرار الأعمال وأرواحها وما لم تناظر نفسك مدة طويلة لا تخليك لمناجاة ربك وذكره والاقبال عليه ثم طريقك مع النفس اذا خالفتك أن تعاقبها بما يزجرها ، وتعلم أنها كالكلب لا يتأدب الا بالضرب وان أردت أن تعلم طريق مناظرتها ومراقبتها ومحاسبتها ومعاقبتها ، فاطلبه من كتاب المحاسبة والمراقبة ، فان هذا الكتاب لا يحتمله والله تعالى يوفقنا واياك بفضله وجوده وكرمه الى طريق الحق وتأييده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم كلما ذكره الذاكرون أو غفل عنه الغافلون .

(تم)

خاتمة الكتاب لناشره

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، يقول مصححه وناشره المفتقر الى رحمة ربه المعيد المبدى . المحتاج الى عفوه تعالى محيى الدين صبرى الكردى الكانيمشكانى السنندجى . لما كانت كتب الامام الغزالى على الاطلاق ، كعلاج ناجع لدواء الأخلاق بالاتفاق ، وكان من بينها « كتاب الأربعين فى أصول الدين » الذى جعله قسما مستقلا من كتابه جواهر القرآن هو الآية الكبرى فى البيان والحجة البالغة عند ذوى العرفان ومنتهى ما تصل اليه فى التفصيل قوة الانسان ، وكنا فى زمن أحوج الى تقويم الأخلاق وتربية النفوس على الوفاق ، وفقدنا المرشد الحقيقى الصافى الجوهر النقى وكان هذا الكتاب مع ما اشتمل عليه من نفائس الحكم وجوامع الكلم قد جر عليه الدهر ذيل النسيان وسدل عليه ليل الجهالة رداء الاختفاء عن العيان . أتاح لى القدر أن عثرت على نسخة من أصح النسخ فوجدت (مصر) مع انتشار الكتب فيها وكثرة المطابع بها خلوا من مثل هذا السفر الذى كان حقه أن يكتب بمداد التبر . فتاقت نفسى الى طبعه وتعبيق أرجاء المكاتب بنشره فوجدت مع بعض كبار مشايخ الأكراد نسخة قديمة من أصح النسخ منه مكتوبة فى القرن السابع الاسلامى . فاصطحبتها لأقابل ما فيها على ما فى نسختى ثم وجدت نسخة دمشقية وأخرى مصرية فصرن أربع نسخ جمعتها وقابلتها حتى استخلصت من بينها نسخة خرجت أقرب الى البرء من الخطل والسلامة من التحريف والزلل ، ثم بذلت جهد المستطاع فى تصحيحها ولم أدع ذرة من الأفكار فى تنقيحها حتى بدت فى عالم المطبوعات درة فريدة ولحلية الأفكار خريدة وحيدة وقد تم طبعها الأول سنة ١٣٢٨ هـ ولقيت من اقبال الخاصة والعامة والوعاظ على اقتنائها ما هو جدير بمنزلة الكتاب النفيس ومؤلفه امام محيى السنة وحجة الاسلام .

وكان من حسن الحظ بعد أن نفدت نسخ تلك الطبعة أنني عثرت على نسختين مخطوطتين احداهما غاية فى النفاسة والضبط والاتقان وقد حفظتا فى خزانة كتب صاحب العزة والوجيه العالم المحقق نور الدين بك مصطفى ، المسماة بالخزانة « النورية » فتفضل حفظه الله وجزاه عن العلم وخدمته أفضل الجزاء ، بأن أرشدني الى نسختيه وسمح بخروجهما من خزانته الثمينة للاستفادة منهما فى أماكن الاشكال من طبعتنا الأولى كى تصلح فى الطبعة الثانية ــ هذه ــ وان نظرة واحدة فى حواشى هذه الطبعة (الثانية) لتدل القارىء الباحث دلالة واضحة على عظم الفائدة التى اقتطفناها من نسختى الخزانة النورية العامرة وذلك عدا ما أصلحناه فى متن الكتاب اعتمادا على تينك النسختين مما لا نرى بدا من الاشارة اليه هنا اعترافا بالفضل وتنبيها للقارىء الى ما بذلناه من العناية فى اخراج هذه الطبعة أفضل من التى سبقتها اصلاحا وتحريرا .

« أما موضوع الكتاب » فاسمه يغنى عن بيانه ، وعنوانه يكفى عن تبيانه فقد جمع مكارم الأخلاق وبث روح الحياة والوفاق فهو فى نصحه مرشد عارف وفى وعظه حكيم واصف . قد سبر الأخلاق مريضها وسليمها وقوم المعوج منها فتراه يحدث عن العيوب فيها كأنه المشاهد ، ويحكى عن فضائلها حديث الرائى لها والشاهد لا سيما أنه ألفه بعد « الاحياء وكيمياء السعادة » وغيرهما فهو زبدة الكل ، وقد نجز طبع هذه الطبعة يوم ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

فهرست

كتاب الأربعين في أصول الدين

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

(تمت)